

رحلة

الكاتب الاديب البارع اللبيب أبى الحسين
محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الاندلسي
البنسى تغمده الله برحمته آمين

طبعت على النسخة المطبوعة بمطبعة ابريل بليدن

﴿ الطبعة الأولى ﴾

﴿ ١٣٢٦ - ١٩٠٨ م ﴾

على نفقة مصطفى فهمي الكتبي بمصر

(طبع بمطبعة السعاده بجوار محافظة مصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

﴿تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار﴾

ابتدي بتقييدها يوم الجمعة الموفي ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة على متن البحر بمقابلة جبل شلير عرفنا الله السلامة منه وكان انفصال احمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطه حرسها الله للنية الحجازية المباركة قرنها الله بالتيسير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل . . أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور وموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الاعجمي وكان الاجتياز على جيّان لقضاء بعض الاسباب ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشهر شوال المذكور وبموافقة اليوم الثالث عشر لشهر فبراير المذكور ايضاً وكانت مرحلتنا الاولى منها الى حصن القبذاق ثم منه الى حصن قبرة ثم منه الى مدينة إستجة ثم منها الى حصن أشونه ثم منه الى شنبره ثم منه الى حصن اركش ثم منه الى قرية تعرف بقرية اللشمة من قرى مدينة ابن السليم ثم منها الى جزيرة طريف وذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من الشهر المؤرخ فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثاني يسر الله علينا في عبور البحر الى قصر مصمودة تيسيراً عجيباً والحمد لله

ونهضنا منه الى سبتة غدوة يوم الاربعاء الثامن والعشرين منه والفينا بها مركباً للروم الجنويين مقلعاً الى الاسكندرية بحول الله عز وجل فسهل الله علينا في الركوب فيه وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه ويوافقه الرابع والعشرين من فبراير المذكور بحول الله تعالى وعونه لا رب غيره ، وكان طريقنا في البحر محاذياً لبر الاندلس وفارقنا يوم الخميس السادس لذى القعدة بعده عند ما حاذينا دانية وفي صبيحة يوم الجمعة السابع من الشهر المذكور آنفاً قابلنا بر جزيرة يابسة ثم يوم السبت بعده قابلنا بر جزيرة ميروقة ثم يوم الاحد بعده قابلنا جزيرة منورقة ومن سبتة اليها نحو ثمانية مجار والمجرى مائة ميل وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة وقام معنا برّ جزيرة سردانية أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور وهو الثامن من مارس دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل وبين الجزيرتين سردانية ومنورقة نحو الاربعمائة ميل فكان قطعاً مستغرباً في الساعة وطرأ علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى في الحين من تلقاء البر فاخرجنا عنه والحمد لله على ذلك وقام علينا نوء هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور فبقينا مترددين بسببه حول بر سردانية الى يوم الاربعاء بعده فاطلع الله علينا في حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء فلا نميز شرقاً من غرب مركباً للروم قصدنا الى ان حاذانا فسئل عن مقصده فاخبر انه يريد جزيرة صقلية وانه من قرطاجنة عمل مرسية وقد كنا استقبلنا طريقه التى جاء منها من غير

علم فاخذنا عند ذلك في اتباع اثره والله لتيسر لا رب سواه فخرج
علينا طرف من بر سرادنية المذكور فاخذنا في الرجوع عوداً على
بدء الى ان وصلنا طرفاً من البر المذكور ويعرف بقوسمركة وهو
مرسى معروف عندهم فارسينا به ظهر يوم الاربعاء المذكور والمركب
المذكور معنا وبهذا الموضع المذكور اثر لبليان قديم ذكر لنا انه كان
منزلاً لليهود فيما سلف ثم انا اقلعنا منه ظهر يوم الاحد السادس عشر من
الشهر المذكور وفي مدة مقامنا بالمرسى المذكور جددنا فيه الماء والحطب
والزاد وهبط واحد من المسلمين ممن يحفظ اللسان الرومى مع جملة من
الروم الى أقرب المواضع المعمورة منا فاعلمنا انه رأى جملة من أسرى
المسلمين نحو الثمانين بين رجال ونساء يباعون في السوق وكان ذلك
عند وصول العدو دمره الله بهم من سواحل البحر ببلاد المسلمين
والله يتداركهم برحمته ووصل الى المرسى المذكور يوم الجمعة الثالث
من يوم ارسينا فيه سلطان الجزيرة المذكورة مع جملة من الخيل فنزل
اليه اشياخ المركب من الروم واجتمعوا به وطال مقامهم عنده ثم
انصرفوا وانصرف الى موضع سكناه وتركنا المركب المذكور في
موضع ارسائه بسبب مغيب بعض اصحابه في البلد عند هبوب الريح
الموافقة لنا وفي ليلة الثلاثاء الثامن عشر لذي القعدة المذكور والخامس
عشر من شهر مارس المذكور أيضاً وفي الربع الباقي منها فارقنا برّ
سردانية المذكورة وهو بر طويل جرينا بحذائه نحو المائتي ميل
ومنتهى دور الجزيرة على ما ذكر لنا الى ازيد من خمسمائة ميل ويسرّ

الله علينا في التخلص من بحرها لانه أصعب ما في الطريق والخروج
منه يتعذر في اكثر الاحيان والحمد لله على ذلك وفي ليلة الاربعاء
بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله
الرياح بقوة كانه شآبيب سهام فعظم الخطب واشتد الكرب وجاءنا
الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك الحال الليل
كله واليأس قد بلغ منا مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا
بعض ما نزل بنا فجاء النهار وهو يوم الاربعاء التاسع عشر من ذي القعدة
بما هو أشد هولا وأعظم كرباً وزاد البحر اهتياجاً وأربدت الآفاق
سواداً واستشرت الريح والمطر عصوفاً حتى لم يثبت معها شراع فلجيء
الى استعمال الشرع الصغار فأخذت الريح أحدها ومزقته وكسرت
الخشبة التي ترتبط الشرع فيها وهى المعروفة عندهم بالقرية فحينئذ
تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء الى الله عز
وجل وأقمنا على تلك الحال النهار كله فلما جن الليل فترت الحال
بعض فتور وسرنا فى هذه الحالة كلها نرمح السواري سيراً سريعاً وفي
ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية وبتنا تلك الليلة التي هي ليلة الخميس
التالية لليوم المذكور مترددين بين الرجاء واليأس فلما أسفر الصبح نشر
الله رحمته وأقشعت السحاب وطاب الهواء وأضاءت الشمس وأخذ في
السكون البحر فاستبشر الناس وعاد الانس وذهب اليأس والحمد لله
الذي أرانا عظيم قدرته ثم تلافى بجميل رحمته ولطيف رأفته حمداً
يكون كفاء لمنته ونعمته وفي هذا الصباح المذكور ظهر لنا بر صقلية

وقد اجتزنا أكثره ولم يبق منه الا الاقل وأجمع من حضر من رؤساء البحر من الروم وممن شاهد الاسفار والاهوال فى البحر من المسلمين انهم لم يعاينوا قط مثل هذا الهول فيما سلف من أعمارهم والخبر عن هذه الحالة يصغر في خبرها وبين البرين المذكورين بر سردانية وبر صقلية نحو الاربعمائة ميل واستصحبنا من بر صقلية أزيد من مائتي ميل ثم ترددنا بحذائه بسبب سكون الريح فلما كان عصر يوم الجمعة الحادي والعشرين من الشهر المذكور أقلعنا من الموضع الذي كنا أرسينا فيه وفارقنا البر المذكور اول تلك الليله وأصبحنا يوم السبت وبيننا وبينه مسافة بعيدة وظهر لنا اذ ذاك الجبل الذي كان فيه البركان وهو جبل عظيم مصعد فى جو السماء قد كساه الثلج وأعلمنا انه يظهر في البحر مع الصحو على أزيد من مسيرة مائة ميل فأخذنا ملججين وأقرب دنو بهمن البر الينا جزيرة اقريطش وهي من جزائر الروم ولنظرها الى صاحب القسطنطينية وبينها وبين جزيرة صقلية مسيرة سبعمائة ميل ومدة كفيل بالتيسير والتسهيل بمنه وفى طول هذه البحيرة جزيرة اقريطش المذكورة نحو من ثلثمائة ميل وفي ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من الشهر المذكور وهو الثاني والعشرين من شهر مارث حاذينا البر المذكور تقديراً لا عياناً وفي صبيحة اليوم المذكور فارقناه متوجهين القصد وبين هذه الجزيرة المذكورة وبين الاسكندرية سبعمائة ميل أو نحوها وفى صبيحة يوم الاربعاء السادس والعشرين منه ظهر لنا البر الكبير المتصل بالاسكندرية المعروف ببر الغرب وحاذينا

منه موضعاً يعرف بجزائر الحمام على ماذكر لنا وبينه وبين الاسكندرية نحو الاربعمائة ميل على ماذكر لنا فأخذنا فى السير والبر المذكور منا يميناً وفى صبيحة يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر المذكور أطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور منار الاسكندرية على نحو العشرين ميلا والحمد لله على ذلك حمداً يقتضى المزيد من فضله وكريم صنعه وفي آخر الساعة الخامسة منه كان ارساؤنا بمرسي البلد ونزولنا أثر ذلك والله المستعان فيما بقى بعنه فكانت اقامتنا على متن البحر ثلاثين يوماً ونزلنا في الحادي والثلاثين لان ركوبنا اياه كان يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر شوال ونزولنا عنه في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ذى القعدة وبموافقة السادس والعشرين من مارس والحمد لله على مامن به من التيسير والتسهيل وهو سبحانه المسؤول بتتميم النعمة علينا ببلوغ الغرض من المقصود وتعجيل الاياب الى الوطن على خير وعافية انه المنعم بذلك لارب سواه وكان نزولنا بها بفندق يعرف بفندق الصفّار بمقربة من الصبانة ...

﴿ شهر ذى الحجة من السنة المذكورة ﴾

أوله يوم الاحد ثانى يوم نزولنا بالاسكندرية فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء الى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل واحد عما

لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو مالم يحل وكان أكثرهم متشخصين لاداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم فلزموا اداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب فطيف به مرقباً على السلطان أولا ثم على القاضي ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله فخلى سبيله وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم وبحمل جميع ما أنزلوه الى الديوان فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر ما لكل واحد من الاسباب والديوان قد غص بالزحام فوقع التفتيش لجميع الاسباب ما دق منها وما جل واختلط بعضها ببعض وأدخلت الايدي الى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الايدي وتكاثر الزحام ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم نسأل الله أن يعظم الاجر بذلك وهذه لا محالة من الامور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وايثار الرفق لازال ذلك وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة واستردوا الزكاة على أجمل الوجوه وما لقينا ببلاد هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الاحدوثة التي هي من نشأة عمال الدواوين

﴿ ذكر بعض أخبار الاسكندرية وآثارها ﴾

فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه حتى انا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضاً ومن العجب في وضعه ان بناءه تحت الارض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن لان الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الارض فتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضاً وعاينا فيها أيضاً من سوارى الرخام وألواحه كثيرة وعلواً واتساعاً وحسناً مالا يتخيل بالوهم حتى انك تلقى في بعض الممرات بها سوارى يغص الجو بها صعوداً لا يدري ما معناها ولا لما كان أصل وضعها وذكر لنا انه كان عليها في القديم مبان للفلاسفة خاصة ولاهل الرئاسة في ذلك الزمان والله أعلم ويشبه أن يكون ذلك للرصد ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها (المنار) الذي قد وضعه الله عز وجل على يدى من سخر لذلك آية للمتوكلين وهداية للمسافرين لولاه ما اهتدوا في البحر الى بر الاسكندرية ويظهر على أزيد من سبعين ميلا ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضا يزاحم الجو سمواً وارتفاعاً يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتسع ذرعنا أحد جوانبه الاربع فألفينا فيه نيفاً وخمسين باعاً ويذكر ان في طوله أزيد من مائة وخمسين قامة وأما داخله فمرأي هائل اتساعه معارج ومداخل وكثرة مساكن حتى ان المتصرف فيها والوالج في مسالكها ربما ضل وبالجملة لا

يحصلها القول والله لا يخليه من دعوة الاسلام ويبقيه وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرك الناس بالصلاة فيه طلعنا اليه يوم الخميس الخامس لذي الحجة المؤرخ وصلينا في المسجد المبارك المذكور وشاهدنا من شأن مبناه عجبا لا يستوفيه وصف واصف ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة الى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لاهل الطلب والتعبد يفدون من الاقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعليمه واجراء يقوم به جميع أحواله واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الي ذلك ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء وقد رتب أيضا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون الى الاطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عين لابناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا ونصب لتفريق ذلك كل يوم انساناً أميناً من قبله فقد ينتهي الى الفي خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة هكذا دائماً ولهذا كله وقاف من قبله حاشي ما عينه من زكاة العين لذلك وأكد على المتولين لذلك متى نقصهم من الوظائف المرسومة شيء أن يرجعوا الى صلب ماله وأما أهل بلده ففي نهاية من

الترفه واتساع الاحوال لا يلزمهم وظيف البتة ولا فائدة للسلطان بهذا البلد سوي الاوقاف المحبسة المعينة من قبله بهذه الوجوه وجزية اليهود والنصارى وما يطرأ من ذكاة العين خاصة وليس منها سوى ثلاثة أثمانها والخمسة الاثمان مضافة للوجوه المذكورة وهذا السلطان الذي سن هذه السنن المحمودة ورسم هـذه الرسوم الكريمة على عدمها في المدة البعيدة هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب وصل الله صلاحه وتوفيقه ومن أعجب ما اتفق للغرباء ان بعض من يريد التقرب بالنصائح الى السلطان ذكر ان اكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ولا حاجة لهم بها رغبة في المعيشة لانهـم لا يصلون الا بزاد يقلهم فكاد يؤثر سعي هذا المتنصح فلما كان في احدى الايام خرج السلطان المذكور على سبيل التطلع خارج بلده فتلقى منهم جماعة قد لفظتهم الصحراء المتصلة بطرابلس وهم قد ذهب رسومهم عطشاً وجوعاً فسألهم عن وجهتهم واستطلع ما لديهم فاعلموه انهم قاصدون بيت الله الحرام وانهم ركبوا البر وكابدوا مشقة صحرائية فقال لو وصل هؤلاء وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التى اعتسفوها وكابدوا من الشقاء ما كابدوه وبيد كل واحد منهم زنته ذهباً وفضة لوجب ان يشاركوا ولا يقطعوا عن العادة التي أجريناها لهم فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء ويروم التقرب الينا بالسعي في قطع ما أوجبناه لله عز وجل خالصاً لوجهه ومآثر هذا السلطان ومقاصده فى العدل ومقاماته في الذب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة ومن الغريب أيضاً في احوال

هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع احوالهم وهو اكثر بلاد الله مساجد حتى ان تقدير الناس لها يطفف فمنهم المكثر والمقلل فالمكثر ينتهي في تقديره الى اثنى عشر الف مسجد والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك وبالجملة فهى كثيرة جداً لكون منها الاربعة والخمسة في موضع وربما كانت مركبة بائمة مرتبين من قبل السلطان فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية فى الشهر وهى عشرة مؤمنية ومنهم من له فوق ذلك ومنهم من له دونه وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان الى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التى يضيق عنها الحصر ثم كان الانفصال عنه على بركة الله تعالى وحسن عونه صبيحة يوم الاحد الثامن لذي الحجة المذكورة وهو الثالث لابريل فكانت مرحلتنا منه الى موضع يعرف بدمنهور وهو بلد مسور في بسيط من الارض افيح متصل من الاسكندرية اليه الى مصر والبسيط كله محرث يعمه النيل بفيضه والقرى فيه يميناً وشمالاً لا تحصى كثرة ثم في اليوم الثاني وهو يوم الاثنين اجزنا النيل بموضع يعرف بصا في مركب تعديه واتصل سيرنا الى موضع يعرف ببرمة فكان مبيتنا بها وهي قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق ثم بكرنا منها يوم الثلاثاء وهو يوم عيد النحر من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة المؤرخة فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطندته وهي من القرى الفسيحة الآهلة فابصرنا بها مجمعاً حفيلاً وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة واتصل سيرنا

الى موضع يعرف بسبك وكان مبيتنا بها واجتزنا في ذلك اليوم على موضع حسن يعرف بمليج والعمارة متصلة والقرى منتظمة في طريقنا كلها (ثم) بكرنا منها يوم الاربعاء بعده فمن أحسن بلد مررنا عليه موضع يعرف بقليوب على ستة أميال من القاهرة فيه الاسواق الجميلة ومسجد جامع كبير حفيل البنيان ثم بعده المنية وهو موضع أيضاً حفيل ثم منها الى القاهرة وهي مدينة السلطان الحفيلة المتسعة ثم منها الى مصر المحروسة وكان دخولنا فيها أثر صلاة العصر من يوم الاربعاء وهو الحادي عشر من ذي الحجة المذكور والسادس من ابريل عرفنا الله فيها الخير والخيرة وتمم علينا صنعه الجميل بالوصول الى الغرض المأمول ولا اخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته انه على مايشاء وقدير وفي يوم الاربعاء المذكور اجتزنا القسم الثاني من النيل في مركب لمعدية أيضاً بموضع يعرف بدجوة وذلك وقت الغداة الصغرى كان نزولنا في مصر بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه في حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور

﴿ ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارها العجيبة ﴾

فاول ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التي ببركتها يمسكها الله عز وجلّ فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وهو في تابوت فضة مدفون تحت الارض قد بني عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولا يحيط

الادراك به مجلل بانواع الديباج محفوف بامثال العمد الكبار شمعاً أبيض ومنه ماهو دون ذلك قد وضع أكثرها في أتوار فضة خالصة ومنها مذهبة وعلقت عليه قناديل فضة وحف اعلاه كله بامثال التفافيح ذهباً في مصنع شبيه الروضة يقيد الابصار حسناً وجمالا فيه من انواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون والمدخل الى هذه الروضة على مسجد على مثالها في التأنق والغرابة حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل اليها وهما أيضاً على تلك الصفة بعينها والاستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا الى هذا المسجد المبارك حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص يصف الاشخاص كلها كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك واحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسحهم بالكسوة التي عليه وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين الى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ومتضرعين بما يذيب الاكباد ويصدع الجماد والامر فيه عظيم ومرأى الحال مهول نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم وانما وقع الالماع بنبذة من صفته مستدلا على ما وراء ذلك اذ لا ينبغي للعاقل ان يتصدى لوصفه لانه يقف موقف التقصير والعجز وبالجملة فما أظن في الوجود كله مصنعاً أحفل منه ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع قدس الله العضو الكريم

الذى فيه بعنه وكرمه وفى ليلة اليوم المذكور بتنا بالجبانة المعروفة بالقرافة وهي أيضاً احدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين وأهل البيت والصحابة رضوان الله عليهم والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والاولياء ذوى الكرامات الشهيرة والانباء الغريبة وانما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته فمنها قبر ابن النبي صالح وقبر روبيل بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين وقبر آسية امرأة فرعون رضي الله عنها ومشاهد أهل البيت رضى الله عنهم أجمعين مشاهد أربعة عشر من الرجال وخمس من النساء وعلى كل واحد منها بناء حفيل فهي بأسرها روضات بديعة الاتقان عجيبة البليان قد وكل بها قوم يسكنون فيها ويحفظونها ومنظرها منظر عجيب والجرايات متصلة لقوامها في كل شهر

﴿ ذكر مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم ﴾

مشهد على بن الحسين بن على رضى الله عنه ومشهدان لابنى جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهم ومشهد القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن على زين العابدين المذكور رضى الله عنهم ومشهدان لابنيه الحسن والحسين رضى الله عنهما ومشهد ابنه عبد الله بن القاسم رضى الله عنه ومشهد ابنه يحيى بن القاسم ومشهد على بن عبد الله بن القاسم رضى الله عنهم ومشهد أخيه عيسى بن عبد الله رضى الله عنه ومشهد يحيى بن الحسن بن زيد بن الحسن رضى الله عنه ومشهد محمد بن

عبد الله بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضى الله عنهم ومشهد جعفر بن محمد من ذرية علي بن الحسين رضى الله عنهم وذكر أنه كان ربيب لامام مالك رضى الله عنه

﴿ مشاهد الشريفات العلويات رضى الله عنهن ﴾

مشهد السيدة أم كلثوم ابنة القاسم بن محمد بن جعفر رضى الله عنهم ومشهد السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن الحسين بن علي رضى الله عنهم ومشهد أم كلثوم ابنة محمد بن جعفر الصادق رضي الله عنهم ومشهد السيدة أم عبد الله بن القاسم بن محمد رضي الله عنهم وهذا ذكر ما حصله العيان من هذه المشاهد العلوية المكرمة وهي أكثر من ذلك وأخبرنا أن في جملتها مشهداً مباركا لمريم ابنة علي بن أبي طالب رضى الله عنه وهو مشهور لكنا لم نعاينه وأسماء أصحاب هذه المشاهد المباركة لم نتلقها من التواريخ الثابتة علم مع تواتر الاخبار بصحة ذلك ومعرفتهم بها وعلى كل واحد منها بناء حفيل فهي بأسرها روضات بديعة الاتقان عجيبة البنيان قد وكل بها قومة يسكنون فيها ويحفظونها ... وجرايات متصلة لقوامها في كل شهر

(ذكر مشاهد بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالقرافة المذكورة ومشاهد التابعين والائمة والعلماء والزهاد والاولياء المشهورين بالكرامات رضي الله عنهم أجمعين)

والمقيد يبرأ من القطع بصحة ذلك وانما رسم من أسمائهم ما وجده مرسوماً في تواريخها وبالجملة فالصحة غالبة لا يُشك فيها ان شاء الله عز وجل) • مشهد معاذ بن جبل رضى الله عنه مشهد عقبة بن عامر الجهني حامل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهد صاحب برده صلى الله عليه وسلم مشهد أبي الحسن صائغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهد سارية الجبل رضي الله عنه مشهد محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه مشهد أسماء ابنة أبي بكر الصديق رضى الله عنهم • مشهد ابن الزبير بن العوام رضي الله عنهما مشهد عبد الله ابن حذافة السهمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهد ابن حليمة رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿مشاهد الائمة العلماء الزهاد رضى الله عنهم أجمعين﴾

مشهد الامام الشافعى رضى الله عنه وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعاً وبنى بازائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها لا اوسع مساحة ولا أحفل بناء يخيل لمن يتطوف عليها انها بلد مستقل بذاته بازائها الحمام الى غير ذلك من مرافقها والبناء فيها حتى الساعة والنفقة عليها لا تحصي تولى ذلك بنفسه الشيخ الامام الزاهد العالم المعروف

بنجم الدين الخبوشاني وسلطان هذه الجهات صالح الدين يسمح له بذلك كله ويقول زد احتفالا وتأنقاً وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله فسبحان الذي جعله صلاح دينه كاسمه ولقينا هذا الرجل الخبوشاني المذكور تبركا بدعائه لانه قد كان ذكر لنا أمره بالاندلس فألفيناه في مسجده بالقاهرة وفي البيت الذي يسكنه داخل المسجد المذكور وهو بيت ضيق افنده فدعا لنا وانصرفنا ولم نلق من رجال مصر سواه مشهد المزني صاحب الامام الشافعي رضى الله عنه مشهد أشهب صاحب مالك رضى الله عنه مشهد عبد الرحمن ابن القاسم صاحب مالك رضى الله عنهما مشهد أصبغ صاحب مالك رضى الله عنهما مشهد القاضي عبد الوهاب رضى الله عنه مشهد عبد الله ابن (عبد) الحكم ومحمد ابن عبد الله بن عبد الحكم رضى الله عنهما مشهد الفقيه الواعظ الزاهد أبي الحسن الدينوري رضى الله عنه مشهد بنان العابد رضى الله عنه مشهد الرجل الصالح العابد الزاهد المعروف بصاحب الابريق وقصته عجيبة في الكرامة مشهد أبي مسلم الخولاني رضى الله عنه مشهد المرأة المستخفية المعروفة بنفيسة رضي الله عنها مشهد الروزباري رضي الله عنه مشهد الشريف ... محمد بن محمد بن هارون الرشيد المعروف بالسبتي رضى الله عنه مشهد الرجل الصالح مقبل الحبشي رضى الله عنه مشهد ذي النون بن ابراهيم المصري رضى الله عنه مشهد القاضي الانباري قبر الناطق الذي سمع عنه وضعه في لحده يقول اللهم أنزلني منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين رضي الله عنه مشهد العروس ولها أثر

من الكرامة في حال جلوتها على زوجها لم يسمع أعجب منه ومشهد الصامت الذى يحكي عنه انه لم يتكلم أربعين سنة مشهد العصافيري رضى الله عنه مشهد عبد العزيز بن أحمد بن علي بن الحسن الخوارمي مشهد الفقيه الواعظ الافضل الجوهرى ومشاهد أصحابه بازائه رضي الله عنهم أجمعين مشهد شقران شيخ ذى النون المصرى مشهد الرجل الصالح المعروف بالاقطع المغربي مشهد المقرئ ورش مشهد الطبرى مشهد شيبان الراعى والمشاهد الكريمة بها أكثر من ان تنضبط بالتقييد أو تحصل بالاحصاء وانما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته وبقبلة القرافة المذكورة بسيط متسع يعرف بموضع قبور الشهداء وهم الذين استشهدوا مع السارية رضي الله عنهم جميعاً والبسيط المذكور منهم كله للعيان على مثال أسنمة القبور دون بناء ومن العجيب ان القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى اليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء و لاجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان في كل شهر والمدارس التي بمصر والقاهرة كذلك وحقق عندنا ان الاجراء على ذلك كله نيف على الفي دينار مصرية في الشهر وهي أربعة آلاف دينار مؤمنية وذكر لنا ان لجامع عمرو بن العاص بمصر من الفائدة نحو الثلاثين ديناراً مصرية في كل يوم تتفرق في مصالحه ومرتبات قومته وسدنته وأئمته والقراء فيه ومما شهدناه بالقاهرة أربعة جوامع حفيلة البنيان أنيقة الصنعة الى مساجد عدة وفي أحد الجوامع الخطبة اليوم ويأخذ الخطيب فيها مأخذ سني يجمع فيها

الدعاء للصحابة رضي الله عنهم وللتابعين ومن سواهم ولامهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ولعميه الكريمين حمزة والعباس رضي الله عنهما ويعطف الوعظ ويرقق التذكير حتى تخشع القلوب القاسية وتتفجر العيون الجامدة ويأتي للخطبة لابساً السواد على رسم العباسية وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود وهو الذي يسمى بالمغرب الاحرام وعمامة سوداء متقلداً سيفاً وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر في أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين كأنه يؤذن بالانصات وفي توسطه أخرى وفي انتهاء صعوده ثالثة ثم يسلم على الحاضرين يميناً وشمالا ويقف بين رايتين سوداويين فيهما تجزيع بيض قد ركزتا في أعلاء المنبر ودعاؤه في هذا التاريخ للامام العباسي أبي العباس أحمد الناصر لدين الله ابن الامام أبي محمد الحسن المستضيء بالله ابن الامام أبي المظفر يوسف المستنجد بالله ثم لمحيي دولته أبي المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين ثم لاخيه ولي عهده أبي بكر سيف الدين وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنه العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام وحفر خندق يحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار العلوج الاسرى من الروم وعددهم لايحصى كثرة ولا سبيل أن يمتهن في

ذلك البنيان أحد سواهم وللسلطان أيضاً بمواضع أخر بنيان والاعلاج يخدمون فيه ومن يمكن استخدامه من المسلمين فى مثل هذه المنفعة العامة موفة عن ذلك كله ولا وظيفة في شيء من ذلك على أحد ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان

المارستان الذى بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً وعين فيها من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الاشربة واقامتها على اختلاف أنواعها ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الاغذية والاشربة ما يليق بهم وبازاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضي ولهن من يكفلون ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها والسلطان يتطلع هذه الاحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد وبمصر

مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب الى أبي العباس أحمد بن طولون وهو من الجوامع العتيقة الانيقة الصنعة الواسعة البنيان جعله السلطان مأوي للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه وأجري عليهم الارزاق في كل شهر (ومن أعجب) ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل

أحكامهم اليهودية يجد يداً لاحد عليهم فقدموا من أنفسهم حاكماً يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده واستصحبوا الدعة والعافية وتفرغوا لعبادة ربهم ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير ... جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا ... من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا ... من المدارس الا وفضل السلطان يعم جميع من يأوي اليها ... ذلك نفقات بيوت الاموال ومن مآثره ... على اعتنائه بأمور المسلمين كافة انه أمر بعمارة محاضر ... كتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والايتام خاصة ... الجراية الكافية لهم ومن مفاخر هذا السلطان وآثاره ... الى شرع في بنائها بغربي مصر وعلى ... ووصف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء مصر ... مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة ... قوساً من أكبر مايكون من قسي القناطر ... لاسكندرية له في ذلك ... الحزمة عداد الحادثة آطراً من عدو يدهم ... فيض النيل وانغمار الارض به وامتناع سلوك ... كما في كل وقت أن احتيج الى ذلك ... متوقع ومحذور يتقيه ولاهل مصر ... من الانذرات الحدثانية يرون أن حدوثها

ايذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية والله أعلم بغيبه ولا إله سواه وبمقربة من هذه القنطرة المحدثة (الاهرام) القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر المربعة الشكل كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء ولا سيما الاثنان منها فانهما يغص الجو بهما سموا في سعة الواحد منها من أحد أركان الى الركن الثانى ثلثمائة خطوة وست وستون خطوة قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة وركبت تركيباً هائلا بديع الالصاق دون أن يتخللها مايعين على الصاقها محددة الاطراف فى رأى العين وربما أمكن الصعود اليها على خطر ومشقة فتلفى أطرافها المحددة كاوسع مايكون من الرحاب لو رام أهل الارض نقض بنائها لاعجزهم ذلك للناس في أمرها اختلاف فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك وبالجملة فلا يعلم شأنها الا الله عز وجل ولاحد الكبيرين منها باب يصعد اليه على نحو القامة من الارض أو أزيد ويدخل منه لى بيت كبير سعته نحو الخمسين شبراً وطوله نحو ذلك وفى جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوفة شبه التى تسميها العامة البيلة يقال انها قبر والله أعلم بحقيقة ذلك ودون الكبير هرم سعته من الركن الواحد الى الركن الثاني مائة وأربعون خطوة ودون هذا الصغير خمسة صغار ثلاثة متصلة والاثنان على مقربة منها متصلان وعلى مقربة من هذه الاهرام بمقدار غلوة صورة غريبة من حجر قد قامت كالصومعة على صفة آدمي هائل المنظر وجهه الى الاهرام وظهره الى القبلة مهبط النيل تعرف بأبى الاهوال وبمدينة مصر المسجد الجامع

منسوب لعمرو بن العاص رضي الله عنه وله أيضاً بالاسكندرية جامع آخر ومصلى الجمعة للمالكيين وبمدينة مصر آثار من الخراب الذى احدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين وذلك سنة اربع وستين وخمسمائة وأكثرها الآن مستجد والبليان بها متصل وهي مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظم اختطاطها فيما سلف وعلى شط نيلها مما يلي غربيها والنيل معترض بينهما قرية كبيرة حفيلة البنيان تعرف بالجيزة لها كل يوم أحد سوق من الاسواق العظيمة يجتمع اليها ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان وعلالي مشرفة وهي مجمع اللهو والنزهة وبينها وبين مصر خليج من النيل يذهب بطولها نحو الميل ولها مخرج له وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة واستشعار ابتدائه في شهر يونيه ومعظم انتهائه أغشت وآخره أول شهر اكتوبر وهذا المقياس عمود رخام أبيض مثمن في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه اليه وهو مفصل على اثنين وعشرين ذراعا مقسمة على أربعة وعشرين قسما تعرف بالاصابع فاذا انتهي الفيض عندهم الى أن يستوفي الماء تسع عشرة ذراعا مغمورة فيه فهي الغاية عندهم في طيب العام وربما كان الضرر فيه كثيراً بعموم الفيض والمتوسط عندهم ما استوفي سبع عشرة ذراعا وهو الاحسن عندهم من الزيادة المذكورة والذى يستحق به السلطان خراجه من بلاد مصر ست عشرة ذراعا فصاعداً وعليها

لمعطى البشارة الذي يراعى الزيادة فى كل يوم والزيادة في أقسام الزراعة المذكورة ويعلم بها مياومة حتى تستوفي الغاية التى يقض بها وان قصر عن ست عشرة ذراعا فلا مجبا للسلطان فى ذلك العام ولا خراج ذلك لنا أن بالجيزة المذكورة قبر كعب الاحبار رضي الله عنه وفى صدر الجيزة المذكورة أحجار رخام قد صورت فيهـا التماسيح فيقال أن بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلى البلد من النيـل مقـدار ثلاثة أميال عـلواً وسفلا والله أعلم بحقيقة ذلك ومن مفاخر هـذا السلطان المزلفة من الله تعـالي وآثاره التى ابقاها ذكراً جميـلا للدين والدنيا ازالتـه رسم المكث المضروب وظيفـة على الحجاج مـدة دولة العبيديين فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استئدائها عنتا مجحفاً ويسلبون فيها خطة خسف باهظة وربما ورد منهـم من لا فضـل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده فيلزم اداء الضريبة المعلومة وكان سبعة دنانير ونصف دينار ومن الدنانير المصرية التى هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس يعجز عن ذلك فيتناول باليم العـذاب بعيذاب فكانت كاسمها مفتوحة العين وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الانثيين أو غير ذلك من الامور الشنيعة نعوذ بالله من سوء قدره وكان بجدة امثال هـذا التنكيل واضعافه لمن لم يؤدي مكسه بعيذاب ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الاداء فمحي هذا السلطان هذا الرسم اللعين ورفع عوضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها وعين مجبي موضع معين بأمره كذلك وتكفل بتوصل جميع ذلك الي الحجاز

بأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة عمرهما الله فعوض من ذلك أجل عوض وسهل السبيل للحجاج وكانت في حيز الانقطاع وعدم الاستيلاء وكفى الله المؤمنين على بدىء هذا السلطان العادل حادث عظيما وخطبا أليما فترتب له على كل من يعتقد من الناس ان حج البيت الحرام أحد القواعد الخمس من الاسلام حتى يعم جميع الآفاق ويوجب الدعاء له في كل صقع من الاصقاع وبقعة من البقاع والله من وراء مجازاة المحسنين وهو جلت قدرته لا يضيع أجر من أحسن عملا الى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ضرائب على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكس فضلا عما سواه فمحى هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الأمن ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل أن الناس في بلاده يتصرفون لباس الليل تصرفا فيما يعنيهم ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم عن مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والاسكندرية حسبما تقدم ذكره

﴿شهر صفر سنة تسع وسبعين عرفنا الله يمنها وبركتها﴾

استهل هلاله ليلة الثلاثاء وهو اليوم السادس والعشرون من ابريل ونحن بمصر يسر الله علينا مرامنا وفي صبيحة يوم الاحد السادس من الشهر المذكور كان انفصالنا من مصر وصعودنا في النيل على الصعيد قاصدين الى (قوص) عرفنا الله عادته الجميلة من التيسير وحسن المعونة

يمنه ووافق يوم أقلاعنا المذكور أول يوم من مايه بحول الله عز وجل والقري في طريقنا متصلة في شط النيل والبلاد الكبار حسبما يأتى ذكره ان شاء الله فمنها قرية تعرف (بالسكون) في الضفة الشرقية من النيل مباشرة للصاعد فيه ويذكر ان فيها كان مولد النبي موسى الكليم صلي الله عليه وسلم ومنها ألقته أمه فى اليم وهو النيل حسبما ذكر وعاينا أيضاً بغربي النيل ميامنا لنا وذلك كله يوم أقلاعنا المذكور وفى الثاني منه المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق صلى الله عليه وسلم وبها موضع السجن الذى كان فيه وهو الآن ينقض وينقل احجاره الى القلعه المبتناه الآن على القاهرة وهو حصن حصين لمنعة وبهذه المدينة المذكور الطعام التي اختزنها يوسف صلى الله عليه وسلم وهي مجوفة على ما يذكر ومنها الموضع المذكور (بمنية ابن الخصيب) وهو بلد على شط النيل ميامنا للصاعد فيه كبير فيه الاسواق والحمامات وسائر مرافق المدن اجتزنا عليه ليلة الاحد الثالث عشر لمحرم المذكور وهو الثامن يوم أقلاعنا من مصر لان الريح سكنت عنا فتربصنا في الطريق ولو ذهبنا الى رسم كل موضع يعترضنا في شطي يمينا أو شمالا لضاق الكتب عنه لكن نقصد من ذلك الى الأكبر الاشهر وقابلنا على مقربة من هذا الموضع مياسراً لنا المسجد المبارك المنسوب لابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه وعلى نبينا وسلم وهو مسجد مذكور مشهور معلوم بالبركة مقصود ويقال ان بفنائه أثر الدابة التى كان يركبها الخليل صلى الله عليه وسلم ومنها موضع يعرف (بأنصنا) مياسراً لنا وهي قرية فسيحة جميلة لها آثار قديمة وكان في السالف مدينة عتيقة

وكان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين وجعل على كل مركب منحدر في النيل وظيفة من حمل صخره الى القاهرة فنقل بأسره اليها وفي صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من محرم المذكور وهو التاسع من اقلاعنا من مصر جزنا بالجبل المعروف بجبل المقله وهو بالشط الشرقي من النيل مبشر لصاعد فيه وهو نصف الطريق الى (قوص) من مصر اليه ثلاثة عشر بريد ومنه الى قوص مثلها ومما يجب ذكره على جهة التعجب ان من حيز مصر في شط النيل الشرقي مصاعداً للصاعد فيه حائطاً متصلا قديم البنيان منه ما قد تهدم ومنه ما بقي أثره يتمادى على الشط المذكور الى اصوان آخر صعيد مصر وبين اصوان وبين قوص ثمانية برد والاقوال في أمر هذا الحائط تتشعب وتختلف بالجملة فشأنه عجيب ولا يعلم سره الا الله عز وجل وهو يعرف بحائط العجوز ولها خبر مذكور أدنى هذه العجوز هي الساحرة المذكور خبرها في المسالك والممالك التي كانت لها المملكة بها مدة

﴿ ذكر ما ستدرك خبره مما كان اغفل ﴾

وذلك ان حلنا الاسكندرية في الشهر المؤرخ أولا عاينا مجتمعاً من الناس عظيما بروز لمعاينة اسرى من الروم ادخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوهم الى اذنابها وحولهم الطبول والابواق فسألنا عن قصتهم فأخبرنا بأمر تتفطر له الاكباد اشفاقاً وجزعا وذلك ان جملة من نصارى الشام جتمعوا وانشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم من بحر

القلزم ثم حملوا انقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه ولما حصلوا بساحل البحر سمروا مراكبهم وأكملوا انشاءها وتأليفها ورفعوها فى البحر وركبوها قاطعين بالحجاج وانتهوا الى بحر النعم فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا وانتهوا الى عيذاب فأخذوا فيه مركبا كان يأتي بالحجاج من جدة وأخذوا أيضاً في البر قافلة كبيرة تأتى من قوص الى عيذاب وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحداً وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة أعزهما الله وأحدثوا حوادث شليعة لم يسمع مثلها في الاسلام ولا انتهى رومي الى ذلك الموضع قط ومن عظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم واخراجه من الضريح المقدس أشاعوا ذلك وأجروا ذلك على ألسنتهم فأخذهم الله باجترائهم عليه وتعاطيهم مايحول عناية القدر بينهم وبينه ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والاسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلولو مع أنجاد من المغاربة البحريين فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم وكانت آية من آيات العنايات الجبارية وأدركوهم عن مدة طويلة كان بينهم من الزمان نيف على شهر ونصف أو حوله وقتلوا وأسروا وفرق من الاسارى على البلاد ليقتلوا بها ووجه منهم الى مكة والمدينة وكفى الله بجميل صنعه الاسلام والمسلمين أمراً عظيما

والحمد لله رب العالمين (رجع الذكر) ومن المواضع التى اجتزنا عليها
فى الصعيد بعد جبل المقلة التي ذكرنا انه نصف الطريق من مصر
الى قوص حسبما تقدم ذكره بموضع يعرف (بمنفلوط) بقرية من الشط
الغربى ميامناً للصاعد فى النيل فيه الاسواق وسائر مايحتاجون اليه
من المرافق فى نهاية من الطيب فى الصعيد مثلها وقمحها يجلب الى مصر
لطيبه ورزانة حبته قد اشتهر عندهم بذلك فالتجار يصعدون في
المراكب لاستجلابه ومنها مدينة (أسيوط) وهي من مدن الصعيد الشهيرة
بينها وبين الشط الغربى من النيل مقدار ثلاثة أميال وهي جميلة المنظر
حولها بساتين النخل وسورها سور عتيق ومنها موضع يعرف (بأبى
تيج) وهو بلد فيه الاسواق وسائر مرافق المدن وهو فى الشط الغربي
من النيل منها مدينة أخميم وهى أيضاً من مدن الصعيد الشهيرة
المذكورة بشرقي النيل وعلى شطه قديمة الاختطاط عتيقة الوضع فيها
مسجد ذى النون المصرى ومسجد داود أحد الصالحين المشهورين
بخير والزهادة ومنها مسجدان مرسومان بالبركة دخلنا اليها متبركين
بصلاة فيها وذلك يوم السبت التاسع عشر لمحرم المذكور وبهذه المدينة
المذكورة آثار ومصانع من بنيان القبط وكنائس معمورة الى الآن
بمعاهديين من نصارى القبط ومن أعجب الهياكل المتحدث بغرائبها
فى الدنيا هيكل عظيم فى شرقى المدينة المذكورة وتحت سورها طوله
مائتا ذراع وعشرون ذراعاً وسعته مائة وستون ذراعا يعرف عند أهل
هذه الجهة بالبربا وكذلك يعرف كل هيكل عندهم وكل مصنع

قديم قد قام هـذا الهيكل العظيم على أربعـين سارية حاشي حيطانه دور كل سارية منها خمسون شبراً وبين كل سارية وسارية ثلاثون شـبراً ورؤسها فى نهاية من العظـم والاتقان قـد نحتت نحتاً غريباً فجاءت مركنة بديعـة الشكل كان الخراطـين تناولوها وهي كلها مزركشة بأنواع الاصبغة اللازوردية وسواها والسواري كلها منقوشة من أسفلها الى أعـلاها وقـد انتصب على رأس كل سارية منها الى رأس صاحبتها التى تليها لوح عظـيم من الحجر المنحوت من أعظمها ما كلنا فيه ستة وخمسين شبراً طولا وعشرة أشبار عرضاً وثمانية أشبار ارتفاعا وسقف هـذا الهيكل كله من أنواع الحجارة المنتظمة ببديع الالصاق فجاءت كأنها فرش واحـد وقد انتظمت جمعيـة التصاوير البديعة والاصبغة الغريبة حتى يخيل للناظر فيها انها سقف من الخشب المنقوش والتصاوير على أنواع في كل بلاطة من بلاطاته فمنها ماقد جللته طيور لصور رائقة باسـطة أجنحتها توهم الناظر اليها انها تهم بالطيران ومنها ماقد جللته تصاوير أدمية رائقة المنظر رائعة الشكل قد أعدت لكل صورة منها هيئة هي عليها كامساك تمثال بيدها أو سلاح أو طائر أو كأس أو اشارة شخص الى آخر بيده أو غير ذلك مما يطول الوصف له ولا تتأتي العبارة لاستيفائه داخل هذا الهيكل العظيم وخارجه وأعلاه وأسفله تصاوير كلها مختلفات الأشكال والصفة منها تصاوير هائلة المنظر خارجة عن صور الآدميين يستشعر الناظر اليها رعباً ويمتلأ منها عبرة وتعجباً وما فيه مغرز اشفاً ولا ابرة الا وفيه صورة أو نقش أو خط

بسنده لايفهم قدعم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع ويتأتى في صم الحجارة من ذلك مالا يتأتى في الرخو من الخشب فيحسب الناظر استغراقه لعمل الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه لضاق عنه فسبحان الموجد للعجائب لا اله سواه وعلى أعلى هذا الهيكل سطح مفروش بألواح الحجارة العظيمة على الصفة المذكورة وهو في نهاية الارتفاع فيحار الوهم فيها ويضل العقل في الفكرة في تطليعها ووضعها وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد والمعارج والسراديب والمواليج ماتضل فيه الجماعات من الناس ولا يهدى بعضهم لبعض الا بالنداء العالي وعرض حائطه ثمانية عشر شبراً وهو كله من حجارة مرصوصة على الصفة التي ذكرناها وبالجملة . فشأن هذا الهيكل عظيم ومرآه احدى عجائب الدنيا التي لايبلغها الوصف ولا ينتهي اليها الحد وانما وقع الالماع بنبذة من وصفه دلالة عليه والله شهيد عالم فيه او خبير بالمعنى الذي وضع له فلا يظن المتصفح لهذا الكتاب ان في الاخبار عنه بعض غلو ان كل مخبر عنه لو كان قساً بياناً وسحباناً يقف موقف العجز والتقصير ولله المحيط بكل شيء علماً لا اله سواه . بهذه البلاد صعيد معترضة في الطريق للحجاج والمسافرين كالخميم وقوص ومنية ابن الخصيب من النهوض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث عنها وادخال الايدي الى أوساط التجارة فحصاً عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير مايقبح سماعه وتستبشع الاحدوثة عنه كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أو مايدرك النصاب عنها

حسبما ذكرناه في ذكر الاسكندرية من هذا المكتوب وربما ألزموهم الايمان على ما بأيديهم وهل عندهم غير ذلك ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمين عليه فيقف الحجاج بين أيدى هؤلاء المتناولين لها مواقف خزي ومهانة تذكرهم أيام المكوس وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه ولو عرفه لأمر بقطعه كما أمر بقطع ما هو أعظم منه ولجاهد المتناول له فان جهادهم من الواجبات لما يصدر عنهم من التعسف وعسير الازهاق وسوء المعاملة مع غرباء انقطعوا الى الله عز وجل وخرجوا مهاجرين الى حرمه الامين ولو شاء الله لكانت هذه الخطة مندوحة في اقتضاء الزكاة على أجمل الوجوه من ذوى البضائع في التجارات مع مراعاة رأس كل حول الذى هو محل الزكاة وتجنب اعتراض الغرباء المنقطعين ممن تجب الزكاة له لا عليه وكان يحافظ على جانب هذا السلطان العادل الذى قد شمل البلاد عدله وسار في الآفاق ذكره ولا يسعي فيما يسيء الذكر ممن قد حسن الله ذكره ويقبح المقالة في جانب من اجمل الله المقالة عنه ومن (أشنع ماشاهدناه) من ذلك خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة في أيديهم المسال الطوال ذوات الانصبة فيصعدون الى المراكب استكشافاً لما فيها فلا يتركون عكماً ولا غرارة الا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة مخافة أن يكون في تلك الغرارة او العكم الذين لا يحتويان سوى على الزاد شيئاً غيب عليه من بضاعة أو مال وهذا اقبح ما يؤثر في الاحاديث الملعنة وقد نهى الله عن التجسيس فكيف عن كشف لما يرجى بستر الصون دونه من حال

لا يريد صاحبها أن يطلع عليها اما استحقاراً او استنفاساً دون بخل
بواجب يلزمها والله الآخذ على أيدي هؤلاء الظلمة بيد هذا السلطان
العادل وتوفيقه ان شاء الله ومن المواضيع التي اجتزنا عليها بعد اخميم
المذكورة موضع منشأة السودان على الشط الغربي من النيل هي قرية
معمورة ويقال أنها كانت في القدم بديعة كبيرة وقد قام امام هذه القرية
بينها وبين النيل رصيف عال من الحجارة كأنه السور يضرب فيه النيل
ولا يعدوه عند فيضه ومده فالقرية بسببه في أمن من آتيه ومنها
موضع يعرف (بالبلينة) وهي قرية حسنة كثيرة النخل بالشط الغربي من
النيل بينها وبين قوص أربعة برد ومنها موضع يعرف (بدشنة) بالشط
الشرقي من النيل وهي مدينة مصورة في جميع مرافق المدن وبينها وبين
قوص بريدان ومنها موضع بغربي النيل وعلى مقربة من (شطه) يعرف
بدندره وهي مدينة من مدن الصعيد كثيرة النخل مستحسنة المنظر
مشجرة بطيب الرطب بينها وبين قوص بريد وذكر لنا ان فيها هيكلاً
عظيما وهو معروف عند أهل هذه الجهات بالبربا حسبما ذكرنا عند
ذكر اخميم وهيكلها يقال ان هيكل دندره أحفل منه وأعظم ومنها
مدينة (قنا) وهي من مدن الصعيد بيضاء أنيقة المنظر ذات مبان حفيلة
ومن مآثرها المذكورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت فلا تظهر في
زقاق من زقاقها امرأة البتة صحت بذلك الاخبار عنهن وكذلك نساء
(دشنة) المذكورة قبيل هذا وهذه المدينة المذكورة في الشط الشرقي
من النيل وبينها وبين قوص نحو البريد ومنها (قفط) وهي مدينة بشرقي

النيل وعلى مقدار ثلاثة أميال من شطه وهي من المدن المذكورة في الصعيد حسناً ونظافة بنيان واتقان وضع ثم كان الوصول الى (قوص) يوم الخميس الرابع والعشرين لمحرم المؤرخ وهو التاسع عشر من مايو فكان مقامنا في النيل ثمانية عشر يوماً ودخلنا قوص فى التاسع عشر وهذه المدينة حفيلة الاسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار ارض الحبشة لانها محط الجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم ومنها يفوزون بصحراء عيذاب واليها انقلابهم في صدرهم من الحج وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية وهي ربض كبير خارج المدينة على باب الفندق المذكور

شهر صفر عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الاربعاء وهو الخامس والعشرين من شهر مايو ونحن بقوص نروم السفر الى عيذاب يسر الله علينا مرامه بمنه وكرمه وفي يوم الاثنين الثالث عشر منه وهو السادس من يونيو اخرجنا جميع رحالنا من زاد وسواه الى المبرز وهو موضع بقبلى البلد وعلى مقربة منه فسيح الساحة محدق بالنخيل يجتمع فيه رحال الحجاج والتجار وتشد فيه ومنه يستقلون ويرحلون وفيه يوزن ما يحتاج الى وزنه على الجمالين فلما كان اثر صلاة العشاء الآخرة رفعنا منه الى ماء يعرف

بالحاجر فبتنا به واصبحنا يوم الثلاثاء وبعده مقيمين به بسبب تفقد
بعض الجمالين من العرب لبيوتهم وكانت على مقربة منهم وفي ليلة
الاربعاء الخامس عشر منه ونحن بالحاجر المذكور خسف القمر خسوفاً
كلياً اول الليل وتمادى الى هدء منه ثم أصبحنا يوم الاربعاء المذكور
ظاعنين وقلنا بموضع يعرف بقلاع الضياع ثم كان المبيت بموضع يعرف
بمحط القيطة كل ذلك في صحراء لاعمارة فيها ثم غدونا يوم الخميس
فنزلنا على ماء ينسب للعبدين ويذكر انهما ماتا عطشاً قبل ان يرداه
فسمي ذلك الموضع بهما وقبراهما به رحمهما الله ثم تزودنا منه الماء لثلاثة
ايام وفوزنا سحر يوم الجمعة السابع عشر منه وسرنا في الصحراء نبيت
منه حيث جن علينا الليل والقوافل العيذابية والقوصية صادرة وواردة
والمفازة معمورة آمناً فلما كان يوم الاثنين الموفي عشرين منه نزلنا على
ماء بموضع يعرف بدنقاش وهي بئر معينة يرد فيها من الانعام والانام
ما لا يحصيهم الا الله عز وجل ولا يسافر في هذه الصحراء الا على
الابل لصبرها على الظماء أحسن ما يستعين عليها ذوو الترفية الشقاديف
وهي أشباه المحامل وأحسن أنواعها اليمانية لانها كالاشاكيز السفرية مجلدة
متسعة يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة ويوضع على البعير ولها أذرع
قد حفت بأركانها يكون عليها مظلة فيكون الراكب فيها مع عديله في
كن من لفح الهاجرة ويقعد مستريحاً في وطائه ومتكأ ويتناول مع عديله
ما يحتاج اليه من زاد وسواه ويطالع متى شاء المطالعة في مصحف أو
كتاب ومن شاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج أن يلاعب عديله تفكهاً

واجماماللنفس لاعبه وبالجملة فانها مريحة من نصب السفر وأ كثر المسافرين يركبون الابل على احمالها فيكابدون من مشقة سموم الحر عنتاً ومشقة وفي هذا الماء وقعت بين بعض جمالى العرب اليمنيين أصحاب طريق عيذاب وضمانها وهم من بلي من افخاذ قضاعة وبين بعض الاغزاز بسبب التزاحم على الماء مهاوشة كادت تفضي الي الفتنة • ثم عصم الله منها والقصد الى عيذاب من قوص على طريقين احداهما تعرف بطريق العبدين وهي هذه التى سلكناها وهي أقصد مسافة والاخري طريق دون ••• وهي قرية على شاطيء النيل ومجتمع هاتين الطريقين على مقربة من ماء دنقاش المذكور ولهما مجتمع آخر على ماء يعرف بشاغب امام ماء دنقاش بيوم فلما كان عشاء يوم الاثنين المذكور تزودنا الماء ليوم وليلة ورفعنا الى ماء بموضع يعرف بشاغب فوردناه ضحوة يوم الاربعاء الثانى والعشرين لصفر المذكور وهذا الماء ثماد يحفر عليه في الارض فتسمح به قريباً غير بعيد ثم رحلنا منه سحر يوم الخميس بعده وتزودنا الماء لثلاثة أيام الي ماء بموضع يعرف بامتان وتركنا طريق الماء بموضع يعرف با •••• يسارا الا انه زعاق وليس بينه وبين شاغب غير مسافة يوم والطريق عليه وعر للابل فلما كان ضحوة يوم الاحد السادس والعشرين لصفر المذكور نزلنا بأمتان المذكور وفي هذا اليوم كان فراغنا من حفظ كتاب الله عز وجل له الحمد وله الشكر على مايسر لنا من ذلك وهذ الماء بأمتان المذكور وفي بئر معينة قد خصها الله بالبركة وهو أطيب مياه الطريق وأعذبها

فيلتقى فيها من دلاء الوارد ما لا يحصي كثرة فتروى القوافل النازل عليها على كثرتها وتروى من الابل البعيدة الا ظمأ مالو وردت نهراً من الانهار لانضبته وأنزفته ورمنا فى هذه الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة الى اليمن ثم من اليمن الى عيذاب وأكثر ماشاهدنا من ذلك احمال الفلفل فلقد خيل الينا لكثرته انه يوازى التراب قيمة ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء انك تلتقى بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وغيرها من السلع مطروحة لاحارس لها تترك بهذه السبيل اما لاعياء الابل الحاملة لها أو غير ذلك من الاعذار وتبقى بموضعها الى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس ثم كان رفعنا من أمتان المذكور ضحوة يوم الاثنين بعد الاحد المذكور ونزلنا على ماء بموضع يعرف بمجاج بمقربة من الطريق ظهر يوم الاثنين المذكور ومنه تزودنا الماء لاربعة أيام الى ماء بموضع يعرف بالعشراء على مسافة يوم من عيذاب ومن هذه الرحلة المجاجية يسلك الوضح ... متصل بساحل بحر جده يمشى فيها الى عيذاب ان شاء الله ... أفيح من الارض مد البصر يميناً وشمالاً وفي ظهر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور كان رفعنا من مجاج المذكور سالكين على الوضح

﴿شهر ربيع الاول عرفنا الله بركته﴾

استهل هلاله ليلة الجمعة الرابع والعشرين من شهر يونيه ونحن

بآخر الوضح على نحو ثلاث مراحل من عيذاب وفي وقت الغداة من يوم الجمعة المذكور كان نزولنا على الماء بموضع يعرف بالعشراء على مرحلتين من عيذاب وبهذا الموضع كثير من شجر العشر وهو شبيه شجر الاترج لكن لا شوك له وماء هذا الموضع ليس بخالص العذوبة وهو فى بئر غير مطوية وألفينا الرمل قد انهال عليها وغطى ماءها فرام الجمالون حفرها واستخراج ماءها فلم يقدروا على ذلك وبقيت القافلة لاماء عندها فأسر بنا تلك الليلة وهى ليلة السبت الثانى من الشهر المذكور فنزلنا ضحوة على ماء الخبيب وهو بموضع بمرآى العين من عيذاب يستقى منها القوافل وأهل البلد يعم الجميع وهي بئر كبيرة كأنها الجب الكبير فلما كان عشي يوم السبت دخلنا عيذاب وهي مدينة على ساحل بحر جدة غير مسورة اكثر بيوتها الاخصاص وفيها الآن بناء مستحدث بالجص وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة وهي في صحراء لانبات فيها ولا يؤكل فيها شيء الامجلوب لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير ولا سيما مع الحاج لان لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيفة المؤنة بالاضافة الى الوظائف المكوسية والتى كانت قبل اليوم التى ذكرنا رفع صلاح الدين لها ولهم أيضاً من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم وهي المراكب فيجتمع لهم في ذلك مال كثير فى حملهم الى جده وردهم وقت انفضاضهم من آداء الفريضة وما من أهلها ذوي اليسار الا من له الجلبة والجلبات فهي تعود عليهم برزق

وأسع سبحان قاسم الارزاق على اختلاف أسبابها لااله سواه وكان نزولنا
فيها بدار نسب نوح أحد قوادها الحبشيين الذين تاثلوا بها الديار والرباع
والجلاب وفي بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها
وأوان الغوص عليه فى هذا التاريخ المقيدة في هذه الاحرف وهو شهر
يونيو العجمي والشهر الذي يتلوه ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة
سنية يذهب الغائصون عليه الى تلك الجزائر في الزواريق ويقيمون فيها
الايام فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق
والمغاص منها قريب القعر ليس ببعيد ويستخرجونه في اصداف لها
أزواج كأنها نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة فاذا شقت ظهرت
الشقتان من داخلها كأنها محارتا فضة ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة
من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف فيجتمع لهم من ذلك بحسب
الحظوظ والارزاق فسبحان مقدرها لا اله سواه لكنهم ببلدة لا رطب
فيها ولا يابس قد ألفوا بها عيش البهائم فسبحان الله المحبب الاوطان
الى أهلها على انهم أقرب الى الوحش منهم الى الانسان والركوب من جدة
اليها آفة للحجاج عظيمة الا الاقل منهم من يسلم الله عز وجل وذلك
ان الريح تلقيهم على الاكثر فى مراسي بصحاري تبعد منها مما يلى
الجنوب فينزل اليهم البجاة وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال
فيكرون منهم الجمال ويسلكون بهم غير طريق الماء فربما ذهب أكثرهم
عطشاً وحصلوا على ما يخلفه من نفقة أوسواها وربما كان من الحجاج
من يتعسف تلك المجهلة على قدميه فيضل ويهلك عطشاً والذى يسلم

منهم يصل الى عيذاب كأنه ملشر من كفن شاهدنا منهم مدة مقامنا أقواما قد وصلوا على هذه الصفة فى مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة آية للمتوسمين وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى ومنهم من تساعده الريح الى أن يحط بمرسى عيذاب وهو الاقل والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعونى ملفقه الانشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة انما هى مخيطة بامراسى من القنبارى وهو قشر جوز النار جيل يدرسون الى ان يتخيط ويفتلون منه امراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها وهذا القرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الغرقى فيه ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن وكذلك القنبارى المذكور ومن أعجب أمر هذه الجلاب ان شرعها منسوجة من خوص شجر المقل فمجموعه متناسب فى اختلال البنية ووهنها فسبحان مسخرها على تلك الحالة والمسلم فيها لااله سواه ولاهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيث وذلك انهم يشحنون بهم الجلاب وهي المراكب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها اقفاص الدجاج المملوءة يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحده ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ويقولون علينا بالالواح وعلي الحجاج بالارواح

هذا مثل متعارف بينهم فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها هذه البلدة والاولى بمن يمكنه ذلك ان لا يراها وان يكون طريقه على الشام الي العراق ويصل مع أمير الحاج البغدادي وان لم يمكنه ذلك أولا فيمكنه آخرا عند انفضاض الحاج يتوجه مع أمير الحاج المذكور الي بغداد ومنها الى عكة فان شاء دخل منها الى الاسكندريه وان شاء الله الى صقلية أو سواهما ويمكن ان يجد مركبا من الروم يقع الى سبته أو سواها من بلاد المسلمين وان طال طريقه بهذا التحليق فيهون لما يلقى بعيذاب ونحوها وأهلها الساكنين بها من قبيل السودان يعرفون بالبجاة ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم فى الجبال المتصلة بها وربما وصل في بعض الاحيان واجتمع بالوالي الذي فيها من الغز اظهاراً للطاعة ومستنابه مع الوالى فى البلد والفوائد كلها له الا البعض منها وهذه الفرقة من السودان المذكورين من فرقة أضل من الانعام سبيلا وأقل عقولا لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها اظهاراً للاسلام ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم مالا يرضي ولا يحل ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة الا خرقاً يسترون بهـا عوراتهم وأكثرهم لا يسترون وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الاول المـذكور وهو الثامن عشر يوليه ركبنا الجلبة للعبور الى جدة فأقمنا يومنا ذلك بالمرسى لركود الريح ومغيب النواتية فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء أقلعنا على بركة الله عز وجل وحسن عونه المأمول فكانت مدة المقام بعيذاب حاشي يوم

الاثنين المذكور ثلاثة وعشرين يوم محتسبة عند الله عز وجل لشظف العيش وسوء الحال واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة وحسبك من بلد كل شئ فيه مجلوب حتى الماء والعطش أشهى الى النفس منه فأقمنا بين هواء يذيب الاجسام وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام فما ظلم من غنى عن هذه البلدة

يقوله ﴿وماء زعاف وجو كله لهب﴾

فالحلول بها من أعظم المكاره التى حف بها السبيل الى البيت العتيق زاده الله تشريفاً وتكريما وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدون ولاسيما في تلك البلدة الملعونة ومما لهج الناس بذكر قبائحها حتى يزعمون ان سليمان بن داود على نبينا وعليه السلام كان اتخذ سجنا للعفارتة أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة الى بيته الحرام وهي السبيل التى من مصر على عقبة أيلة الى المدينة المقدسة وهي مسافة قريبة يكون البحر منها يمينا وجبل الطور المعظم يساراً لكن للافرنج بمقربة منها حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه والله ينصر دينه ويعز كلمته بمنه وكرمه فتمادى سيرنا في البحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين لربيع الاول المذكور ويوم الاربعاء بعده بريح فاترة المهب فلما كان العشاء الآخرة من ليلة الخميس ونحن قد استبشرنا برؤية الطير المحلقة من بر الحجاز لمع برق من جهة البر المذكور وهي جهة الشرق ثم نشأ نوء أظلم له الافق الى أن كسا الآفاق كلها وهبت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقه راجعاً وراءه وتمادي عصوف

الرياح واشتدت حلكة الظلمة وعمت الآفاق فلم ندري الجهة المقصودة منها الى أن ظهر بعض النجوم فاستدل بها بعض الاستدلال وحط القلع الى أسفل الدقل ودو الصارى وأقنا ليلتنا تلك في هول يؤذن باليأس وأرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة الى أن أتى الله بالفرج مقترنا مع الصباح ... فسكن الريح وأقشع الغيم وأضحت السماء ولاح لنا بر الحجاز على بعد لانبصر منه الا بعض جباله وهى شرقا من جدة زعم ربان المركب وهو الرايس ان بين تلك الجبال التى لاحت لنا وبر جدة يومين والله يسهل لنا كل صعب وييسر لنا كل عسير لعزته وكرمه فجريت يومنا ذلك وهو يوم الخميس المذكور بريح رخاء طيبة ثم ارسينا عشية فى جزيرة صغيرة في البحر على مقربة من البر المذكور بعد ان لقينا شعاباً كثيرة يكثر فيها الماء ويضحضح علينا فتخللنا أثناءها على حذر وتحفظ وكان الربان بصيرا بصنعته حاذقا فيها فخلصنا الله منها حتى أرسينا بالجزيرة المذكورة ونزلنا اليها وبتنا بها ليلة الجمعة التاسع والعشرين لربيع الاول المذكور وصبح الهواء راكداً والريح غير متنفسة الا من الجهة التى لا توافقنا فأقمنا بها يوم الجمعة المذكورة فلما كان يوم السبت الموفي ثلاثين تنفست الريح بعض تنفس فأقلعنا بذلك النفس نسير سيراً رويداً وسكن البحر حتي خيل لناظره انه صحن زجاج أزرق فأقمنا على تلك الحال نرجو لطيف صنع الله عز وجل وهذه الجزيرة تعرف بجزيرة عائقة السفن فعصمنا الله عزوجل من فأل اسمها المذموم ولله الحمد والشكر على ذلك

﴿شهر ربيع الآخر عرفنا الله بركته﴾

استهل هلاله ليلة السبت بالجزيرة المذكورة ولم يظهر تلك الليلة للابصار بسبب النوء لكن ظهر في الليله الثانية كبيراً مرتفعاً فتحققنا اهلال ليلة السبت المذكور وهو الثالث والعشرين من شهر يوليه وفى عشي يوم الاحد ثانيه أرسينا بمرسي يعرف بأبحُرْ وهو على بعد يوم من جدة وهو من أعجب المراسي وضعاً وذلك أن خليجاً الى البحر يدخل الى البر والبر مطيف به من كلتا حافتيه فترسى الجبال منه في قرارة مكنة هادية فلما كان سحر يوم الاثنين بعده أقلعنا منه على بركة الله تعالى بريح فاتره والله الميسر لارب سواه فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جدة وهي بمرآى العين منا وحالت الريح صبيحة يوم الثلاثاء بعده بيلنا وبين دخول مرساها ودخول هذه المرسى صعب المرام بسبب كثرة الشعاب والتفافها وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية فى التصرف بالجلبة أثناءها أمراً ضخماً يدخلونها على مضائق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القياد ويأتون فى ذلك بعجب يضيق الوصف عنه وفي ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور وهو السادس والعشرين من شهر يوليه كان نزولنا بجدة حامدين الله عز وجل وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ماعايناه فى تلك الثمانية ايام طول مقامنا على البحر وكانت أهوال شتي عصمنا الله منها بفضله وكرمه فمنها ماكان يطرأ من البحر واختلاف رياحه وكثرة شعابه

المعترضة فيه ومنها ما كان يطرأ من ضعف عـدة المركب واختلالهـا
واقتصامها المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه او جذب مرسى
من مراسيه وربما سنحت الجلبة باسفلها على شعب من تلك الشعاب
أثناء تخللها فنسمع لهـا هداً يؤذن باليأس فكنا فيها نموت مراراً ونحيي
مراراً والحمد لله على ما من به من العصمة وتكفل به من الوقاية والكفاية
حمداً يبلغ رضاه ويستهدى المزيد من نعماه بعزته وقدرته لا اله سواه
وكان نزولنا فيها بدار القائد علي وهو صاحب جدة من قبل امير مكة
المذكور في صرح من تلك الصروح الخصوصية التى يبنونها في أعالى
ديارهم ويخرجون منها الى سطوح يبيتون فيها وعند احتلالنا جـدة
المذكورة عاهدنا الله عز وجل سروراً بما أنعم الله به من السلامة الا
يكون انصرافنا على هذا البحر الملعون الا ان طرأت ضرورة تحول
بيننا وبين سواه من الطرق والله ولى الخيرة في جميع مايقضيه ويسنيه
بعزته (وجدة) هـذه قرية على ساحل البحر المذكور أ كثر بيوتها
اخصاص وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وفي أعلاها بيوت من
الاخصاص كالغرف ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر وبهذه
القرية آثار قديمة تدل على انها كانت مدينة قديمة وأثر سورها المحدق
بها باق الي اليوم وبها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر ان كان منزل
حواء أم البشر صلى الله عليها وسلم عند توجهها الى مكة فبنى ذلك المبنى
عليه تشهيراً لبركته وفضله والله أعلم بذلك وفيها مسجد مبارك منسوب
الى عمر ابن الخطاب رضي الله عنـه ومسـجد آخر له ساريتان من

خشب الابنوس ينسب أيضاً اليــه رضى الله عنه ومنهم من ينسبه الي
هارون الرشيد رضى الله عنه وأكثر سكان هــذه البلدة مع ما فيها من
الصحراء والجبال اشراف وعلويون وحسنيون وحسينيون وجعفريون
رضى الله عن سلفهم الكريم وهم من شظف العيش بحال يتصدع له
الجماد اشفاقاً ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن من اكراء
جمــال ان كان له أو مبيع لبن أوماء الى غير ذلك من ثمر يلتقطونه أو
حطب يحتطبونه وربما تناولوا ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن فسبحانه
المقدر لما يشاء ولا شــك انهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ولم
يرتضى لهم الدنيا جعلنا الله ممــا يدين بحب أهل البيت الذين أذهب
عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وبخارج هذه البلدة مصانع قديمــة تدل
على قــدم اختطاطها ويذكر انها كانت من مدن الفرس وبها جباب
منقورة في الحجر الصلد تتصل بعضها ببعض تفوت الاحصاء كثرة هي داخل
البلد وخارجه حتى أنهم يزعمون ان التى خارج البلد ثلثمائة وستون جباً
ومثل ذلك داخل البلد وعاينا نحن جملة كثيرة لا يأخذها الاحصاء
وعجائب الموضوعات كثيرة فسبحان المحيط علماً بها وأكثر هذه
الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب
شتي وهم يعتقدون في الحاج مالا يعتقد في أهل الذمة قد صيروهم من
أعظم غلاتهم التي يستغلونها ينتهبونهم انتهاباً ويسببون لاستجلاب ما
بأيديهم استجلاباً فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤنة الى ان ييسر
الله رجوعه الى وطنه ولولا ما تلافى الله به المسلمين فى هذه الجهات

بصلاح الدين لكانوا من الظلم فى أمر لا ينادى وليدهم ولا يلين شديدهم فانه رفع ضرائب المكوس عن الحاج وجعل عوض ذلك مالا وطعاماً يأمر بتوصيلها الى مكثر أمير مكة فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم عاد هذا الامير الى ترويع الحاج واظهار تثقيفهم بسبب المكوس واتفق لنا من ذلك ان وصلنا جدة فأمسكنا بها خلال ما خوطب مكثر الامير المذكور فورد امره بأن يضمن الحاج بعضهم بعضا ويدخلوا الى حرم الله فان ورد المال والطعام اللذان برسمه من قبل صلاح الدين والا فهو لا يترك ماله قبل الحاج هذا لفظه كأن حرم الله ميراث بيده محللا له اكتراؤه من الحاج فسبحان مغير السنن ومبدلها والذى جعل له صلاح الدين بدلا الامن مكس الحاج الفا دينار اثنان والفا اردب من القمح وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الاشبيلى عندنا حاشي اقطاعات اقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن بهذا الرسم المذكور ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين بجهة الشام في حروب له هناك مع الافرنج لما صدر عن هذا الامير المذكور ماصدر فى جهة الحاج فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة فى سبيل الله هذه البلاد الحجازية لما هم عليه من فك عرية الاسلام واستحلال أموال الحاج ودمائهم فمن يعتقد من فقهاء اهل الاندلس اسقاط هذه الفريضة عنهم فاعتقاده صحيح لهذا السبب وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل فراكب هذا السبيل راكب خطر ومعتسف وعرر والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هـذه الحال فكيف وبين الله الآن

بأيدى أقوام اتخذوه معيشة حرام وجعلوه سبباً الى استلاب الاموال واستحقاقها من غير حل ومصادرة الحجاج عليها ودرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين أنصار الدين وحزب الله اولي الحق والصدق والذابّين عن حرم الله عز وجل والغائرين على محارمه والجادين في اعلاء كلمته واظهار دعوته ونصر ملته انه على مايشاء قدير وهو نعم المولى ونعم النصير وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد انه لا اسلام الا ببلاد المغرب لانهم على جادة واضحة لا عنيان لها وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة وشيع الا من عصم الله عز وجل من اهلها كما انه لاعدل ولاحق ولا دين على وجهه الا عند الموحدين أعزهم الله فهم آخر أئمة العدل في الزمان وكل من سواهم من الملوك في هذا الاوان فعلى غير الطريقة يعشرون تجار المسلمين كانهم أهل ذمة لديهم ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها اللهم الا هذا السلطان العادل صلاح الدين الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه لو كان له اعوان على الحق مما أريد الله عز وجل يتلافا المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه ومن عجيب ما شاهدناه فى أمر الدعوة المؤمنية الموحدية وانتشار كلمتها بهذه البلاد واستشعار اهلها لملكها ان أكثر أهلها بل الكل يرمزون بذلك رمزاً خفياً حتي يؤدي ذلك بهم الى التصريح وينسبون ذلك لآثار حدثانية وقعت بأيدي بعضهم أنذرت بأشياء من الكوائن

فعاينوها صحيحة فمن بعض الآثار المؤذنة بذلك عندهم ان بين جامع
ابن طولون والقاهرة برجين متقاربين عتيقي البناء على أحدهما تمثال ناظر
الى جهة المغرب وكان على الآخر تمثال ناظر الى المشرق فكانوا يرون ان
أحدهما اذا سقط أنذر بغلبة أهل الجهة التي كان ناظراً اليها على ديار مصر
وسواها وكان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر الى المشرق فتلاه
وقوعه استيلاء الغز على الدولة العبيدية وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد وهم
الآن متوقعون سقوط التمثال الغربي وحدثان ما يؤملون من ملكة أهله
لهم ان شاء الله ولم يبق الا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد
فهم يستطلعون بها سبحاً جلياً ويقطعون بصحتها ويترقبونها ارتقاب الساعة
التي لا يمترون في انجاز وعدها شاهدنا من ذلك بالاسكندرية ومصر
وسواها مشافهة وسماعاً أمراً غريباً يدل على ان ذلك الامر العزيز أمر
الله الحق ودعوته الصدق ونمى الينا ان بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة
وزعمائها قد حبر خطباً أعدها للقيام بها بين يدي سيدنا أمير المؤمنين
أعلى الله أمره وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة وينتظره انتظار
الفرج بالصبر الذي هو عبادة والله عز وجل يسعدها من كلمة ويعليها من
دعوة انه على ما يشاء قدير وفي عشي يوم الثلاثاء الحادي عشر من الشهر
المذكور وهو الثاني من شهر اغسطس كان انفصالنا من جدة
بعد ان ضمن الحجاج بعضهم بعضاً وأثبتت اسماؤهم في زمام عند قائد
جدة علي بن موفق حسبما نفذ اليه ذلك من سلطانه صاحب مكة مكثر
ابن عيسى المذكور وهذا الرجل مكثر من ذرية الحسن بن علي رضوان

الله عليهما لاكنه مما يعمل غير صالح فليس من أهل سلفه الكريم رضاهم واسرينا تلك الليلة الى ان وصلنا القرين مع طلوع الشمس وهذا الموضع هو منزل الحاج ومحط رحالهم ومنه يحرمون وبه يريحون اليوم الذى يصبحونه فاذا كان في عشيه رفعوا واسروا ليلتهم وصبّحوا الحرم الشريف زاده الله تشريفاً وتعظيما والصادرون من الحج ينزلون به أيضاً ويسرون منه الى جدة وبهذا الموضع المذكور بئر معينة عذبة والحاج بسببها لا يحتاجون الى تزود الماء غير ليلة اسرائهم اليه فاقمنا بياض يوم الاربعاء المذكور مريحين بالقرين فلما حن العشى رحنا منه محرمين بعمرة فاسرينا ليلتنا تلك فكان وصولنا مع الفجر الى قريب الحرم فنزلنا مرتقبين لانتشار الضوء ودخلنا مكه حرسها الله في الساعة الاولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور وهو الرابع من شهر اغشت على باب العمرة وكان اسراؤنا تلك الليلة المذكورة والبدر قد القى على البسيطة شعاعه والليل قد كشف عنا قناعه والاصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان والالسنة تضج بالدعاء وتبتهل الى الله بالرغباء فتارة تشتد التلبية وآونة تتضرع بالادعية فيالها ليلة كانت في الحسن بيضة العقد فهي عروس ليالي العمر وبكر بنيات الدهر الي ان وصلنا في الساعة المذكورة من اليوم المذكور حرم الله العظيم ومبوأ الخليل ابراهيم فالفينا الكعبة البيت الحرام عروساً مجلوة مزفوفة الى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمان فطفنا طواف القدوم ثم صلينا بالمقام الكريم وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم وهو

بين الحجر الاسود والباب وهو موضع استجابة الدعوة ودخلنا قبة زمزم وشربنا من مائها وهو لما شرب له كما قال صلى الله عليه وسلم ثم سعينا بين الصفا والمروة ثم حلقنا واحللنا فالحمد لله الذي كرمنا بالوفادة عليه وجعلنا ممن انتهت الدعوة الابراهيمية اليه وهو حسبنا ونعم الوكيل وكان نزولنا فيها بدار تعرف بالنسبة الى الحلال قريباً من الحرم ومن باب السدة أحد ابوابه في حجرة كثيرة المرافق المسكنية مشرفة على الحرم وعلى الكعبة المقدسة

﴿شهر جمادى الاولى عرفنا الله بركته﴾

استهل هلاله ليلة الاثنين الثاني والعشرين لاغشت وقد كمل لنا بمكة شرفها الله تعالى ثمانية عشر يوما فهلال هذا الشهر اسعد هلال اجتلته ابصارنا فيما سلف من اعمارنا طلع علينا وقد تبوأنا مقعد الجدار الكريم وحرم الله العظيم والقبة التى فيها مقام ابراهيم مبعث الرسول ومهبط الروح الامين جبريل بالوحي والتنزيل فاوزعنا الله شكر هذه المنة وعرفنا قدر ماخصنا به من نعمته وختم لنا بالقبول واجرانا على كريم عوائده من الصنع الجميل ولطيف التيسير والتسهيل بعزته وقدرته لا اله سواه

﴿ذكر المسجد الحرام والبيت العتيق كرمه الله وشرفه﴾

البيت المكرم له أربعة اركان وهو قريب من التربيع واخبرني زعيم الشيبيين الذين اليهم سدانة البيت وهو محمد بن اسماعيل بن عبدالرحمن

ابن ٠٠٠٠ من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة بن طلحة بن عبد الدار صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب حجابة البيت ان ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا وهو من الحجر الاسود الى (الركن) اليماني تسع وعشرون ذراعا وسائر الجوانب ثمان وعشرون بسبب انصباب الصطح الى الميزاب واول اركانه الركن الذى فيه الحجر الاسود ومنه ابتداء الطواف ويتقهقر الطائف عنه ليمر جميع بدنه به والبيت المكرم عن يساره واول ما يلقى بعده الركن العراقى وهو ناظر الى جهة الشمال ثم الركن الشامى وهو ناظر الى جهة الغرب ثم الركن اليماني وهو ناظر الى جهة الجنوب ثم يعود الى الركن الاسود وهو ناظر الي جهة الشرق وعند ذلك يتم شوطاً واحداً وباب البيت الكريم فى الصفح الذى بين الركن العراقى وركن الحجر الاسود وهو قريب من الحجر بعشرة اشبار محققة وذلك الموضع الذى بينهما من صفح البيت يسمي الملتزم وهو موضع استجابة الدعاء والباب الكريم مرتفع عن الارض باحد عشر شبراً ونصف وهو من فضة مذهبة بديع الصنعة رائق الصفة يستوقف الابصار حسناً وخشوعا للمهابة التى كساها الله بيته وعضادتاه كذلك والعتبة العليا كذلك ايضاً وعلى رأسها لوح ذهب خالص ابريز في سعته مقدار شبرين وللباب مقازنا فضة كبيرتان يتعلق عليهما قفل الباب وهو ناظر للشرق وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبراً وغلظ الحائط الذى ينطوي عليه الباب خمسة أشبار وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع

وحيطانه كلها رخام مجزع قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج معترضة الطول وبين كل عمود وعمود أربع خطا وهي على طول البيت متوسطة فيه فأحد الاعمدة وهو أولها يقابل نصف الصفح الذي يحف به الركنان اليمانيان وبينه وبين الصفح مقدار ثلاث خطا والعمود الثالث وهو آخرها يقابل الصفح الذي يقابله الركنان العراقي والشامي ودائر البيت كله من نصفه الاعلى مطلي بالفضة المذهبة الثخينة يخيل للناظر اليها انها صفيحة ذهب لغلظها وهي تحف بالجوانب الاربعة وتمسك مقدار نصف الجدار الاعلى وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون وظاهر الكعبة كلها من الاربعة جوانب مكسو بستور من الحرير الاخضر وسداها قطن وفي أعلاها رسم بالحرير الاخضر فيها مكتوب ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة الآية واسم الامام الناصر لدين الله في سعته قدر ثلاثة أذرع يطيف بها كلها قد شكل في هذه الستور من الصنعة الغريبة التي يبصرها أشكال محاريب رائقة ورسوم مسرودة مرسومة بذكر الله تعالى وبالدعاء للناصر العباسي المذكور ... مقدمتها وكل ذلك لا يخالف لونها وعدد السطور من الجوانب الاربعة اربعة وثلاثون سطرا وفي الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر وفي الصفحين الصغيرين ستة عشر وله خمسة مضاو وعليها زجاج عراقي بديع النقش أحدها في وسط السقف ومع كل ركن مضوي والواحد منها لا يظهر لانه تحت القبو المذكور بعد وبين الاعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاثة عشر واحدها من ذهب واول ما يلقى الداخل

على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الاسود وفيه صندوقان فيهما مصاحف وقد علاهما في الركن بويبان من فضة كأنهما طاقان ملصقان بزاوية الركن وبينهما وبين الارض أزيد من قامة وفي الركن الذي يليه وهو اليماني كذلك لكنهما اقتلعا وبقي العود الذى كانا ملصقين عليه وفي الركن الشامي كذلك وهما باقيان وفي جهة الركن العراقى كذلك وعن يمينه الركن العراقي وفيه باب يسمي بباب الرحمة يصعد منه الى سطح البيت المكرم وقد قام له قبو فهو متصل باعلى سطح البيت داخله الادراج وفى اوله البيت المحتوي على المقام الكريم فتجد للبيت العتيق بسبب هذا القبو خمسة أركان وفى سعه صفحيه قامتان وهو محتو على الركن العراقى بنصفين من كل سطح وثلثا قماة هذا القبو مكسوان بسرق الحرير الملون كأنه قد لف فيه ثم وضع وهذا المقام الكريم الذى داخل هذا القبو هو مقام ابراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم وهو حجر مغشى بالفضة وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار وسعته مقدار شبرين وأعلاه أوسع من أسفله فكأنه ولله التنزيه والمثل الاعلى كانون فخار كبير أوسطه يضيق عن أسفله وعن أعلاه عايناه وتبركنا بلمسه وتقبيله وصب لنا في أثر القدمين المباركتين ماء زمزم فشربناه نفعنا الله به وأثرهما بين وأثر الاصابع المكرمة المباركة فسبحان من ألان لواطئه حتى تأثر فيه ولا تأثير القدم في الرمل الوثير سبحان جاعله من الآيات البينات ولمعاينته ومعاينة البيت الكريم هول يشعر النفوس من الذهول ويطيش الافئدة والعقول فلا تبصر الا لحظات خاشعة وعبرات

هامعة ومدامع باكية وألسنة الى الله عز وجل ضارعة داعية وبين الباب الكريم والركن العراقي حوض طوله اثناعشر شبراً وعرضه خمسة أشبار ونصف وارتفاعه نحو شبر متصل من قبالة عضادة الباب التي تلي الركن المذكور آخذاً الى جهته وهو علامة موضع المقام مدة ابراهيم عليه السلام الى أن صرفه النبي صلى الله عليه وسلم الى الموضع الذى هو الآن مصلى وبقى الحوض المذكور مصباً لماء البيت اذا غسل وهو موضع مبارك يقال انه روضة من رياض الجنة والناس يزدحمون للصلاة فيه وأسفله مفروش برملة بيضاء وثيرة وموضع المقام الكريم هو الذى يصلى خلفه يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقي وهو الى الباب أميل بكثير وعليه قبة خشب في مقدار القامة أو أزيد مركبة محددة بديعة النقش سعتها من ركنها الواحد الى الثانى أربعة أشبار وقد نصبت على الموضع الذى كان فيه المقام وحوله تكنيف من حجارة نصبت على حرف كالحوض المستطيل في ارتفاعه نحو شبر وطوله خمس خطا وعرضه ثلاث خطا وأُدخل المقام الى الموضع الذى وصفناه في البيت الكريم احتياطاً عليه بينه وبين صفح البيت الذى يقابله سبع عشر خطوة والخطوة كلها ثلاثة أشبار ولموضع المقام أيضاً قبة مصنوعة من حديد موضوعة الى جانب قبة زمزم فاذا كان في أشهر الحج وكثر الناس ووصل العراقيون والخراسانيون رفعت قبة الخشب ووضعت قبة الحديد لتكون أحمل للازدحام ومن الركن الذى فيه الحجر الاسود الى الركن العراقي أربعة وخمسون شبراً مخففة ومن الحجر الاسود

الى الارض ستة أشبار فالطويل يتطاطى اليه والقصير يتطاول اليه ومن الركن العراقى الي الركن الشامي ثمانية واربعون شبراً محففة وذلك داخل الحجر وأما من خارج فنه اليه أربعون خطوة وهو مائه وعشرون شبراً محققة ومن خارجه يكون الطواف ومن الركن الشامي الى الركن اليماني ما من الركن الاسود الى العراقى لانه الصفح الذي يقابله ومن ليماني الى الاسود مامن العراقى الى الشامي داخل الحجر لان الصفح الذى يقابله وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كانها الرخام حسناً منها سود وسمر وبيض قد الصق بعضها الى بعض واتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا الا في الجهة التى تقابل المقام فانها امتدت اليها حتى أحاطت به وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة وبين الركن العراقى وبين أول جدار الحجر مدخل الى الحجر سعته أربع خطا وهي ست أذرع محققة كلناها باليد وهذا الموضع الذى لم يحجر عليه هو الذى تركت قريش من البيت وهو ست أذرع حسبما وردت به الآثار الصحاح ويقابلها عند الركن الشامى مدخل آخر على مثال تلك السعة وبين جدار البيت الذي تحت الميزاب والذي يقابله من جدار الحجر على خط استواء يشق وسط الصحن المذكور أربعون شبراً وسعته من المدخل الى المدخل ست عشرة خطوة وهي ثمانية وأربعون شبراً وهو يعني دور الجدار رخام كله مجزع بديع الالصاق ••• قضبان صفر مذهبة وضع منها في صفحه أشكال شطرنجية متداخلة بعضها على بعض

وصفات محاريب فاذا ضربت الشمس فيها لاح لها بصيص ولألاء يخيل للناظر اليها انها ذهب يرتمي بالابصار شعاعه وفي ارتفاع جدار هذا الحجر الرخام خمسة أشبار ونصف وسعته أربعة أشبار ونصف وداخل الحجر بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة وهو مفروش بالرخام المجزع المقطع في دور الكف الى دور الدينار الى ما فوق ذلك ثم الصق بانتظام بديع وتأليف معجز الصنعة غريب الاتقان رائق الترصيع والتجزيع رائع التركيب والرصف يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والاشكال الشطرنجية وسواها على اختلاف انواعها وصفاتها مايقيد بصره حسناً فكأنه تجلية في ازهار مفروشة مختلفات الالوان الى محاريب قد انعطفت عليها الرخام انعطاف القسي وداخلها هذه الاشكال الموصوفة والصنائع المذكورة وبازائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب أحدث الصانع فيهما من التوريق الرقيق والتشجير والتقضيب مالا يحدثه الصنع باليدين في الكاغد قطعاً بالجلمين فمرآهما عجيب أمر بصنعته على هذه الصفة امام المشرق ابو العباس احمد الناصر بن المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف العباسي رضي الله عنه ويقابل الميزاب في وسط الحجر وفي نصف جداره الرخامي رخامة قد نقشت أبدع نقش وحفت بها طرة منقوشة نقشاً مشجراً عجيباً فيه مكتوب مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة والميزاب في أعلا الصفح الذي على

الحجر المذكور وهو من صفر مذهب قد خرج الى الحجر بمقدار أربعة اذرع وسعته مقدار شبر وهذا الموضع تحت ميزاب هو أيضاً مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى وكذلك الركن اليماني ويسمى المستجار مايليه وهذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامي وتحت الميزاب في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم قبر اسمعيل صلى الله عليه وسلم وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب تتصل بها رخامة خضراء مستديرة وكلتاهما غريبة المنظر فيهما نكت تنفتح عن لونها الى الصفرة قليلا كأنها تجزيع وهي أشبه الاشياء بالنكت التى تبقى في البيدق من حل الذهب فيه والى جانبه مما يلي الركن العراقى قبر أمه هاجر رضي الله عنهما وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف يتبرك الناس بالصلاة في هذين الموضعين من الحجر وحق لهم ذلك لانهما من البيت العتيق وقد انطبقا على جسدين مقدسين مكرمين نورهما الله ونفع ببركتهما كل من صلى عليهما وبين القبرين المقدسين سبعة أشبار وقبة بير زمزم تقابل الركن الاسود ومنها اليه أربع وعشرون خطوة والمقام المذكور الذى يصلى خلفه عن يمين القبة ومن ركنها اليه عشر خطوات وداخلها مفروش بالرخام الابيض الناصع البيض وتنور البئر المباركة في وسطها مائل عن الوسط الى جهة الجدار الذي يقابل البيت المكرم وعمقها احد عشر قامة حسبما ذرعناه وعمق الماء سبع قامات على مايذكر وباب القبة ناظر الى الشرق وباب قبة العباس وقبة اليهودية ناظران الى الشمال والركن من الصفح

الناظر الى البيت العتيق من القبة المنسوبة الى اليهودية يتصل بالركن
الايسر من الصفح الاخير الناظر الى الشرق من القبة العباسيه فبينهما
هذا القدر من الانحراف وتلى قبة بئر زمزم من ورائها قبة الشراب
وهي المنسوبة للعباس رضي الله عنه وتلى هذه القبة العباسية على انحراف
عنها قبة تنسب لليهودية وهاتان القبتان مخزنان لاوقاف البيت الكريم
من مصاحف وكتب وأنوار شمع وغير ذلك والقبة العباسية لم تخل
من نسبتها الشرابية لانها كانت سقاية الحاج وهي حتى الآن يبرد فيها
ماء زمزم ويخرج مع الليل ليسقى الحاج في قلال يسمونها الدوارق كل
دورق منها ذو مقبض واحد وتنور بئر زمزم من رخام قد الصق
بعضه ببعض الصاقا لا تحيله الايام وأفرغ في أثنائه الرصاص وكذلك
داخل التنور وحفت به من أعمدة الرصاص الملصقة اليه ابلاغا في
قوة لزه ورصه اثنان وثلاثون عموداً قد خرجت لها رؤوس
قابضة على حافة البئر دائرة بالتنور كله ودوره أربعون شبراً وارتفاعه
أربعة أشبار ونصف وغلظه شبر ونصف وقد استدارت بداخل القبة
سقاية سعتها شبر وعمقها نحو شبرين وارتفاعها عن الارض خمسة أشبار
تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة دائرة يرتفع الناس اليها ويتوضؤن
عليها والحجر الاسود المبارك ملصق فى الركن الناظر الى جهة المشرق
ولا يدرى قدر ما دخل فى الركن وقيل انه داخل في الجدار بمقدار
ذراعين وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد وفيه أربع قطع ملصقة
ويقال ان القرمطى لعنه الله كان الذى كسره وقد شدت جوانبه

بصفيحة فضة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر ورونقه الصقيل فيبصر الرائي من ذلك منظر عجيباً هو قيد الابصار للحجر عند تقبيله لدونة وطوبة يتنعم بها الفم حتى يود اللاثم ان لا يقلع فمه عنه وذلك خاصة من خواص العناية الآلهية وكفى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انه يمين الله في أرضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته واوفد عليه كل شيّق اليه بمنه وفي القطعة الصحيحة من الحجر مما يلى جانبه الذي يلي يمين المستلم له اذا وقف مستقبله نقطة بيضاء صغيرة مشرقة تلوح كأنها خال فى تلك الصفحة المباركة وفى هذه الشامة البيضاء أثر ان النظر اليها يجلو البصر فيجب على المقبل ان يقصد لتقبيله موضع الشامة المذكورة ما استطاع والمسجد الحرام يطيف به ثلاثة بلاطات على ثلاث سوار من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد ذرعها في الطول اربعمائة ذراع وفى العرض ثلثمائة ذراع فيكون تكسيره مخففاً ثمانية واربعين مرجعاً وما بين البلاطات فضاء كبير وكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صغيراً وقبة زمزم خارجة عنه وفي مقابلة الركن الشامى رأس سارية ثابتة في الارض منها كان حد الحرم أولا وبين رأس السارية وبين الركن الشامى المذكور اثنتان وعشرون خطوة والكعبة فى وسطه على استواء من الجوانب الاربعة ما بين الشرق والجنوب والشمال والغرب وعدد سواريه الرخامية التى عددتها بنفسي اربعمائة سارية واحدى وسبعون سارية حاشى الجصية التي منها فى دار الندوة وهي التي زيدت في الحرم وهي داخلة في البلاط الآخذ

من الغرب الى الشمال ويقابلها للمقام مع الركن العراقى وفضاؤها متسع يدخل من البلاط اليه ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب تحت قسي حنايا يجلس فيها النساخون والمقرؤن وبعض أهل صنعة الخياطة والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم وفي جدار البلاط الذى يقابله أيضاً تحت حنايا على تلك الصفة وهو البلاط الآخذ من الجنوب الى الشرق وسائر البلاطات تحت جداراتها مصاطب دون حنايا عليها والبنيان فيها الآن على اكمل مايكون وعند باب ابراهيم مدخل آخر من البلاط الآخذ من الغرب الى الجنوب فيه أيضاً أسوار حصية ووجدت بخط أبي جعفر بن على الفنكى القرطبي الفقيه المحدث ان عدد سواريه اربعمائة وثمانون لاني لم أحسب التي خارج باب الصفا وللمهدى محمد بن أبي جعفر المنصور العباسى في توسعة المسجد الحرام والتأنق فى شأنه آثار كريمة ووجدت في الجهة التى من الغرب الى الشمال مكتوباً في اعلا جدار البلاط أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره في سنة سبع وستين ومائة وللحرم سبع صوامع أربع فى الاربعة جوانب وواحدة في دار الندوة وأخرى على باب الصفا وهي أصغرها وهي علم لباب الصفا وليس يصعد اليها لضيقها وعلى باب ابراهيم صومعة قد ذكرت عند باب ابراهيم في مابعد وباب الصفا يقابل الركن الاسود بالبلاط الذى من الجنوب الى الشرق وفى وسط البلاط المقابل للباب ساريتان مقابلتان الركن المذكور فيها منقوش أمر عبد الله محمد

المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله باقامة هاتين الاسطوانتين علما لطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصفا ليتأسى به حاج بيت الله وعماره على يد ابن يقطين بن موسى وابراهيم بن صالح في سنة سبع وستين ومائة وفى باب الكعبة المقدسة نقش بالذهب رائق الخط طويل الحروف غليظها يرتمي الابصار برونقه وحسنه مكتوب فيه مما أمر بعمله عبد الله وخليفته الامام أبو عبد الله محمد المقتفي بامر الله أمير المؤمنين رضي الله عنه وعن آبائه الائمة الطاهر وخلد ميراث النبوة لديه وجعلها كلمة باقية في عقبه الى يوم الدين فى سنة خمسين وخمسمائة فى صحنى البابين على هذا النص المذكور ويكتنف البابين الكريمين عضادة غليظة من الفضة المذهبة البديعة النقش تصعد الى العتبة المباركة وتشو عليها وتستدير بجانبي البابين ويعترض أيضاً بين البابين عند اغلاقهما شبه العضادة الكبيرة من الفضة المذهبة هي بطول البابين متصلة بالواحد منهما الذى عن يسار الداخل الى البيت وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الاخضر حسبما ذكرناه وهي أربع وثلاثون شقة في الصفح الذي بين الركن اليماني والشامى منها تسع وفي الصفح الذي يقابله بين الركن الاسود والعراقى تسع أيضاً وفي الصفح بين العراقى والشامى ثمان وفي الصفح بين اليماني والاسود ثمان أيضاً قد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الاربعة جوانب وقد أحاط بها من أسفلها تكفيف مبنى بالجص فى ارتفاعه أزيد من شبر وفي سعته شبران أو أزيد قليلا فى داخله خشب غير ظاهر وقد سمرت فيه

أوتاد حديد في رؤسها حلقات حديد ظاهرة قد ادخل فيها مرس من القنب غليظ مفتول واستدار بالجوانب الاربعة بعد ان وضع في ازيل مسطور حجر السراويلات وأدخل فيها ذلك المرس وخيط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقة ومجتمع السطور فى الاركان لاربعة مخيط لى أزيد من قامة ثم منها الى أعلاها تتصل بعرى من حديد تدخل بعضها في بعض واستدار أيضاً بأعلاها على جوانب السطح تكفيف ثان وقعت فيه أعالي الستور في حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة فجاءت الكسوة المباركة مخيطة الاعلى والاسفل وثيقة لازرار لا تخلع الا من عام الى عام عند تجديدها فسبحان من خلد لها الشرف الى يوم القيامة لا اله سواه وباب الكعبة الكريم يفتح كل يوم اثنين ويوم جمعة الا في رجب فانه يفتح فى كل يوم وفتحه أول بزوغ الشمس يقبل سدنة البيت الشيبيون فيبادر منهم من ينقل كرسياً كبيراً شبه المنبر الواسع له تسعة أدراج مستطيلة قد وضعت له قوائم من الخشب متصأسنة مع الارض له اربع بكرات كبار مصفحة بالحديد لمباشرتها الارض يجرى الكرسى عليها حتى يصل الى البيت الكريم فيقع الاعلى متصلا بالعتبة المباركة من الباب فيصعد زعيم الشيبيين اليه وهو كهل جميل الهيئة والشارة وبيده مفتاح القفل المبارك ومعه من السدنة من يمسك في يده ستر اسود تفتح يديه به امام الباب خلال مايفتحه الزعيم الشيبي المذكور فاذا فتح القفل قبل العتبة ثم دخل البيت وحده وسد الباب خلفه وأقام قدر ما يركع ركعتين ثم

يدخل الشيبيون ويسدون الباب أيضاً ويركمون ثم يفتح الباب
ويبادر الناس بالدخول وفي أثناء محاولة فتح الباب الكريم يقف الناس
مستقبلين اياه بأبصار خاشعة • وأيد مبسوطة الى الله ضارعة • واذا انفتح
الباب كبر الناس وعلا ضجيجهم ونادوا بألسنة مستهلة اللهم افتح لنا
بواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين ثم يدخلوا بسلام آمنين وفي
الصفح المقابل للداخل فيه الذى هو من الركن اليمانى الى الركن الشامى
خمس رخامات منتصبات طولا كانها أبواب تنتهي الى مقدار خمسة أشبار
من الارض وكل واحدة منها نحو القامة الثلاث منها حمر والاثنتان
خضروان فى كل واحدة منها تجزيع بياض لم ير أحسن منظراً منه
كأن فيها تنقيط فتتصل بالركن اليمانى منها الحمراء ثم تليها بخمسة أشبار
الخضراء والموضع الذى يقابلها متقهقراً عنها بثلاثة أذرع هو مصلى
النبي صلى الله عليه وسلم فيزدحم الناس على الصلاة فيه تبركا به ووضعهن
على هذا الترتيب وبين كل واحدة وأخرى القدر المذكور ويتصل
بينهما رخام أبيض صافي اللون ناصع البياض قد أحدث الله عز وجل
في أصل خلقته أشكالا غريبة مائلة الى الزرقة مشجرة مغصنة • في التي
تليها مثل ذلك بعينه من الاشكال كانها مقسومة فلو أطبقتا لعاد كل شكل
يصافح شكله فكل واحدة شقة الاخرى لا محالة عند مانشرت انشقت
على تلك الاشكال فوضعت كل واحدة بأزاء أختها والفاصل منها بين
كل خضراء وحمراء رخامتان سعتهما خمسة أشبار لا الاشبار المذكورة
أو الاشكال فيها تختلف هيآتها وكل أخت منها بأزاء أختها وقد شدت

جوانب هذه الرخامات تكافيف غلظها قدر أصبعين من الرخام المجزع من الاخضر والاحمر المنقطين والابيض ذى المحيلان كانها أنابيب مخروطة يحار الوهم فيها فاعترضت في هذا الصفح المذكور من فرج الرخام الابيض ست فرج وفي الصفح الذي عن يسار الداخل وهو من الركن الاسود الى اليمانى أربع رخامات اثنتان خضراوان واثنتان حمراوان وبينهما خمس فرج من الرخام الابيض وكل ذلك على الصفة المذكورة وفي الصفح الذى عن يمين الداخل وهو من الركن الاسود الى العراقي ثلاث اثنتان حمراوان وواحدة خضراء ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الابيض وهذا الصفح هو المتصل بالركن الذي فيه باب الرحمة وسعته ثلاثة أشبار وطوله سبعة وعضادته التى عن يمينك اذا استقبلته رخمة خضراء في سعة ثلثى شبر وفي الصفح الذى من الشامى الى العراقى ثلاث اثنتان حمراوان وواحدة خضراء ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الابيض على الصفة المذكورة ولكل هذا الرخام المذكور طرتان واحدة فوق الاخرى سعة كل واحدة منهما قدر شبرين ذهب مرسوم في اللازوردى قد خط فيه خط بديع وتتصل الطرتان بالذهب المنقوش على نصف الجدار الاعلى والجهة التى عن يمين الداخل لها طرة واحدة وفي ما بين الطرتين بعض مواضع دراسة فى كل ركن من الاركان الاربعة مما يلى الارض رخامتان خضراوان صغيرتان تكتنفان الركنين وتكتنف أيضاً كل ما بين من النصة الذين في كل ركن كانهما طاقان عضارتان من الرخام الاخضر صغيرتان على قدر

نقيها وفي أول كل صفح من الصفحات المذكورة رخامة حمراء وفي آخره مثلها والخضراء بينهما على الترتيب المذكور الا الصفح الذى عن يسار الداخل فأول رخامة تجدها متصلة بالركن الاسود رخامة خضراء ثم حمراء الى كمال الترتيب الموصوف وبأزائه المقام الكريم منبر الخطيب وهو أيضاً على بكرات أربع شبه التي ذكرناها فاذا كان يوم الجمعة وقرب وقت الصلاة ضم الي صفح الكعبة الذى يقابل المقام وهو بين الركن الاسود والعراقي فيسند المنبر اليه ثم يقبل الخطيب داخلا على باب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقابل المقام بالبلاط الآخذ من الشرق الى الشمال لابساً ثوب سواد مرسوماً بذهب ومتعمماً بعمامة سوداء مرسومة أيضاً وعليه طيلسان شرب رقيق كل ذلك من كساء الخليفة أتى برسالها الى خطباء بلاده يرفل فيها وعليه السكينة والوقار يتهادى رويداً بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين وبين يديه ساعياً أحد القومة وفي يده عود مخروط أحمر قد ربط في رأسه مرص من الاديم المفتول رقيق طويل في طرفه عذبة صغيرة ينفضه بيده في الهواء نفضاً فتأتي بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه كأنه ايذان بوصول الخطيب. لا يزال في نفضها الى أن يقرب من المنبر ويسمونها الفرقعة فاذا قرب من المنبر عرج الى الحجر الاسود فقبله ودعا عنده ثم سعي الى المنبر والمؤذن الزمزمي رئيس المؤذنين بالحرم الشريف ساعياً امامه لابساً ثياب السواد أيضاً وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له فعند صعوده في أول درجة قلده المؤذن المذكور السيف

ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين ثم في الثانية ثم في الثالثة فاذا انتهى الى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة ووقف داعياً مستقبل الكعبة بدعاء خفي ثم انفتل عن يمينه وشماله وقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيرد الناس عليه السلام ثم يقعد ويبادر المؤذنون بين يديه في المنبر بالآذان على لسان واحد فاذا فرغوا قام للخطبة فذكر ووعظ وخشع فأبلغ ثم جلس الجلسة الخطيبية وضرب بالسيف ضربة خامسة ثم قام للخطبة الثانية فأكثر بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله ورضى عن أصحابه واختص الاربعة الخلفا بالتسمية رضى الله عن جميعهم ودعا لعمى النبي صلى الله عليه وسلم حمزة والعباس وللحسن والحسين ووالى الرضى عن جميعهم ثم دعا لامهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ورضى عن فاطمة الزهراء وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ ثم دعا للخليفة العباسى أبي العباس أحمد الناصر ثم لامير مكة مكثر بن عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسنى ثم لصلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ولولى عهده أخيه أبي بكر بن أيوب وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الالسنة بالتأمين عليه من كل مكان

وإذا أحب الله يوماً عبده ألقى عليه محبة للناس

وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم وحسن النظر لهم ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم وفي هذا التاريخ اعلمنا بأن كتابه وصل الي الامير مكثر واهم فصوله التوصية بالحاج والتأكيد في

ميرتهم وتأنيسهم ورفع أيدى الاعتداء عنهم والايعاز من ذلك الى الخدام
والاتباع والاوزاع وقال انه انما نحن وانت متقلبون في بركة الحاج فتأمل
هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم واحسان الله يتضاعف الى من
أحسن الى عباده واعتنائه الكريم موصول لمن جعل همة الاعتناء بهم
والله عز وجل كفيل بجزاء المحسنين انه ولى ذلك لارب سواه وفي
اثناء الخطبة تركز الرايتان السوداوان في أول درجة من المنبر ويمسكها
رجلان من المؤذنين وفى جانبي باب المنبر حلقتان تلقى الرايتان فيهما
مركوزتين فاذا فرغ من الصلاة خرج والرايتان عن يمينه وشماله
والفرقعة امامه على الصفة التى دخل عليها كأن ذلك أيضاً إيذان
بانصراف الخطيب والفراغ من الصلاة ثم اعيد المنبر الى موضعه بإزاء
المقام وليلة أهل هلال الشهر المذكور وهو جمادى الاولى بكر أمير مكة
مكثر المذكور فى صبيحتها الى الحرم الكريم مع طلوع الشمس وقواده
يحفون به والقراء يقرأون أمامه فدخل على باب النبي صلى الله عليه
وسلم ورجاله السودان الذين يعرفونهم بالحرابة يطوفون أمامه وبأيديهم
الحراب وهو في هيئة احتضار عليه السكينة والوقار وسمت سلفه
الكريم رضي الله عنهم لابساً ثوب بياض متقلداً سيفه محتضراً متعمما
بكرزية صوف بيضاء رقيقة فلما انتهى بأزاء المقام الكريم وقف وبسط
له وطأ كتان فصلى ركعتين ثم تقدم الى الحجر الاسود فقبله وشرع
فى الطواف وقد علا في قبة زمزم صبي هو أخو المؤذن الزمزمى هو
أول المؤذنين أذانا به يقتدون وله يتبعون وقد لبس أفخر ثيابه وتعمم

فعند ما يكمل الامير شوطاً واحداً ويقرب من الحجر يندفع الصبي في أعلى القبة رافعاً صوته بالدعاء ويستفتحه بصبح الله مولانا الامير بسعادة دائمة ونعمة شاملة ويصل ذلك بتهنئة الشهر بكلام مسجوع مطبوع حفيل الدعاء والثناء ثم يختم ذلك بثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر في مدحه ومدح سلفه الكريم وذكر سابقة النبوة رضي الله عنهم ثم يسكت فاذا اطل من الركن اليماني يريد الحجر اندفع بدعاء آخر على ذلك الاسلوب ووصله بابيات من الشعر غير الابيات الأخر في ذلك المعنى بعينه كانها منتزعة من قصائد مدح بها هكذا في السبعة الاشواط الى أن يفرغ منها والقراء في أثناء طوافه امامه فينتظم من هذه الحال والابهة وحسن صوت ذلك الداعي على صغره وانه ابن أحدى عشر سنة أو نحوها وحسن الكلام الذي يورده نثراً ونظماً واصوات القراء وعلوها بكتاب الله عز وجل مجموع يحرك النفوس ويشجيها ويستوكف العيون ويبكيها تذكرة لاهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فاذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزم ركعتين ثم جاء وركع خلف المقام أيضاً ثم ولى منصرفاً وحاشيته تحف به ولا يظهر في الحرم الا نسيل هلال آخر هكذا دائماً والبيت العتيق مبني بالحجارة الكبار الصم السمر قد رص بعضها على بعض وألصقت بالعقد الوثيق الصاقاً لاتحيله الايام ولا تقصمه الازمان ومن العجيب أن قطعة انصدعت من الركن اليماني فسمرت بمسامير فضة وأعيدت كاحسن ما كانت عليه والتسمير فيها ظاهرة ومن آيات البيت العتيق انه قائم وسط الحرم كالبرج

المشيد وله التنزيه الاعلى وحمام الحرم لاتحصى كثرة وهي من الامن بحيث يضرب بها المثل ولا سبيل أن تنزل بسطحه الاعلى حمامة ولا تحل فيه بوجه ولا على حال فترى الحمام تنجالى من الحرم كله فاذا قربت من البيوت عرجت عنه يميناً أو شمالا والطيور سواها كذلك وقرأت في أخبار مكة انه لا ينزل عليها طائر الا عند مرض يصيبه فاما أن يموت لحينه أو يبرأ فسبحان من أورثه التشريف والتكريم ومن آياته ان بابه الكريم يفتح في الايام المعلومة المذكورة والحرم قد غص بالخلق فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرته عز وجل ولا يبقى فيه موضع الاويصلى فيه كل أحد ويتلاقى الناس عند الخروج منه فيسأل بعضهم بعضاً هل دخل البيت ذلك اليوم فكل يقول دخلت وصليت في موضع كذا وموضع كذا حيث صلى الجميع ولله الآيات البينات والبراهين المعجزات سبحانه وتعالى ومن عجائب اعتناء الله تعالى به انه لا يخلو من الطائفين ساعة من النهار ولا وقتاً من الليل فلا تجد من يخبر انه رآه دون طائف به فسبحان من كرمه وعظمه وخلد له التشريف الى يوم القيامة وفي أعلا بلاطة الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الاربعة وهو مشرف كلها بشرفات مبسوطة مركنة في كل جانب من الشرفة ثلاثة أركان كانها أيضاً شرفات أخر صغار والركن الاسفل منها متصل بالركن الذي يليه من الشرفة الأخري وتحت كل صلة منها ثقب مستدير في دور الشبر منفوذ يخترقه الهواء يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر فيلوح كانها أقمار مستديرة يتصل ذلك

بالجوانب الاربعة كلها كان الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة ثم
أحدثت فيها هذه التقاطيع والتراكين فجاءت عجيبة المنظر والشكل وفي
النصف من كل جانب من الجونب الاربعة المذكورة شقة من الجص
معترضة بين الشرفات مخرمة ٠٠٠٠٠ طولها نحو الثلاثين شبراً
تقديراً يقابل كل شقة منها صفح من صفحات الكعبة المقدسة قد علت
على الشرفات كالتاج والصوامع اشكال بديعة وذلك انها ارتفعت بمقدار
النصف مركنة من الاربعة جوانب بحجارة رائقة النقش عجيبة الوضع
احاط بها شباك من الخشب الغريب الصنعة وارتفع عن الشباك عمود
في الهواء كانه مخروط مختم كله بالآجر تختيماً يتداخل بعضه على
بعض بصنعة تستميل الابصار حسناً ومن أعلا ذلك العمود الفحل وقد
استدار به أيضاً شباك آخر من الخشب على تلك الصنعة بعينها وهي
متميزة الاشكال كلها لا يشبه بعضها بعضاً لكنها على هذا المثال المذكور
من كون نصفها الاول مركناً ونصفها الاعلى عموداً لا ركن له وفي
الصف الاعلى من قبة زمزم والقبة العباسية التي تسمى السقاية والقبة
التي اليها منحرفة عنها يسيراً المنسوبة لليهودية صنعته من قربصة
الخشب عجيبة قد تأنق الصانع فيها وأحدق بأعلاها شباك مشرجب
من الخشب رائق الخلل والتفاريج وداخل شباك قبة زمزم سطح وقد
قام في وسطه شبه فحل الصومعة وفي ذلك السطح يؤذن المؤذن الزمزمي
وقد انخرط من ذلك الفحل عمود من الجص واستقر في رأسه صفيحة
حديد تتخذ مشعلا في شهر رمضان المعظم وفي الصفح الناظر الى البيت

العتيق من القبة سلاسل فيها قناديل من الزجاج معلقة توقد كل ليلة وفي الصفح الذي في يمينه كذلك وهو الناظر الى الشمال وفي كل جانب منها ثلاثة شراجيب مقومة كانها أبواب قد قامت على سوار من الزجاج صغار لم ير أبدع منها صنعة منها ما هو مفتول فتل السوار ولا سيما الجانب الذي يقابل الحجر الاسود من قبة زمزم فان سواره في نهاية من اتقان الصنعة قد أدير بكل سارية منها رؤس ثلاث أو أربعة وتحت ما بين كل رأس ورأس •••• وأحدثت فيه صنائع من النقش عجيبة المنظر وربما فتل بعضها على الصفة السوارية وهذا الجانب الذى يقابل الحجر الاسود من القبة المذكورة تتصل به مصطبة من الرخام دائرة بالقبة يجلس الناس فيها معتبرين بشرف ذلك الموضع لان أشرف مواضع الدنيا المذكورة بشرف مواضع الآخرة لان الحجر الاسود أمامك والباب الكريم مع البيت قبالتك والمقام عن يمينك وباب الصفا عن يسارك وبئر زمزم وراء ظهرك وناهيك بهذا وينطبق على كل شرجب من تلك الشراجيب أعمدة حديد قد تركب بعضها على بعض كانها شراجيب أخر وأحد أركان شباك الخشب المحدق بالقبة العباسية يتصل بأحد أركانه شباك قبة اليهودية حتى يتماسا فمن يكون في أعلى سطح هذه ينتقل الى سطح الاخرى من الركنين المذكورين وداخل هذه القباب صنعة من القربصة الجصية رائقة الحسن وللحرم أربعة أئمة سنية واماماً خامس لفرقة تسمي الزيدية وأشراف هذه البلدة على مذهبهم وهم يزيدون فى الآذان حي على خير العمل أثر قول المؤذن

حي على الفلاح وهم روافض سابون والله من وراء حسابهم وجزائهم
ولا يجمعون مع الناس انما يصلون ظهراً أربعاً ويصلون المغرب بعد
فراغ الائمة من صلاتها فأول الائمة السنية الشافعى رحمه الله وانما قدمنا
ذكره لانه المقدم من الامام العباسى وهو من يصلى وصلاته خلف
مقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم الا صلاة المغرب
فان الاربعة الائمة يصلونها في وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها يبدء
مؤذن الشافعى بالاقامة ثم يقيم مؤذنوا سائر الأئمة وربما دخل في هذه
الصلاة على المصلين سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة فربما
ركع المالكى بركوع الشافعى أو الحنفى أو سلم أحدهم بغير سلام امامه
فتر كل أذن مصيخة لصوت أمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو ومع
هذا فيحدث السهو على كثير من الناس ثم المالكى رحمه الله وهو يصلى
قبالة الركن اليمانى وله محاريب حجر يشبه محاريب الطرق الموضوعة
فيها ثم الحنفى رحمه الله وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له وهو
أعظم الائمة أبهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها بسبب ان الدولة
الاعجمية كلها على مذهبه فالاحتفال له كثير وصلاته آخراً ثم الحنبلي
رحمه الله وصلاته مع صلاة المالكى فى حين واحد وموضع صلاته
يقابل ما بين الحجر الاسود والركن اليمانى ويصلى الظهر والعصر
قريباً من الحنفى في البلاط الآخذ من الغرب الى الشمال والحنفي
يصليها في البلاط الآخذ من الغرب الى الجنوب قبالة محرابه ولا حطيم
له وللشافعى بأزاء المقام حطيم حفيل وصفة الحطيم خشبتان موصول

بينهما بأذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على تلك الصفة قد عقدت هذه الخشب على رجلين من الجص غير بائنة الارتفاع واعترض في أعلى الخشب خشبة مسمرة فيها قد نزلت منها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج وربما وصل بالخشبة المعترضة العليا شباك مشرجب بطول الخشب وللحنفي بين الرجلين الجصيتين المنعقدتين على الخشب محراب يصلى فيه وللحنبلي حطيم معطل هو قريب من حطيم الحنفي وهو منسوب لرامشت أحد الاعاجم ذوى الثراء وكانت له في الحرم آثار كريمة من النفقات رحمه الله ويقابل الحجر حطيم معطل أيضاً ينسب للوزير المقدم بهذا اللفظ المجهول ويطيف بهذه المواضع كلها دائر البيت العتيق وعلى بعد منه يسيراً مشاعيل توقد في صحاف حديد فوق خشب مركوزة فيتقد الحرم الشريف كله نوراً ويوضع الشمع بين أيدي الائمة في محاريبهم والمالكي أقلهم شمعاً وأضعفهم مالا لان مذهبه في هذه البلاد غريب والجمهور على مذهب الشافعي وعليه علماء البلاد وفقهائها الا الاسكندرية وأكثر أهلها مالكيون وبها الفقيه ابن عوف وهو شيخ كبير من أهل العلم بقية الائمة المالكية وفي أثر كل صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمي في سطح قبة زمزم ولها مطلع على أدراج من عود في الجهة التي تقابل باب الصفا رافعاً صوته بالدعاء للامامي العباسي أحمد الناصر لدين الله ثم للامير مكثر ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن ذى المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة فاذا انتهى الى ذكره بالدعاء ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة

تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة وتخفق الالسنة بذلك خفقاً
يذيب القلوب خشوعاً لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء
الجميل وألقى عليه من محبة الناس وعباد الله شهدائه في أرضه ثم يصل
ذلك بدعاء لامراء اليمن من جهة صلاح الدين ثم لسائر المسلمين
والحجاج والمسافرين وينزل هكذا دأبه دائماً أبداً وفي القبة العباسية
المذكورة خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع وفيه مصحف أحد الخلفاء
الاربعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخط زيد بن ثابت
رضي الله عنه منتسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه
وسلم وينتقص منه ورقات كثيرة وهو بين دفتي عود مجلد بمغاليق من
صفر كبير الورقات واسعها عايناه وتبركنا بتقبيله ومسح الخدود فيه
نفع الله بالنية في ذلك واعلمنا صاحب القبة المتولى لعرضه علينا أن
أهل مكة متى أصابهم قحط أو نالتهم شدة في أسعارهم اخرجوا المصحف
المذكور وفتحوا باب البيت الكريم ووضعوه في القبة المباركة مع المقام
الكريم مقام الخليل ابراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم واجتمع
الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين وبالمصحف الكريم والمقام
المعظم الى الله متوسلين فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك الا ورحمة الله
عز وجل قد تداركتهم والله لطيف بعباده لا اله سواه وبأزاء الحرم
الشريف ديار كثيرة لها أبواب يخرج منها اليه وناهيك بهذا الجوار
الكريم كدار زبيدة ودار القاضي ودار تعرف بالعجالة وسواها من
الديار وحول الحرم أيضاً ديار كثيرة تطيف به لها مناظر وسطوح

يخرج منها الى سطح الحرم فيبيت أهلها فيه ويبردون ماءهم فى أعالي شرفات فهم من النظر الى البيت العتيق دائماً في عبادة متصلة والله يهنئهم بما خصهم به من مجاورة بيته الحرام بمنه وكرمه وألفيت بخط الفقيه الزاهد الورع أبي جعفر المكي القرطبي ان ذرع المسجد الحرام في الطول والعرض ما أثبته اولا وهو مسجد رسول الله صلي الله عليه وسلم ثلاثمائة ذراع وعرضه مائتان وعدد سواريه ثلاثمائة ومناراته ثلاث فيكون تكسيره أربعة وعشرين مرجعاً من المراجع المغربية وهي خمسون ذراعاً فى مثلها وطول (مسجد) بيت المقدس أعاده للاسلام سبعمائة وثمانون ذراعاً وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعاً وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية وقناديله خمسمائة وأبوابه خمسون باباً فيكون تكسيره من المراجع المذكورة مائة مرجع وأربعين مرجعاً وخمسى مرجع

ذكر أبواب الحرم الشريف قدسه الله

للحرم تسعة عشر باباً أكثرها مفتح على أبواب كثيرة حسبما يأتي ذكره ان شاء الله (باب) الصفا يفتح على خمسة أبواب وكان يسمى قديماً بباب بنى مخزوم (باب) الخلقيين ويسمى بباب جياد الاصغر مفتح على بابين وهو محدث (باب) العباس رضى الله عنه وهو يفتح على ثلاثة أبواب باب علي رضى الله عنه يفتح على ثلاثة أبواب (باب) النبي صلى الله عليه وسلم يفتح على بابين (باب) صغير أيضاً بأزاء باب بنى شيبة المذكور ولا اسم

له (باب) بني شيبة وهو يفتح على ثلاثة أبواب وهو باب بني عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء (باب دار الندوة) ثلاثة البابان من دار الندوة منتظمان والثالث في الركن الغربي من الدار فيكون عدد أبواب الحرم بهذا الباب المنفرد عشرين باباً (باب) صغير بأزاء بني شيبة شبه خوخة الابواب لا اسم له وقيل انه يسمى باب الرباط لأنه يدخل منه لرباط الصوفية (باب) صغير لدار العجلة محدث (باب) السدة واحد (باب) العمرة واحد (باب) حزورة على بابين (باب) ابراهيم صلى الله عليه وسلم واحد (باب) ينسب لحزورة أيضاً على بابين (باب) جياد الاكبر على بابين (باب) جياد الاكبر أيضاً على بابين (باب) ينسب لجياد أيضاً على بابين ومنهم من ينسب البابين من هذه الابواب الاربعة الجيادة الى الدقاقين والروايات فيها تختلف لكننا اجتهدنا في اثبات الاقرب من أسمائها الى الصحة والله المستعان لارب سواه وباب ابراهيم صلى الله عليه وسلم هو في زاوية كبيرة متسعة فيها دار المكناسي الفقيه الذي كان امام المالكية في الحرم رحمه الله وفيها أيضا غرفة هي خزانة للكتب المحبسة على المالكية في الحرم والزاوية المذكورة متصلة بالبلاط الآخذ من الغرب الى الجنوب وخارجة عنه وبأزاء الباب المذكور عن يمين الداخل عليه صومعة على غير أشكال الصوامع المذكورة فيها تخاريم في الجص مستطيلة الشكل كانها محاريب قد حفت بها قربصة غريبة الصنعة وعلى الباب قبة عظيمة بائنة العلو تقرب من الصومعة ارتفاعها قد ضمن داخلها غرائب من الصنعة الجصية والتخاريم القربصية يعجز عنها

الوصف وظاهرها أيضاً تقاطيع في الجص كأنها أرجل مدورة قد
ركبت دائرة على دائرة وعلى الصومعة المذكورة على أرجل من
الجص مفتح ما بين (كل) رجل ورجل وخارج باب ابراهيم ينسب
اليه عليه السلام وانما بدئ بباب الصفا لانه أكبر الابواب وهو الذى
يخرج عليه الى السعى وكل وافد الى مكة شرفها الله يدخلها بعمرة
فيستحب له الدخول على باب بنى شيبة ثم يطوف سبعاً ويخرج على
باب الصفا ويجعل طريقه بين الاسطوانتين اللتين أمر المهدي رحمه الله
باقامتها علماً لطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصفا حسبما تقدم
ذكره وبين الركن اليماني وبينهما ست وأربعون خطوة ومنهما الى باب
الصفا ثلاثون خطوة ومن باب الى الصفا ست وسبعون خطوة وللصفا
أربعة عشر درجاً وهو على ثلاثة أقواس مشرفة والدرجة العليا متسعة
كأنها مصطبة وقد أحدقت به الديار وفى سعته سبع عشرة خطوة وبين
الصفا والميل الاخضر ما يأتي ذكره والميل سارية خضراء وهي خضرة
صباغية وهي التي الى ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم
على قارعة الميل الى المروة وعن يسار الساعي اليها ومنها يرمل في
السعى الى الميلين الاخضرين وهما أيضاً ساريتان خضراوان على الصفة
المذكورة الواحدة منهما بازاء باب على في جدار الحرم وعن يسار
الخارج من الباب والميل الآخر يقابله في جدار دار تتصل بدار الامير
مكثر وعلى كل واحدة منهما لوح قد وضع على رأس السارية كالتاج
ألفيت فيه منقوشاً . مذهب ان الصفا والمروة من شعائر الله

الآية وبعدها أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أعز الله نصره في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وبين الصفا والميل الاول ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل الى الميلين خمس وسبعون خطوة وهي مسافة الرمل جائياً وذاهباً من الميل الى الميلين ثم من الميلين الى الميل ومن الميلين الي المروة ثلثمائة وخمس وعشرون خطوة فجميع خطا الساعي من الصفا الى المروة أربعمائة خطوة وثلاث وتسعون خطوة وادراج المروة خمسة وهي بقوس واحد كبير وسعتها سعة الصفا سبع عشرة (خطوة) وما بين الصفا والمروة ميل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية والساعون لايكادون يخلصون من كثرة الزحام وحوانيت الباعة يميناً وشمالا وما للبلدة سوق منتظمة سواها الاالبزازين والعطارين فهم عند باب بنى شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة : كاد تتصل بها وعلى الحرم الشريف جبل أبي قبيس وهو في الجهة الشرقية يقابل ركن الحجر الاسود وفي أعلاه رباط مبارك فيه مسجد وعليه سطح مشرف على البلد الطيبة ومنه يظهر حسنها وحسن الحرم واتساعه وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه وقرأت في أخبار مكة لابى الوليد الازرقى انه أول جبل خلقه الله عز وجل وفيه استودع الحجر من الطوفان وكانت قريش تسميه الامين لانه أدى الحجر الى ابراهيم صلى الله عليه وسلم وفيه قبر آدم صلوات الله عليه وهو أحد أخشبي مكة والاخشب الثانى الجبل المتصل بقعيقعان فى الجهة الغربية صعدنا

الى جبل أبي قبيس المـذكور وصلينا في المسجد المبارك وفيه موضع
موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندانشقاق القمرله بقدرة الله عزجل
وناهيك بهذه الفضيلة والبركة والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء حتى
الجادات من مخلوقاته لا اله سواه وفى أعلاه آثار بناء جص مشيد كانه
اتخذه معقلا أمير البلد عيسى أبو مكثر المذكور فهدمه عليه أمير الحج
العراقى لمخالفة صدرت عنه فغادره خرابا وألفيت منقوشاً على سارية
خارج باب الصفا تقابل السارية الواحدة من اثنين أقيمتا علماً لطريق
النبي صلى الله عليه وسلم الى الصفا داخل الحرم المتقدمتي الذكر أمر
عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله تعالى بتوسعة المسجد
الحرام مما يلى باب الصفا لتكون الكعبة في وسط المسجد فى سنة سبع
وستين ومائة فدل ذلك المكتوب على ان الكعبة المقدسة في وسط
المسجد وكان يظن بها الانحراف الى جهة باب الصفا فاختبرنا جوانبها
المباركة بالليل فوجدنا الامر صحيحاً حسبما تضمنه رسم السارية وتحت
ذلك النقش في أسفل السارية منقوش أيضاً أمر عبدالله (محمد) المهدي
أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة الباب الاوسط الذى بين هاتين
الاسطوانتين وهو طريق رسول الله صلي الله عليه وسلم الى الصفاوفي
أعلى السارية التي يليها منقـوش أيضاً أمر عبـد الله محمد المهدي أمير
المؤمنين أصلحه الله بصرف الوادى الى مجراه على عهد أبيه ابراهيم صلى
الله عليه وسلم وتوسعته وبالرحاب التي حول المسجد الحرام لحاج بيت
الله وعماره وتحتها أيضاً منقوش ما تحت الاول من ذكر توسعة الباب

الاوسط والوادي المذكور هو الوادى المنسوب لابراهيم صلى الله عليه وسلم ومجراه على باب الصفا المذكور وكان السيل قد خالف مجراه فكان يأتى على الميل بين الصفا والمروة ويدخل الحرم فكان مدة مده بالامطار يطاف حول الكعبة سبحاً فأمر المهدى رحمه الله برفع موضع فى أعلى البلد يسمى رأس الردم فمتى جاء السيل عرج عن ذلك الردم الي مجراه واستمر على باب ابراهيم الى الموضع الذى يسمي المسفلة ويخرج عن البلد ولا يجرى الماء فيه الا عند نزول ديم المطر الكثير وهو الوادى الذى عنى صلى الله عليه وسلم بقوله حيث حكى الله تبارك وتعالي عنه ربنا انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع فسبحان من أبقى له الآيات البينات

ذكر مكة شرفها الله تعالى وآثارها الكريمة وأخبارها الشريفة

هي بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها وهي بطن واد مقدس كبيرة مستطيلة تسع من الخلائق مالا يحصيه الا الله عز وجل ولها ثلاثة أبواب أولها (باب) المعلى ومنه يخرج الي الجبانة المباركة وهي بالموضع الذى يعرف بالحجون وعن يسار المار اليها جبل فى أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج يخرج منها الى طريق العمرة وتلك الثنية تعرف بكداء وهي التى عنى حسان بقوله في شعره

﴿ تثير النقع موعدها كداء ﴾

فقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أدخلوا من حيث

قال حسان فدخلوا من تلك الثلية وهذا الموضع الذي يعرف بالحجون هو الذى عناه الحرث بن مضاض الجرهمى بقوله

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلي نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

وبالجبانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والاولياء والصالحين قد دثرت مشاهدهم المباركة وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم وفيه الموضع الذى صلب فيه الحجاج بن يوسف جازاه الله جثة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وعلى الموضع بقية علم ظاهر الى اليوم وكان عليه مبنى مرتفع فهدمه أهل الطائف غيرة منهم على ما كان يجدد من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور وعن يمينك اذا استقبلت الجبانة المذكورة مسجد فى مسيل بين جبلين يقال انه المسجد الذى بايعت فيه الجن النبي صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف وطريق العراق والصعود الى عرفات جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال وهو الى المشرق أميل ثم (باب) المسفل وهو الى جهة الجنوب وعليه طريق اليمن ومنه كان دخول خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح ثم (باب) الزاهر ويعرف أيضاً بباب العمرة وهو غربي وعليه طريق مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وطريق الشام وطريق جدة ومنه يتوجه الى التنعيم وهو أقرب ميقات المعتمرين يخرج من الحرم اليه على باب العمرة ولذلك أيضاً يسمي هو بهذا الاسم والتنعيم من البلدة على فرسخ وهو

طريق حسن فسيح فيه الآبار العذبة التي تسمى بالشبيكة وعندما تخرج من البلدة بنحو ميل تلقى مسجداً بإزاءه حجر موضع على الطريق كالمصطبة يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم يقال انه الموضع الذى قعد فيه النبي صلى الله عليه وسلم مستريحاً عند مجيئه من العمرة فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخدود فيه وحق ذلك لهم ويستندون اليه لتنال أجسامهم بركة لمسه ثم بعد هذا الموضع بمقدار غلوة تلقى على قارعة الطريق من جهة اليسار للمتوجه الى العمرة قبرين قد علتهما أكوام من الصخر عظام يقال انهما قبر أبي لهب وامرأته لعنهما الله فما زال الناس في القديم الى هلم جرا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة حتى علاهما من ذلك جبلان عظيمان ثم تسير منها بمقدار ميل وتلقى الزاهر وهو مبتنى على جانبي الطريق يحتوى على دار وبساتين والجميع ملك أحد المكيين وقد أحدث فى المكان مطاهر وسقاية للمعتمرين وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الماء ومراكن مملوءة للوضوء وهى القصاري الصغار وفى الموضع بئر عذبة يملأ منها المطاهر المذكورة فيجد المعتمرون فيها مرفقاً كبيراً للطهور والوضوء والشرب فصاحبها على سبيل معمورة بالاجر والثواب وكثير من الناس المتأخرين من يعينه على ما هو بسبيله وقيل ان له في ذلك فائدة كبيراً وعن جانبي الطريق في هذا الموضع جبال أربعة جبلان من هنا وجبلان من هنا عليها أعلام من الحجارة وذكر لنا انها الجبال المباركة التى جعل ابراهيم عليه السلام عليها أجزاء الطير ثم دعاهن حسبما حكى

الله عز وجل سؤاله اياه جل وعلا أن يريه كيف يحيي الموتى وحول
تلك الجبال الاربعة جبال غيرها وقيل ان التي جعل ابراهيم عليه
السلام عليها الطير سبعة منها والله أعلم وعند أجازتك الزاهر المذكور
تمر بالوادي المعروف بذي طوى الذى ذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم
نزل فيه عند دخول مكة وكان ابن عمر رضي الله عنهما يغتسل فيه
وحينئذ يدخلها وحوله آبار تعرف بالشبيكة وفيه مسجد يقال انه مسجد
ابراهيم عليه السلام فتأمل بركة هذا الطريق ومجموع الآيات التى فيه
والآثار المقدسة التى اكتنفته وتحيز الوادى الى مضيق تخرج منه الى
الاعلام التى وضعت حجزاً بين الحل والحرام فما داخلها الى مكة حرم
وما خارجها حل وهي كالابراج مصفوفة كبار وصغار واحد بأزاء آخر
على مقربة منه تأخذ من أعلى الجبل الذى يعترض عن يمين الطريق
فى التوجه الى العمرة وتشق الطريق الى أعلى الجبل عن يساره ومنه
ميقات المعتمرين وفيها مساجد مبنية بالحجارة يصلى المعتمرون فيها
ويحرمون منها ومسجد عائشة رضى الله عنها خارج هذه الاعلام بمقدار
غلوتين واليه يصل المالكيون ومنه يحرمون وأما الشافعيون فيحرمون
من المساجد التى حول الاعلام المذكور وانما مسجد عائشة رضى الله
عنها مسجد ينسب لعلي بن أبى طالب رضي الله عنه ومن عجيب ما عرض
علينا بباب بنى شيبة المذكور عتب من الحجارة العظام طوال كانها
مصاطب صفت أمام الابواب الثلاثة المنسوبة لبنى شيبة ذكر لنا انها
الاصنام التى كانت قريش تعبدها فى جاهليتها وكبيرها هبل بينها قد

كبت على وجوهها تطأها الاقدام وتمتهنها بأ لعلتها العوام ولم تغن عن أنفسها فضلا عن عابديها شيئاً فسبحان المنفرد بالوحدانية لا اله سواه والصحيح في أمر تلك الحجارة ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر يوم فتح مكة بكسر الاصنام واحراقها وهذا الذى نقل الينا غير صحيح وانما تلك التي على الباب حجارة منقولة وعنيت القوم بتشبيهها الى الاصنام لعظمها ومن جبال مكة المشهورة بعد جبل أبي قبيس (جبل حراء) وهو فى الشرق علي مقدار فرسخ أو نحوه مشرف على منى وهو مرتفع فى الهواء عالى القنة وهو جبل مبارك كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا مايتنابه ويتعبد فيه واهتز تحته فقال النبي صلى الله عليه وسلم اسكن حراء فما عليك الا نبي وصديق وشهيد وكان معه أبو بكر وعمر ويروي أثبت فما عليك الا نبي وصديق وشهيدان وكان عثمان رضى الله عنه معهم وأول آية نزلت من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم في الجبل المذكور وهو آخذ من الغرب الى الشمال ووراء طرفه الشمالى جبانة الحجون التى تقدم ذكرها وسور مكة انما كان من جهة المعلى وهو مدخل الى البلد ومن جهة المسفل وهو مدخل أيضاً اليه ومن جهة باب العمرة وسائر الجوانب جبال لا يحتاج معها الى سور وسورها اليوم منهدم الا آثاره الباقية وأبوابه القائمة

﴿ذكر بعض مشاهدها المعظمة وآثارها المقدسة﴾

مكة شرفها الله كلها مشهد كريم كفاها شرفاً ما خصها الله به من

مثابة بيته العظيم وما سبق لها من دعوة الخليل ابراهيم وانها حرم الله وأمنه وكفاها انها منشأ النبي صلى الله عليه وسلم الذى أثره الله بالتشريف والتكريم وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم فهي مبدأ نزول الوحى والتنزيل وأول مهبط الروح الامين جبريل وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الاكرمين وهي أيضاً مسقط رؤس جماعة من الصحابة القرشيين المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين ونجوماً للمهتدين فمن مشاهدها التي عاينا (قبة الوحى) وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها وبها كان ابتداء النبى صلى الله عليه وسلم بها وقبة صغيرة أيضاً في الدار المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها وفيها أيضاً ولدت سيدى شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضى الله عنهما وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها ومن مشاهدها الكريمة أيضاً مولد النبي صلى الله عليه وسلم والتربة الطاهرة التى هى أول تربة مست جسمه الطاهر بنى عليه مسجد لم ير أحفل بناء منه أكثره ذهب منزل به والموضع المقدس الذى سقط فيه صلى الله عليه وسلم ساعة الولادة السعيدة المباركة التى جعلها الله رحمة للامة أجمعين محفوف بالفضة فيالها تربة شرفها الله بأن جعلها أطهر الاجسام ومولد خير الانام صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام وسلم تسليما يفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافة متبركين به في شهر ربيع الاول ويوم الاثنين منه لانه كان شهر مولد النبي صلى الله عليه وسلم وفي اليوم المذكور ولد صلى الله عليه وسلم وتفتح المواضيع المقدسة

المذكورة كلها وهو يوم مشهور بمكة دائماً ومن مشاهدها الكريمة أيضاً
دار الخيزران وهي الدار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعبد الله فيها
سراً مع الطائفة الكريمة المبادرة للاسلام من أصحابه رضي الله عنهم
حتى نشر الله الاسلام منها على يدي الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله
عنه وكفى بهذه الفضيلة ومن مشاهدها أيضاً دار (أبي بكر الصديق)
رضي الله عنه وهي اليوم دارسة الأثر ويقابلها جدار فيه حجر مبارك
يتبرك الناس بلمسه يقال انه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم متى
اجتاز عليه وذكر انه جاء يوماً صلى الله عليه وسلم الى دار أبي بكر
رضي الله عنه فنادى به ولم يكن حاضراً فأنطق الله عز وجل
الحجر المذكور وقال يا رسول الله ليس بحاضر وكانت من احدى آياته
المعجزات صلى الله عليه وسلم ومن مشاهدها قبة بين الصفا والمروة
تنسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي وسطها بئر يقال انه كان
يجلس فيها للحكم رضي الله عنه والصحيح في هذه القبة أنها قبة حفيدة
عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبأزاء داره المنسوبة اليه وفيها كان
يجلس للحكم أيام تولية مكة كذلك حكي لنا أحد أشياخنا الموثوقين
به ويقال ان البير كانت في القديم فيها ولا بير فيها الآن لانا دخلناها
فألفيناها مسطحة وهي حفيلة الصنعة وكانت بعقربة من الدار التي نزلنا
فيها دار جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ذي الجناحين وبجهة المسفل
وهو آخر البلد مسجد منسوب لابي بكر الصديق رضي الله عنه يحف
به بستان حسن فيه النخل والرمان وشجر العناب وعاينا فيه شجر

الحناء وامام المسجد بيت صغير فيه محراب يقال انه كان مختبأ له رضي الله عنه من المشركين الطالبين له وعلى مقربة من دار خديجة رضى الله عنها المذكورة وفي الزقاق الذى الدار المكرمة فيه مصطبة فيها متكأ يقصد الناس اليها ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها لان في موضعها كان موضع قعود النبي صلى الله عليه وسلم ومن الجبال التى فيها أثر كريم ومشهد عظيم الجبل المعروف (بأبي ثور) وهو في الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد وفيه الغار الذي آوى اليه النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق رضي الله عنه حسبما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز وقرأت فى كتاب أخبار مكة لابي الوليد الازرقى ان الجبل نادى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الىّ يا محمد الىّ يا محمد فقد أويت قبلك نبياً وخص الله عز وجل نبيه فيه بآيات بينات فمنها انه صلى الله عليه وسلم دخل مع صاحبه على شق فيه ثلثا شبر وطوله ذراع فلما اطمأنا فيه أمر الله العنكبوت فاتخذت عليه بيتاً والحمام فصنعت عليه عشاً وفرخت فانتهي المشركون اليه بدليل قصاص للاثر مستاف أخلاق الطريق فوقف لهم عند الغار وقال ههنا انقطع الاثر فاما صعد بصاحبكم من ههنا الى السماء أوغيص به فى الارض ورأوا العنكبوت ناسجة على فم الغار والحمام مفرخة فيه فقالوا ما دخل هنا أحد فأخذوا في الانصراف فقال الصديق رضي الله عنه يا رسول الله لو ولجوا علينا من فم الغار ما كنا نصنع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ولجوا علينا منه كنا نخرج من هناك وأشار بيده المباركة الى الجانب الاخر من الغار ولم يكن فيه شق فانفتح

الحين فيه باب بقدرة الله عز وجل وهو سبحانه قدير على مايشاء
وأكثر الناس يتنابون هذا الغار المبارك ويجتنبون دخوله من الباب
الذي أحدث الله عز وجل فيه ويرومون دخوله من الشق الذى دخل
النبي صلى الله عليه وسلم تبركا به فيمتد المحاول لذلك على الارض ويبسط
خده بأزاء الشق ويولج يديه ورأسه أولا ثم يعالج ادخال سائر جسده
فنهم من يتأتى له ذلك بحسب قضافة بدنه ومنهم من يتوسط بدنه فم
الغار فيعضه فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر فيلنشب ويلاقى مشقة
وصعوبة حتى يتناول بالجذب العنيف من ورائه فالعقلاء من الناس يجتنبونه
لهذا السبب ولاسيما ويتصل به سبب آخر مخجل فاضح وذلك ان عوام
الناس يزعمون ان الذى لايسع عليه ويتمسك فيه ولا يلجه ليس لرشدة
جري هذا الخبر على ألسنتهم حتي عاد عندهم قطعاً على صحته لا
يشكون فيحسب المنتشب فيه المتعذر ولوجه عليه يكسوه هذا الظن
الفاضح المخجل زائداً الى ما يكابده بدنه من اللز في ذلك المضيق
واشرافه منه على المنية توجعاً وانقطاع نفس وبرح ألم فالبعض من
الناس يقولون في مثل ليس يصعد جبل أبي ثور الا ثور وعلى مقربة
من هذا الغار فى الجبل بعينه عمود منقطع من الجبل قد قام شبه
الدراع المرتفعة بمقدار شبه القامة وانبسط له في أعلاه شبه الكف
خارجاً عن الدراع كأن القبة المبسوطة بقدرة الله عز وجل يستظل
تحتها نحو العشرين رجلاً وتسمى قبة جبريل صلى الله عليه وسلم ومما
يجب أن يثبت ويؤثر لبركة معاينته وفضل مشاهدته ان في يوم الجمعة

التاسع عشر من جمادى الاولى وهـو التاسع من ستنبر ان شاء الله
بحرية فتشاءمت فأنهلت عينا غديقة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
وذلك أثر صـلاة العصر ومع العشي من اليوم المذكور فجاءت بمطر
جود وتبادر الناس الى الحجر فوقعوا تحت الميزاب المبارك متجردين
عن ثيابهم يتلقون الماء الذى يصبه الميزاب برؤسهم وأيديهم وافواههم
مزدحمين عليه ازدحاماً عظيماً أحدث ضوضاء عظيمة كل يحرص على أن
ينال جسمه من رحمة الله نصيباً ودعائهم قد علا ودموع أهل الخشوع
منهم تسيل فلا تسمع الا ضجيج دعاء أو نشيج بكاء والنساء قد وقفن
خارج الحجر ينظرن بعيون دوامع وقلوب خواشع يتمنين ذلك الموقف
لو ظفرن به وكان بعض الحجاج المتأخرين المشفقين يبل ثوبه بذلك
الماء المبارك ويخرج اليهن ويعصره في أيدى البعض منهن فيتلقينه شرباً
ومسحاً على الوجوه والابدان وتمادت تلك السحابة المباركة الى قريب
المغرب وتمادى الناس على تلك الحال من الازدحام على تلقي ماء الميزاب
بالايدى والوجوه والافواه وربما رفعوا الاوانى ليقع فيها فكانت عشية
عظيمة استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة ثقة بفضله وكرمه ولما
أقترن بها من القرائن المباركة فمنها أنها كانت عشية الجمعة وفضل اليوم
فضله والدعاء فيها يرجى من الله تعالى قبوله لما ورد فيها من الاثر
الصحيح وأبواب السماء تفتح عند نزول المطر وقد وقف الناس تحت
الميزاب وهو من المواضع التى يستجاب فيها الدعاء وطهرت أبدانهم رحمة
الله النازلة من سمائه الى سطح بيته العتيق الذى هو حيال البيت المعمور

وكفى بهذا المجتمع الكريم والمنتظم الشريف جعلنا الله ممن طهر فيه من أرجاس الذنوب واختص من رحمة الله تعالى بذنوب ورحمته واسعة تسع عباده المذنبين انه غفور رحيم وذكروا ان الامام أبا حامد الغزالى دعا الله عز وجل بدعوات وهو في حرمه الكريم في رغبات رفعها الله جل وتعالي فأعطي بعضاً ومنع بعضاً وكان مما منع نزول المطر وقت مقامه بمكة وكان تمنى أن يغتسل به تحت الميزاب ويدعو الله عز وجل عند بيته الكريم في الساعة التي أبواب سمائه فيها مفتوحة فمنع ذلك وأجيب دعائه في سائر ما سأله فلله الحمد وله الشكر على ما أنعم به علينا ولعل عبداً من عباده الصالحين الوافدين على بيته الكريم خصه الله بهذه الكرامة فدخلنا جميع المذنبين في شفاعته والله ينفعنا بدعاء المخلصين من عباده ولا يجعلنا ممن شقي بدعائه انه منعم كبير

﴿ ذكر ما خص الله تعالى به مكة من الخيرات والبركات ﴾

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولاهلها الدعوة الخليلية الابراهيمية وذلك ان الله عز وجل يقول حاكياً عن خليله صلى الله عليه وسلم (فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وقال عز وجل (أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء) فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل الي يوم القيامة وذلك ان أفئدة الناس تهوى اليها من الاصقاع النائية والاقطار الشاحطة فالطريق اليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة والثمرات تجبى

اليها من كل مكان فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومتاجر ولو لم يكن لها من المتاجر الا أوان الموسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب فيباع فيها في يوم واحد فضلا عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الاحجار ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية الي غير ذلك من جلب الهند والحبشة الى الامتعة العراقية واليمانية الى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية الي ما لا ينحصر ولا ينضبط ما لو فرق على البلاد كلها لاقام لها الاسواق النافعة ولعم جميعها بالمنفعة التجارية كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم حاشا ما يطرأ بها مع طول الايام من اليمن وسواها فما على الارض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر الا وهي موجودة فيها مدة الموسم فهذه بركة لاخفاء بها وآية من آياتها الشريفة التي خصها الله بها وأما الارزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن إن الاندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والاترج والجوز والمقل والبطيخ والقثا والخيار الى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب الى سائرها الي غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة وأكثر هذه البقول كالباذنجان والقثاء والبطيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره ولكل نوع من هذه الانواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في

سائر البلاد فالعجب من ذلك يطول ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل وكل فواكهها عجب لكن البطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة وذلك لان رائحته من أعطر الروائح وأطيبها يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك اياه حتي اذا ذقته خيل اليك أنه شيب بسكر مذاب أو بجنى النحل اللباب ولعل متصفح هذه الاحرف يظن ان في الوصف بعض الغلو كلا لعمر الله انه لا كثر مما وصفت وفوق ما قلت وبها عسل أطيب من الماذي المضروب به المثل يعرف عندهم بالمسعودى وأنواع اللبن بها فى نهاية من الطيب وكلما يصنع منها من السمن فانه لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذاذة ويجلب اليها قوم من اليمن يعرفون (بالسرو) نوعاً من الزبيب الاسود والاحمر فى نهاية الطيب ويجلبون معه من اللوز كثيراً وبها قصب السكر أيضاً كثير يجلب من حيث تجاب البقول التى ذكرناها والسكر بها كثير مجلوب وسائر النعم والطيبات من الرزق والحمد لله وأما الحلوي فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى أنهم ٠٠٠٠ يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة وفي الاشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة ولم يشاهد أحد أكمل منظراً منها لا بمصر ولا بسواها قد صورت منها تصاوير انسانية وفاكهية وجليت فى منصات كأنها العرائس ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة فتلوح كانها الازاهر حسناً فتقيد الابصار وتستنزل الدرهم والدينار

وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق وضرب نواحي الاقطار انها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا وما ذاك والله أعلم الا لبركة مراعيها هذا على افراط سمنه ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهي ذلك المنتهى في السمن للفظته الافواه ودكا ولعافته وتجنبته والامر فى هـذا بالضد كلما ازداد سمناً زادت النفوس فيه رغبة والنفس له قبولا فتجده هنياء رخيصاً يذوب فى الفم قبل أن يلاك مضغاً ويسرع لخفته عن المعدة انهضاماً وما أرى ذلك الا من الخواص الغريبه وبركة البلد الامين قد تكفلت بطيبه لا شك فيه والخبر عنـه يضيق عن الخبر له والله يجعل فيه رزقاً لمن تشوق بلدته الحرام وتمنى هذه المشاهد العظام والمناسك الكرام بعزته وقدرته وهذه الفواكه تجلب اليها (من الطائف) وهي على مسيرة ثلاثة أيام منها على الرفق والتؤدة ومن قرى حولها وأقرب هذه المواضيع يعرف با ••••• هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلا وهو من بطن الطائف ويحتوى على قري كثيرة ومن بطن مرو هو على مسيرة يوم أو أقل من نخلة وهي على مثل هذه المسافة ومن أودية بقرب من البلد كعين سليمان وسواها قد جاب الله اليها من المغاربة ذوى البصارة بالفلاحـة والزراعة فأحـدثوا فيها بساتين ومزارع فكانوا أحد الاسباب فى خصب هـذه الجهات وذلك بفضل الله عز وجل وكريم اعتنائه بحرمه الكريم وبلده الامين ومن أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله وأجرينا الحديث باستطابته ولا سيما لكوننا لم نعهده الرطب وهـو

عندهم بمنزلة التين الاخضر فى شجره يجني ويؤكل وهو فى نهاية من الطيب واللذاذة لايسأم التفكه به وبأنه عندهم عظيم يخرج الناس اليه كخروجهم الى الضيعة أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يبسط على الارض قدر ما يجف قليلا ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع ومن صنع الله الجميل لنا وفضله العميم علينا أنا وصلنا الى هـذه البلدة المكرمة فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممن قدم عهده فيها وطال مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحرابة المتلصصين فيها على الحاج المختلسين ما بأيديهم والذين كانوا آفة الحرم الشريف لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين الا اختلس من يديه أو من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة فما منهم الا حديد القميص فكفى الله هـذا العام شرهم الا القليل وأظهر أمير البلد التشديد عليهم فتوقف شرهم وبطيب هوائها فى هـذا العام وفتور حرارة قيظها المعهود فيها وانكسار حدة سمومها وكنا نبيت في سطح الموضع الذى كنا نسكنه فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه الى دثار يقينا منه وذلك أمر مستغرب بمكة وكانوا أيضا يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام ولين سعرها وانها خارقة للعوائد السالفة عندهم كان سوم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمنى وهى أويبتان من كيل مصر وجهاتها والاويبتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربى وهذا السعر فى بلد لا ضيعة فيه ولا قوام معيشة لاهله الا بالميرة المجلوبة اليه سعر لاخفاء بيمنه وبركته على كثرة المجاورين

فيها فى هذا العام واستجلاب الناس اليها وتزادفهم عليها فحدثنا غير واحد من المجاورين الذى لهم بها سنون طائلة انهم لم يروا هذا الجمع بها قط ولا سمع بمثله فيها والله يجعله جمعاً مرحوماً معصوماً بمنه وما زال الناس فيها يسلسلون أوصاف أحوالها فى هذه السنة وتميزها عما سلف من السنين حتى لقد زعموا ان ماء زمزم المبارك زاد عذوبة ولم يكن قبل مصادفها وهذا الماء المبارك في أمره عجب وذلك انك تشربه عند خروجه من قراراته فتجده في حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئاً وتلك فيه من الله آية وعناية وبركته أشهر من أن يحتاج لوصف واصف وهو لما شرب له كما قال صلى الله عليه وسلم أروي الله منه كل ظامئ اليه بعزته وكرمه ومن الامور المجربة في هذا الماء المبارك ان الانسان ربما وجد مس الاعياء وفتور الاعضاء اما من كثرة الطواف أو من عمرة يعتمرها على قدميه أو من غير ذلك من الاسباب المؤدية الى تعب البدن فيصب من ذلك الماء على بدنه فيجد الراحة والنشاط لحينه ويذهب عنه ما كان أصابه

﴿ شهر جمادى الآخرة عرفنا الله يمنه وبركته ﴾

استهل هلاله ليلة الاربعاء وهو الحادي والعشرون من شهر سبتمبر العجمي ونحن بالحرم المقدس زاده الله تعظيما وتشريفاً وفي صبيحة الليلة المذكورة وافى الامير مكثر بأتباعه وأشياعه على العادة السالفة المذكورة فى الشهر الاول وعلى ذلك الرسم بعينه والزمزمي المفرد

بثنائه والدعاء له فوق قبة زمزم يرفع عقيرته بالدعاء والثناء عند كل
شوط يطوفه الامير والقراء أمامه الى أن فرغ من طوافه وأخذ في
طريق انصرافه ولاهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة عند
مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضاً ويتغافرون
ويدعوا بعضهم لبعض كفعلهم في الاعياد هكذا دائما وتلك طريقة من
الخير واقعة في النفوس تجدد الاخلاص وتستمد الرحمة من الله عز
وجل بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضاً وبركة ما يتهادونه من الدعاء والجماعة
رحمة ودعاؤهم من الله بمكان ولهذه البلدة المباركة (حمامان) أحدهما ينسب
للفقيه الميانشي أحد الاشياخ المحلقين بالحرم المكرم والثاني وهو الاكبر
ينسب لجمال الدين وكان هذا الرجل كصفته جمال الدين له رحمه الله
بمكة والمدينة شرفها الله من الآثار الكريمة والصنائع الحميدة والمصانع
المبنية في ذات الله المشيدة ما لم يسبقه أحد اليه فيما سلف من الزمان
ولا أكابر الخلفاء فضلا عن الوزراء وكان رحمه الله وزير صاحب الموصل
تمادى على هذه المقاصد السنية المشتملة على المنافع العامة للمسلمين في حرم الله
تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم أكثر من خمس عشر سنة لم
يزل فيها باذلا أموالا لا تحصى في بناء رباع بمكة مسبلة في طرق الخير
والبر مؤبدة محبسة واختطاط صهاريج للماء ووضع جباب في الطرق يستقر
فيها ماء المطر الى تجديد آثار من البناء فى الحرمين الكريمين وكان من
أشرف أفعاله أن جلب الماء الى عرفات وقاطع عليه العرب بني شعبة
سكان تلك النواحي المجلوب منها الماء بوظيفة من المال كبيرة على أن لا

يقطعوا الماء عن الحاج فلما توفي الرجل رحمة الله عليه عادوا الى
عادتهم الذميمة من قطعه ومن مفاخره ومناقبه أيضاً بعد أن جعل مدينة
الرسول صلى الله عليه وسلم تحت سورين عتيقين أنفق فيهما أموالا
لاتحصى كثرة ومن أعجب ماوفقه الله تعالى اليه أنه جدد أبواب الحرم كلها
وجدد باب الكعبة المقدسة وغشاه فضة مذهبة وهو الذى فيها الآن
حسبما تقدم وصفه وجلل العتبة المباركة بلوح ذهب ابريز وقد تقدم
ذكره أيضاً فأخذ الباب القديم وأمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن
فيه فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع في ذلك التابوت المبارك ويحج به
ميتاً فسيق الى عرفات ووقف به على بعد وكشف عن التابوت فلما أفاض
الناس أفيض به وقضيت له المناسك كلها وطيف به طواف الافاضة وكان
الرجل رحمه الله لم يحج فى حياته ثم حمل الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم
وله فيها من الآثار الكريمة ما قدمنا ذكره وكاد أشرافها يحملونه على رؤسهم
وبنيت له روضة بإزاء روضة المصطفى صلى الله عليه وسلم وفتح فيها موضع
يلاحظ الروضة المقدسة وأبيح له ذلك على شدة الضنانة بمثله لسابق أفعاله
الكريمة ودفن في تلك الروضة وأسعده الله بالجوار الكريم وخصه
بالموارة فى تربة التقديس والتعظيم والله لايضيع أجر المحسنين وسنذكر
تاريخ وفاته اذا وقفنا عليه من التاريخ الثابت فى روضته ان شاء الله عز
وجل وهو ولى التيسير لارب غيره ولهذا الرجل رحمه الله من الآثار
السنية والمفاخر العلية التى لم يسبقه اليها أكابر الاجواد وسراة الامجاد
فيما سلف من الزمان ما يفوت الاحصاء ويستغرق الثناء ويستصحب

طول الايام من الالسنة بالدعاء وحسبك انه اتسع اعتناؤه باصلاح عامة
طرق المسلمين بجهة المشرق من العراق الى الشام الى الحجاز حسبما
نذكره واستنبط المياه وبنى الجباب واختط المنازل فى المفازات وأمر
بعمارتها مأوى لابناء السبيل وكافة المسافرين وابتنى بالمدن المتصلة
من العراق الى الشام فنادق عينها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذين
يضعف احدهم عن تأدية الاكرية واجرى على قومه تلك الفنادق
والمنازل ما يقوم بمعيشتهم وعين لهم ذلك فى وجوه تأيدت لهم فبقيت
تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها الى الآن فسارت بجميل ذكر هذا
الرجل الرفاق وملئت ثناء عليه الآفاق وكان مدة حياته بالموصل على
ماأخبرنا به غير واحد من ثقات الحجاج التجار ممن شاهد ذلك قد
اتخذ دار كرامة واسعة الفناء فسيحة الارجاء يدعو اليها كل يوم الحفل
من الغرباء فيعمهم شبعاً ورياً ويرد الصادر والوارد من أبناء السبيل
في ظله عيشاً هنيئاً لم يزل على ذلك مدة حياته رحمه الله فبقية آثاره
مخلدة وأخباره بألسنة الذكر مجددة وقضي حميداً سعيداً والذكر الجميل
للسعداء حياة باقية ومدة من العمر ثانية والله الكفيل بجزاء المحسنين
الى عباده فهو أكرم الكرماء وأكفل الكفلاء ومن الامور المحظورة
بهذا الحرم الشريف زاده الله تعظيما وتكريماً ان النفقة فيه ممنوعة لا
يجد المتأجر من ذوي اليسار اليها سبيلا فى تجديد بناء أو اقامة حطيم
أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك ولو كان الامر مباحاً في ذلك
لجمل الراغبون فى نفقات البر من أهل الجدة حيطانه عسجد وترابه

عنبراً لكنهم لا يجدون السبيل الى ذلك فتى ذهب أحد أرباب الدنيا الى تجديد أثر من آثاره أو اقامة رسم كريم من رسومه أخذ اذن الخليفة في ذلك فان كان مما ينقش عليه أو يرسم فيه طرز باسم الخليفة ونفوذ أمره بعمله ولم يذكر اسم المتولي لذلك ولا بد مع ذلك من بذل حظ وافر من النفقة لامير البلد ربما يوازي قدر المنفوق فيه فتتضاعف المؤنة على صاحبه وحينئذ يصل الى غرضه من ذلك ومن أغرب ما اتفق لاحد دهاة الاعاجم ذوي الملك والثراء انه وصل الى الحرم الكريم مدة جد هذا الامير مكثر فرأي تنور بئر زمزم وقبتها على صفة لم يرضها فاجتمع بالامير وقال أريد أن اتأنق في بناء تنور زمزم وطيه وتجديد قبته وابالغ في ذلك الغاية الممكنة وأنفق فيه من صميم مالي ولك على في ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك غرض المقصود وهو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة في ذلك فاذا استوفى البناء التمام وانتهت النفقة منتهاها وتحصلت محصاة بذلت لك مثلها جزاء على اباحتك لي ذلك فاهتز الامير طمعاً وعلم أن النفقة في ذلك تنتهي الى آلاف من الدنانير على الصفة التي وصفها له فأباح له ذلك والزمه مقيداً يحصي قليل الانفاق وكثيره وشرع الرجل في بنائه واحتفل واستفرغ الوسع وتأنق وبذل المجهود فعل من يقصد بفعله ذات الله عز وجل ويقرضه قرضاً حسناً والمقيد يسود طواميره بالتقييد والامير يتطلع الى ما لديه ويؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بسط يديه الى أن فرغ البناء على الصفة التي تقدم ذكرها أولا عند ذكر بئر زمزم وقبته فلما لم يبق الا

أن يصح صاحب النفقة بالحساب ويستقضى منه العدد المجتمع فيها حلا منه المكان وأصبح فى خبر كان وركب الليل جملا وأصبح الامير يقلب كفيه ويضرب أصدريه ولم يمكنه أن يحدث في بناء وضع فى حرم الله تعالى حادثاً يحيله أو نقصاً يزيله وفاز الرجل بثوابه وتكفل الله به في انقلابه وتحسين مآبه وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين وبقى خبر هذا الرجل مع الامير يتهادى غرابة وعجباً ويدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك

﴿ شهر رجب الفرد عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلاله ليلة الخميس الموفى عشرين لشهر اكتوبر بشهادة خلق كثير من الحجاج المجاورين والاشراف أهل مكة ذكروا انهم رأوه بطريق العمرة ومن جبل قعيقعان وجبل أبي قبيس فثبتت شهادتهم بذلك عند الامير والقاضى وأما من المسجد الحرام فلم يبصره أحد وهذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة وهو أكبر أعيادهم ولم يزالوا على ذلك قديماً وحديثاً يتوارثه خلف عن سلف متصلا ميراث ذلك الى الجاهلية لانهم كانوا يسمونه منصل الاسنة وهو أحد الاشهر الحرم وكانوا يحرمون القتال فيه وهو شهر الله الاصم كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة العرفية لانهم يحتفلون لها الاحتفال الذى لم يسمع بمثله ، يبادر اليها أهل الجهات المتصلة بها فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم

الا الله عز وجل فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدى ذكره غرابة وعجباً شاهدنا من ذلك أمراً يعجز الوصف عنه والمقصود منه الليلة التي يستهل فيها الهلال مع صبيحتها ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار وذلك لانا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الاربعاء وهي العشية التي ارتقب فيها الهلال قد امتلأت هوادج مشدودة على الابل مكسوة بأنواع كساء الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته فأخذوا في الخروج الى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة وشعابها والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين وأشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره وربما فاضت الاستار التي على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الارض ومن أغرب ما شاهدنا من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمة الامير مكثر فان أذيال ستره كانت تسحب على الارض انسحاباً وغيره من هوادج حرم الامير وحرم قواده الى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزاً عن الاحصاء فكانت تلوح على ظهور الابل كالقباب المضروبة فيخيل للناظر اليها انها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة الا من خرج للعمرة من أهلها ومن المجاورين وكنا في جملة من خرج ابتغاء بركة الليلة العظيمة فكدنا لا نتخلص الى مسجد عائشة من الزحام وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج

والنيران قد أشعلت بحافتي الطريق كله والشمع يتقد بين أيدي الابل التي عليها هوادج من يشار اليه من عقائل نساء مكة فلما قضينا العمرة وطفنا وجئنا للسعي بين الصفا والمروة وقد مضى هدو من الليل أبصرناه كله سراجاً وتيراناً وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن فكنا لا نتخلص الا بين هوادجهن وبين قوائم الابل لكثرة الزحام واصطكاك الهوادج بعضها على بعض فعاينا ليلة هي أغرب ليالي الدنيا فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجباً يحدث به ولا عجباً يذكره مرأى الحشر يوم القيامة لكثرة الخلائق فيه محرمين ملبين داعين الى الله عز وجل ضارعين والجبال المكرمة التي بحافتي الطريق تجيبهم بصداها حتى صكت المسامع وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع وذابت القلوب الخواشع وفي تلك الليلة ملئ المسجد الحرام كله سرجاً فتلألأ نوراً وعند ثبوت رؤية الهلال عند الامير أمر بضرب الطبول والدبادب والبوقات اشعاراً بأنها ليلة الموسم فلما كانت صبيحة ليلة الخميس خرج الى العمرة في احتفال لم يسمع بمثله انحشد له أهل مكة عن بكرة أبيهم فخرجوا على مراتبهم قبيلةً قبيلةً وحارةً حارةً شاكين في الاسلحة فرساناً ورجالةً فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة يتعجب المعاين لهم لوفور عددهم فلو أنهم من بلاد جمة لكانوا عجباً فكيف وهم من بلد واحد وهذا أدل الدلائل على بركة البلد فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالاسلحة عليها والراجلة يتواثبون ويتثاقفون بالاسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً وحجفاً وهم يظهرون

التطاعن بعضهم لبعض والتضارب بالسيوف والمدافعة بالحجف التى يستجنون بها وأظهروا من الحذق بالثقاف كل أمر مستغرب وكانوا يرمون بالحراب الى الهواء ويبادرون اليها لقفاً بأيديهم وهى قد تصوبت أسلتها على رؤسهم وهم في زحام لا يمكن فيه الجول وبعارمي بعضهم بالسيوف في الهواء فيتلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم الى أن خرج الامير يزحف بين قواده وأبنائه امامه وقد قاربوا سن الشباب والرايات تخفق أمامه والطبول والدبادب بين يديه والسكينة تفيض عليه وقد امتلأت الجبال والطرق والثنايات بالنظارة من جميع المجاورين فلما انتهى الى الميقات وقضى غرضه أخذ في الرجوع وقد ترتب العسكران بين يديه على لعبهم ومرحهم والراجلة على الصفة المذكورة من التجاول وقد ركب جملة من أعراب البوادى نجباً صهباً لم ير اجمل منظراً منها، وركابها يسابقون الخيل بها بين يدي الامير رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه الى أن وصل للمسجد الحرام فطاف بالكعبة والقراء أمامه والمؤذن الزمزمي يغرد فى سطح قبة زمزم رافعاً عقيرته بتهنئته بالموسم والثناء عليه والدعاء له على العادة فلما فرغ من الطواف صلى عند الملتزم ثم جاء الي المقام وصلى خلفه وقد أخرج له من الكعبة ووضع في قبته الخشبية التى يصلى خلفها فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام فاستلمه وتمسح به ثم أعيدت القبة عليه وأخذ في الخروج على باب الصفا الى المسعي والجفل بين يديه فسعى راكباً والقواد مطيفون به والراجلة الحرابة أمامه فلما فرغ من السعى

استلت السيوف أمامه وأحدقت الاشياع به وتوجه على منزله على هذه الحالة الهائلة مزحفاً به وبقي المسعي يومه ذلك يموج بالساعين والساعيات فلما كان اليوم الثاني وهو يوم الجمعة كان طريق العمرة في العمارة قريباً من أمسه راكبين ومشين رجالاً ونساء واللنساء الماشيات المتأجرات كثيراً يسابقن الرجال في تلك السبيل المباركة تقبل الله من جميعهم عنه وفي أثناء ذلك يلاقي الرجال بعضهم بعضاً فيتصافحون ويتهادون الدعاء والتغافر بينهم والنساء كذلك والكل منهم قد لبس أفخر ثيابه واحتفل احتفال أهل البلاد للاعياد وأما أهل البلد الامين فهذا الموسم عيدهم لهم يعبئون بهوله يحتفلون وفي المباهاة فيه يتنافسون وله يعظمون وفيه تنفق أسواقهم وصنائعهم يقدمون النظر في ذلك والاستعداد له بأشهر ومن لطيف صنع الله عز وجل لهم فيه اعتناء كريم منه سبحانه بحرمه الامين ان قبائل اليمن تعرف بالسرو هم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراة وكأنها مضافة لسراة الرجال على ما أخبرني به فقيه من أهل اليمن يعرف بابن أبي الصيف فاشتق الناس لهم هذا الاسم المذكور من اسم بلادهم وهم قبائل شتى كبجيلة وسواها يستعدون للوصول الى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام فيجمعون بين النية في العمرة وميرة البلد بضروب من الاطعمة كالحنطة وسائر الحبوب الى اللوبياء الى ما دونها ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز فتجمع ميرتهم بين الطعام والادام والفاكهة ويصلون في آلاف من العدد رجالا وجمالا موقرة بجميع ما ذكر فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه يتقوتون

ويدخرون وترخص الاسعار وتعم المرافق فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم الى ميرة أخرى ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش ومن العجب في أمر هؤلاء المائرين انهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم انما يبيعونه بالخرق والعباآت والشمل فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الاقنعة والملاحف المتان وما أشبه ذلك مما يلبسه الاعراب ويبايعونهم به ويشارونهم ويذكر انهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجدب وبقع الموت في مواشيهم وأنعامهم وبوصولهم بها تخصب بلادهم وتقع البركة في أموالهم فمتى قرب الوقت ووقعت منهم بعض غفلة في التأهب للخروج اجتمع نساؤهم فأخرجنهم وكل هذا لطف من الله تعالى لحرمة البلد الامين وبلادهم على ما ذكر لنا خصيبة متسعة كثيرة التين والعنب واسعة المحرث وافرة الغلاة وقد اعتقدوا اعتقاداً صحيحاً ان البركة كلها في هذه الميرة التي يجلبونها فهم من ذلك في تجارة رابحة مع الله عز وجل والقوم عرب صرحاء فصحاء جفاة أصحاء لم تغذهم الرقة الحضرية ولا هذبتهم السير المدنية ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية فهم اذا طافوا بالكعبة المقدسة يتصارحون عليها تطارح البنين على الام المشفقة لائذين بجوارها متعلقين بأستارها فحيث ما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها في أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب وتتفجر لها الاعين الجوامد فتصوب فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمنين على أدعيتهم

متلقنين لها من ألسنتهم على انهم طول مقامهم لا يتمكن معهم طواف ولا يوجد سبيل الى استلام الحجر واذا فتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام فتراهم في محاولة دخولهم يتسلسلون كأنهم بعض ببعض مرتبطون يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون وأربعون الى أزيد من ذلك والسلاسل منهم يتبع بعضهم بعضاً وربما انفصمت بواحد منهم يميل عن المطلع المبارك الى البيت الكريم فيقع الكل لوقوعه فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدى الى الضحك (وأما صلاتهم) فلم يذكر في مضحكات الاعراب أطرف منها وذلك انهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقراً ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ومنهم من يسجد الثلثين والثلاث والاربع ثم يرفعون رؤسهم من الارض قليلا وأيديهم مبسوطة عليها ويلتفتون يميناً وشمالاً التفات المروع ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد وربما تكلموا في أثناء ذلك وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده الى صاحبه وصاح به ووصاه بما شاء ثم عاد الى سجوده الى غير ذلك من أحوالهم الغريبة ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة أو جلود يستترون بها وهم مع ذلك أهل بأس ونجدة لهم القسى العربية الكبار كأنها قسى القطانين لا تفارقهم فى أسفارهم فمتى رحلوا الى الزيارة هاب أعراب الطريق المسكون للحاج مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم وخلوا لهم عن الطريق ويصحبهم الحجاج الزائرون فيحمدون صحبتهم وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للايمان صحيح وذكر ان النبي صلى الله عليه

وسلم ذكرهم وأثني عليهم خيراً وقال علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء وكفى بأن دخلوا في عموم قوله صلي الله عليه وسلم الايمان يمان الى غيرذلك من الاحاديث الواردة فى اليمن وأهله وذكر ان عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما كان يحترم وقت طوافهم ويتحري الدخول في جملتهم تبركا بأدعيتهم فشأنهم عجيب كله وشاهدنا منهم صبياً في الحجر قد جلس الي أحد الحجاج يعلمه فاتحة الكتاب وسورة الاخلاص فكان يقول له قل هو الله أحد فيقول الصبي الله أحد فيعيد عليه المعلم فيقول له ألم تأمرني بأن أقول هو الله أحد قد قلت فكابد في تلقينه مشقة وبعد لأى ماعلقت باسانه وكان يقول له بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين فيقول الصبي بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله فيعيد عليه المعلم ويقول له لا تقل والحمد لله انما قل الحمد لله فيقول الصبي اذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم أقول والحمد لله للاتصال واذا لم أقل بسم الله وبدأت قلت الحمد لله فعجبنا من أمره ومن معرفته طبعاً بصلة الكلام وفصله دون تعلم وأما فصاحتهم فبديعة جداً ودعاؤهم كثير التخشيع للنفوس والله يصلح أحوالهم وأحوال جميع عباده بمنه والعمرة فى هذا الشهر كله متصلة ليلا ونهاراً رجالا ونساء لكن المجتمع كله انما كان فى الليلة الاولى وهي ليلة الموسم عندهم والبيت الكريم يفتح كل يوم من هذا الشهر المبارك فاذا كان اليوم التاسع والعشرون منه أفرد للنساء خاصة فيظهر للنساء بمكة في ذلك اليوم احتفال عظيم فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المستعدله وفى يوم الخميس

الخامس عشر من الشهر المذكور شاهدنا من الاحتفال للعمرة قريباً
من المشهد الاول المذكور في أوله فكان لا يبقى أحد من الرجال
والنساء الاخرج لها وبالجملة فالشهر المبارك كله معمور بأنواع العبادات
من العمرة وسواها ويختص أوله ونصفه من ذلك بحظ متميز وكذلك
السابع والعشرون منه وفي عشي يوم الخميس المذكور كنا جلوساً
بالحجر المكرم فما راعنا الا الامير مكثر طالعاً محرماً قد وصل من
ميقات العمرة تبركاً بذلك اليوم وجرياً فيه على الرسم وأبناءه وراءه
محرمين وقد حف به بعض خاصته وبادر المؤذن الزمزمي للحين الى
سطح قبة زمزم داعياً على عادته ومتأولا في ذلك مع أخيه صغيرة
وحانت صلاة العشاء مع فراغ الامير من طوافه فصلى خلف الامام الشافعي
وخرج الى المسعى المبارك وفي يوم الجمعة السادس عشر منه خرجت
قافلة كبيرة من الحاج نحو أربعمائة جمل مع الشريف الداودى الى
زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي جمادى الثانية قبله كانت أيضاً
زيارة أخرى لبعض الحجاج في قافلة أصغر من هذه المذكورة وبقيت
الزيارة الشوالية والتى مع الحاج العراقى اثر الوقفة ان شاء الله عز وجل
وفي التاسع عشر من شعبان كان انصراف هذه القافلة الكبيرة فى كنف
السلامة والحمد لله وفى ليلة الثلاثاء السابع والعشرين منه أعنى من
رجب ظهر لاهل مكة أيضاً احتفال عظيم فى الخروج الى العمرة لم
يقصر عن الاحتفال الاول فاحتفل الجميع اليها تلك الليلة رجالا ونساء
على الصفات والهيآت المتقدمة الذكر تبركا بفضل هذه الليلة لانها من

الليالي الشهيرة الفضل فكانت مع صبيحتها عجباً في الاحتفال وحسن
المنظر جعل الله ذلك كله خالصاً لوجهه الكريم وهذه العمرة يسمونها
عمرة الاكمة لانهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد عائشة رضى الله
عنها بمقدار غلوة وهي على مقربة من المسجد المنسوب لعلى رضى
الله عنه والاصل في هذه العمرة الاكمية عندهم ان عبد الله بن الزبير
رضى الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا
حافياً معتمراً وأهل مكة معه فانتهى الى تلك الاكمة فأحرم منها وكان
ذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب وجعل طريقه على ثنية
الحجون المفضية الى المعلى التى كان دخول المسلمين يوم فتح مكة منها
حسبما تقدم ذكره فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة في ذلك اليوم
بعينه وعلى تلك الاكمة بعينها وكان يوم عبد الله رضى الله عنه مذكوراً
مشهوراً لانه أهدى فيه كذا وكذا بدنة عدداً لم تحصل محققته
فكنت أثبته لكنه بالجملة كثير ولم يبق من أشراف مكة وذوي الاستطاعة
فيها الا من أهدى وأقام أهلها اياماً يَطعمون ويُطعمون ويتنعمون
وينعمون شكراً لله عز وجل على ما وهبهم من المعونة والتيسير في
بناء بيته الحرام على الصفة التى كان عليها مدة الخليل ابراهيم صلى الله
عليه وسلم فنقضها الحجاج لعنه الله وأعادها على ما كانت عليه مدة
قريش لانهم كانوا اقتصروا في بنائه عن قواعد ابراهيم صلى الله عليه
وسلم وأبقى نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك على حاله لحدثان
عهدهم بالكفر حسب ما ثبت في رواية عائشة رضى الله عنها في موطأ

مالك بن أنس رضى الله عنه وفي اليوم التاسع والعشرين منه وهو يوم
الخميس افرزا البيت للنساء خاصة فاجتمعن من كل أوب وقد تقدم
احتفالهن لذلك بأيام كاحتفالهن للمشاهد الكريمة ولم تبق امرأة بمكة
الا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم فلما وصل الشيبيون لفتح (البيت)
الكريم على العادة أسرعوا فى الخروج منه وأفرجوا للنساء عنه
وأفرج الناس لهن عن الطواف وعن الحجر ولم يبق حول البيت
المبارك أحد من الرجال وتبادر النساء الى الصعود حتى كاد الشيبيون
لايخلصون بينهن عند هبوطهم من البيت الكريم وتسلسل النساء بعضهن
ببعض وتشابكن حتى تواقعن فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهللة وظهر
من تزاحمهن ما ظهر من السر واليمنيين مدة مقامهم بمكة وصعودهم
يوم فتح البيت المقدس وأشبهت الحال وتمادين على ذلك صدرا
من النهار وانفسحن في الطواف والحجر وتشفين من تقبيل الحجر
واستلام الاركان وكان ذلك اليوم عندهن الاكبر ويومهن الازهر
نفعهن الله به وجعله خالصاً لكريم وجهه وبالجملة فهن مع الرجال
مسكينات مغبونات يرين البيت الكريم ولا يلجنه ويلحظن الحجر
المبارك ولا يستلمنه فحظهن من ذلك كله النظر والاسف المستطير
مستشعر فليس لهن سوى الطواف على البعد وهذا اليوم الذى هو
من عام الى عام فهن يرتقبنه ارتقاب أشرف الاعياد ويكثرن له من
التأهب والاستعداد والله ينفعهن في ذلك بحسن النية والاعتقاد بمنه
وكرمه وفي اليوم الثانى منه بكر الشيبيون الى غسله بماء زمزم المبارك

بسبب ان كثيراً من النساء أدخلن أبناءهن الصغار والرضع معهن فيتحري غسله تكريماً وتنزيهاً وازالة لما يحيك من النفوس من هواجس الظنون في من ليست له ملكة عقلية تمنعه من أن تصدر عنه حادثة نجس فى ذلك الموطن الكريم والمحل المخصوص بالتقديس والتعظيم فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والنساء يبادرون اليه تبركا بغسل أوجههم وأيديهم فيه وربما جمعوا منه فى أوان قد أعدوها لذلك ولم يراعوا العلة التى غسل لها وكان منهم من توقف عن ذلك وربما لحظ الحال لحظة من لا يستجيزها ولا يصوب العقل في ذلك وما ظنك بماء زمزم المبارك قد صب داخل بيت الله الحرام وماج في جنبات أركانه الكرام ثم انصب بأزاء الملتزم والركن الاسود المستلم ليس جديراً بأن تتلقاه الافواه فضلا عن الايدى وتغمس فيه الوجوه فضلا على الاقدام وحاشا لله أن تعرض فى ذلك علة تمنع منه أو شبهة من شبهات الظنون ترفع عنه والنيات عند الله تعالى مقبولة والمثابرة على تعظيم حرماته لرضاه موصولة وهو المجزى على الضمائر وخفيات السرائر لا اله سواه

﴿ شهر شعبان المكرم عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلاله ليلة السبت التاسع عشر لشهر نوفمبر وفى صبيحته بكر الامير مكثر الي الطواف على العادة في ذلك رأس كل شهر مع أخيه وبنيه ومن جرى الرسم باستصحابه من القواد والاشياع والاتباع

وعلى الاسلوب المتقدم الذكر والزمزمي يصرخ في مرقبته على عادته متناوباً مع أخيه صغيره وفي سحر يوم الخميس الثالث عشر منه وهو أول يوم من دجنبر بعد طلوع الفجر كسف القمر وبدأ الكسوف والناس فى صلاة الصبح فى الحرم الشريف وغاب مكسوفاً وانتهى الكسوف الى ثلثه والله يعرفنا حقيقة الاعتبار بآياته وفي يوم الجمعة الثاني من ذلك اليوم أصبح بالحرم أمر عجيب وذلك انه لم يبق بمكة صبي الا وصبحه واجتمعوا كلهم في قبة زمزم وينادون بلسان واحد هللوا وكبروا يا عباد الله فيهلل الناس ويكبرون وربما دخل معهم من عرض العامة من ينادي معهم بندائهم والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة لانهم يزعمون بل يقطعون قطعاً جهلياً لا قطعاً عقلياً ان ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان وكانوا على ظن من هلال الشهر لانه قيل انه رؤى ليلة الجمعة فى جهة اليمن فبكر الناس الى القبة وكان فيها من الازدحام مالم يعهد مثله ومقصد الناس فى ذلك التبرك بذلك الماء المبارك الذي قد ظهر فيضه والسُقاء فوق التنور يستقون ويفيضون على رؤس الناس الماء بالدلاء قذفاً فمنهم من يصيبه في وجهه ومنهم من يصيبه فى رأسه الي غير ذلك وربما تمادى لشدة نفوذه من أيديهم والناس مع ذلك يستزيدون ويبكون والنساء من جهة أخرى يساجلنهم بالبكاء ويطارحنهم بالدعاء والصبيان يضجون بالتهليل والتكبير فكان مرأى هائلا ومسموعاً رائعاً لم يتخلص للطائفين بسببه طواف ولا للمصلين صلاة لعلو تلك الاصوات واشتغال الاسماع والاذهان بها

ودخل الى القبة المذكورة أحدنا ذلك اليوم فكابد من لذ الزحام عنتا ومشقة فسمع الناس يقولون زاد الماء سبع أذرع فجعل يقصد الى من يتوسم فيه بعض عقل ونظر من ذوى السبال البيض فيسأله عن ذلك فيقول وأدمعه تسيل نعم زاد الماء سبع أذرع لا شك في ذلك فيقول أعن خبرة وحقيقة فيقول نعم ومن العجيب ان كان منهم من قال انه بكر سحر يوم الجمعة المذكور فألفى الماء قد قارب التنور بنحو القامة فياعجباً لهذا الاختراع الكاذب نعوذ بالله من الفتنة وكان من الاتفاق أن اعتنينا بهذا الامر لغلبة الاستفاضة التى سمعناها فى ذلك واستمرارها مع سوالف الازمنه عند عوام أهل مكة فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه في البئر المباركة الى أن ضرب فى صفح الماء وانتهى الحبل الى حافة التنور وعقد فيه عقداً يصح عندنا القياس به في ذلك الماء كان في صبيحتها وتنادي الناس بالزيادة الزيادة الظاهرة خلص أحدنا فى ذلك الزحام على صعوبته ومعه من استصحب الدلو فأدلاه فوجد القياس على حاله لم ينقص ولم يزد بل كان من العجب أن عاد القياس ليلة السبت فألفاه قد نقص يسيراً لكثرة ما امتاح الناس منه ذلك اليوم فلو امتيح من البحر لظهر النقص فيه فسبحان من خص ذلك الماء بما خص به من البركة ووضع فيه من المنفعة وفي صبيحة يوم السبت الخامس عشر منه شاهدنا القياس استبراء للصحة فألفيناه على ما كان عليه ولو أن لافظاً يلفظ ذلك اليوم بانه لم يزد شيء في البئر صباً أو لداسته الاقدام حتى تذيبه نعوذ بالله من غمرات العوام واعتقاداتها

وركوبها جوامع أهوائها وهذه الليلة المباركة أعنى ليلة النصف من شعبان عند أهل مكة معظمة للأثر الكريم الوارد فيها فهم يبادرون فيها الى أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة أفراداً وجماعة ينقسمون في ذلك فرقاً مباركة فشاهدنا ليلة السبت التى هي ليلة النصف حقيقة احتفالاً عظيماً فى الحرم المقدس أثر صلاة العتمة جعل الناس يصلون فيها جماعات جماعات تراويح يقرؤن فيها بفاتحة الكتاب وبقل هو الله أحد عشر مرات فى كل ركعة الى ان يكملوا خمسين تسليمة بمائة ركعة قد قدمت كل جماعة اماماً وبسطت الحصر وأوقدت الشمع وأشعلت المشاعل وأسرجت المصابيح ومصباح السماء الازهر الاقمر قد أفاض نوره على الارض وبسط شعاعه فتلاقت الانوار في ذلك الحرم الشريف الذي هو نور بذاته فيالك مرأى لا يتخيله المتخيل ولا يتوهمه المتوهم فأقام الناس تلك الليلة على اقسام فطائفة التزمت تلك التراويح مع الجماعة وكانت سبع جماعات أو ثمانيا وطائفة التزمت الحجر المبارك للصلاة على انفراد وطائفة خرجت للاعتمار وطائفة آثرت الطواف على هذا كله أعلمنا الملكية فكانت من الليالى الشهيرة المأمولة أن تكون من غرر القربات ومحاسنها نفع الله بها ولا أخلانا من بركتها وفضلها وأوصل الى هذه المثابة المقدسة كل شيق اليها بمنه وفى تلك الليلة المباركة شاهد احمد ابن حسان منا امراً عجباً هو من غرائب الاحاديث المأثورات في رقة النفوس وذلك انه أصابه النوم عند الثلث الباقى من الليل فآوى الى المصطبة التى تحف بها قبة زمزم مما يقابل الحجر الاسود وباب البيت

فاستلقى فيها لينام فاذا بانسان من العجم قد جلس على المصطبة بأزائه مما يلي رأسه فجعل يقرأ بتشويق وترقيق ويتبع ذلك بزفير وشهيق أحسن قراءة وأوقعها فى النفوس وأشدها تحريكا للساكن فامتنع المذكور من المنام استمتاعا بحسن ذلك المسموع وما فيه من التشويق والتخشيع الى أن قطع القراءة وجعل يقول

ان كان سوء الفعل أبعدنى   فحسن ظنى اليك قربني

ويردد ذلك بلحن يتصدع له الجماد وينشق عليه الفؤاد ومضى فى ترديد ذلك البيت ودموعه تكف وصوته ترق وتضعف الى أن وقع في نفس أحمد بن حسان المذكور انه سيغشي عليه فما كان بين اعتراض هذا الخاطر بنفسه وبين وقوع الرجل مغشياً عليه من المصطبة الى الارض الا كلا ولا وبقى ملقاً كانه لقى لا حراك به فقام ابن حسان مذعوراً لهول ماعاينه متردداً فى حياة الرجل أوموته لشدة تلك الوجبة والموضع من الارض بائن الارتفاع وقام أحد من كان بإزائه نائماً واقاما متحيرين ولم يقدما على تحريك الرجل ولا على الدنو منه الى أن اجتازت امرأة أعجمية وقالت هكذا تتركون الرجل على مثل هذا الحال وبادرت الى شيء من ماء زمزم فنضحت به وجهه ودنا المذكوران منه وأقاماه فعندما أبصرهما زوى وجهه للحين عنهما مخافة أن تثبت له صفة في أعينهما وقام من فوره آخذاً الى جهة باب بنى شيبة وبقيا متعجبين مما شاهداه وعض ابن حسان بنان الاسف على ما فاته من بركة دعائه اذ لم يمكنه الحال استدعائه منه وعلى انه لم تثبت له صورة

في نفسه فكان يتبرك به من لقيه ومقامات هؤلاء الاعاجم فى رقة الانفس وسرعة ومسرعة تفعالها وشدت مجاهداتها في العبادات وطول ملازمتها على قصد البر وظهور بركاتها مقامات عجيبة شريفة والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وفى سحر يوم الخميس الثالث عشر من الشهر المذكور كسف القمر وانتهى الكسوف منه الى مقدار ثلثين وغاب مكسوفاً عند ضوء الشمس والله يلهمنا الاعتبار بآياته

شهر رمضان المعظم عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين التاسع عشر لدجنبر عرفنا الله فضله وحظه ورزقنا القبول فيه وكان صيام أهل مكة له يوم الاحد بدعوى في رؤية الهلال لم تصح لكن أمضى الامير ذلك ووقع الايذان بالصوم بضرب دبادبه ليلة الاحد المذكور لموافقته مذهبه ومذهب شيعته العلويين ومن اليهم لانهم يرون صيام يوم الشك فرضاً حسبما يذكر والله علم بذلك ووقع الاحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك وحق ذلك من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعيل وغير ذلك من الآلات حتى تلألأ الحرم نوراً وسطع ضياء وتفرقت الأئمة لاقامة التراويح فرقاً فالشافعية فوق كل فرقة منها قد نصبت إماماً لها في ناحية من نواحي المسجد والحنبلية كذلك والحنفية كذلك والزيدية وأما المالكية فاجتمعت على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة وهي في هذا العام أحفل جمعاً وأكثر شمعاً لان قوماً من التجار المالكيين تنافسوا في

ذلك فجلبوا لامام الكعبة شمعاً كثيراً من أكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيهما قنطار وقد حفت بهما شمع دونهما صغار وكبار فجاءت جهة المالكية تروق حسناً وترتمي الابصار نوراً وكاد لا يبقى فى المسجد زاوية ولا ناحية الا وفيها قارئ يصلي بجماعة خلفه فيرتج المسجد لاصوات القراءة من كل ناحية فتعاين الابصار وتشاهد الاسماع من ذلك مرأى ومستمعاً تنخلع له النفوس خشية ورقة ومن الغرباء من اقتصر على الطواف والصلاة في الحجر ولم يحضر التراويح ورأى ان ذلك أفضل ما يغتنم وأشرف عمل يلتزم وما بكل مكان يوجد الركن الكريم والملتزم والشافعي في التراويح أكثر الأئمة اجتهاداً وذلك انه يكمل التراويح المعتادة التي هي عشر تسليمات ، يدخل الطواف مع جماعة فاذا فرغ من الاسبوع وركع عاد لاقامة تراويح أخر وضرب بالفرقعة الخطيبية المتقدمة الذكر ضربة (يسمعها) المسجد لعلو صوتها كأنها ايذان بالعود الى الصلاة فاذا فرغوا من تسليمتين عادوا للطواف اسبوع فاذا أكملوا ضربت الفرقعة وعادوا لصلاة تسليمتين ثم عادوا للطواف هكذا الى أن يفرغوا من عشر تسليمات فيكمل لهم عشرون ركعة ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئاً والمتناوبون لهذه التراويح المقامية خمسة أئمة أولهم امام التربية وأوسطهم صاحبه الفقيه الزاهد اورع أبو جعفر بن (علي) الفنكي قرطبي وقراءته ترق الجمادات خشوعاً وهذه الفرقعة المذكورة تستعمل في هذا الشهر المبارك وذلك أنه يضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان المغرب

ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء الآخرة وهي لا محالة من جملة البدع المحدثة في هذا المسجد المعظم قدسه الله والمؤذن الزمزمي يتولى التسحير في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد بسبب قربها من دار الامير فيقوم في وقت السحور فيها داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور ومعه اخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه وقد نصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع وفي طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يقدان مدة التسحير فاذا قرب تبيين خيطي الفجر ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة وبدأ بالاذان وثوب المؤذنون من كل ناحية بالاذان وفي ديار مكة كلها سطوح مرتفعة فمن لم يسمع نداء التسحير ممن يبعد مسكنه من المسجد يبصر القنديلين يقدان في أعلى الصومعة فاذا لم يبصرهما علم أن الوقت قد انقطع وفي ليلة الثلاثاء الثاني من الشهر مع العشي طاف الامير مكثر بالبيت مودعاً وخرج لتلقي الامير سيف الاسلام (طغتكين) ابن أيوب أخي صلاح الدين وقد تقدم خبر وروده من مصر منذ مدة ثم تواتر الى أن صح وصوله الى الينبوع وانه عرج الى المدينة لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقدمت أثقاله الى الصفراء والمتحدث به في وجهته قصد اليمن لاختلاف وقع فيه وفتنة حدثت من امرائها لكن وقع في نفوس المكيين منه ايجاس خيفة واستشعار خشية فخرج هذا الامير المذكور متلقياً ومسلماً وفي الحقيقة مستسلماً والله تعالى يعرف المسلمين خيراً

وفي ضحوة يوم الاربعاء الثالث من الشهر المبارك المذكور كنا جلوساً بالحجر المكرم فسمعنا بادب الامير مكثر وأصوات نساء مكة يولولن عليه فبينا نحن كذلك دخل منصرفاً من لقاء الامير سيف الاسلام المذكور وطائفاً بالبيت المكرم طواف التسليم والناس قد أظهروا الاستبشار لقدومه والسرور بسلامته وقد شاع الخبر بنزول سيف الاسلام الزاهر وضرب أبنيته فيه ومقدمته من العسكر قد وصلت الى الحرم وزاحمت الامير مكثر في الطواف فبينما الناس ينظرون اليهم اذ سمعوا ضوضاء عظيمة وزعقات هائلة فما راعهم الامير سيف الاسلام داخلا من باب بني شيبة ولمعان السيوف أمامهم يكاد يحول بين الابصار وبينهم والقاضي عن يمينه وزعيم الشيبيين عن يساره والمسجد قد ارتج وغص بالنظارة والوافدين والاصوات بالدعاء له ولاخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الاسماع وأذهلت الاذهان والمؤذن الزمزمي في مرقته رافعاً عقيرته بالدعاء له والثناء عليه وأصوات الناس تعلو على صوته والهول قد عظم مرأى ومستمعاً فلحين دنو الامير من البيت المعظم أغمدت السيوف وتضاءلت النفوس وخلعت ملابس العزة وذلت الاعناق وخضعت الرقاب وطاشت الالباب مهابة وتعظيما لبيت ملك الملوك العزيز الجبار الواحد القهار مؤتي الملك من يشاء ونازع الملك ممن يشاء سبحانه جلت قدرته وعز سلطانه ثم تهافتت هذه العصابة الغزية على بيت الله العتيق تهافت الفراش على المصباح وقد نكس أذقانهم الخضوع وبلت سبالهم الدموع وطاف القاضي وزعيم الشيبيين بسيف الاسلام والامير مكثر

قد غمره ذلك الرحمة فأسرع في الفراغ من الطواف وبادر الى منزله
وعند ما ... سيف الاسلام طوف صلى ... انتقام ثم دخل قبة
زمزم فشرب من مائها ثم خرج على باب الصفا الى السعي فابتدأه ماشياً
على قدميه تواضعاً وتذللاً من يجب التواضع له والسيوف مصلوتة
امامه وقد صف الناس من أول المسعى الى آخره سماطين مثل ما
صنعوا ... في الطواف فسعى على قدميه طريقين من الصفا الى المروة
ومنها الى الصفا وهرول بين الميلين الاخضرين ثم قيده الاعياء فركب
وكمل السعي ... وقد حشر الناس ضحي يعني وقتاً ثم عاد هذا الامير
الى المسجد الحرام على حالته من الارهاب والهيبة وهو يتهادى بين بروق
... السيوف ... وقد بدر الشيبيون الى باب البيت المكرم
يفتحونه ولم يكن ... فتحه وضع الكرسي الذي يصعد عليه فرقي
الامير فيه ... زعيم الشيبيين فتح الباب فاذا المفتاح قد سقط من
... وقفة ... مذعور ووقف الامير على
... فتح الباب الكريم ودخل
... وبقي وجوه الاعزاز وأعيانهم
... ذلك الكرسي ... مافتح لامرائهم المقربين فدخلوا
... مقدم سيف الاسلام في البيت الكريم مدة طويلة ثم خرج
... منهم ... من زحام ... وانتظام حتى صاروا
كالعقد المستطيل وقد تصلوا وتسلسلوا فكان يومهم أشبه شيء بأيام
... البيت حسبما تقدم وصفه وركب الامير سيف الاسلام

وخرج الى مضرب ابنيته بالموضع المذكور وكان هذا اليوم بمكة من الايام الهائلة المنظر العجيبة المشهد الغريبة الشان • فسبحان من لا ينقضي ملكه • ولا يبيد سلطانه • لا اله سواه وصحب هذا الامير جملة من حجاج مصر وسواها اغتناماً لطريق البر والامن فوصلوا في عافية وسلامة والحمد لله وفي ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضاً بالحجر المكرم فاذا بأصوات طبول ودبادب وبوقات قد قرعت الاذان وارتجت لها نواحي الحرم الشريف فبينما نحن نتطلع لاستعلام خبرها طلع علينا الامير مكثر وغاشيته الاقربون حوله وهو رافل في حلة ذهب كانها الجمر المتقد يسحب أذيالها وعلى رأسه عمامة شرب رقيق سحابي اللون قد علا كورها على رأسه كانها سحابة مركومة وهي مصفحة بالذهب وتحت الحلة خلعتان من الدبيقي المرسوم البديع الصنعة خلعها عليه الامير سيف الاسلام فوصل بها فرحاً جذلان والطبول والدبادب تشيعه عن امر سيف الاسلام اشارة بتكرمته واعلاماً بمبرة منزله فطاف بالبيت المكرم شكراً لله على ماوهبه من كرامة هذا الامير بعد أن كان أوجس في نفسه خيفة منه والله يصلحه ويوفقه بمنه وفي يوم الجمعة وصل الامير سيف الاسلام للصلاة أول الوقت وفتح له باب البيت الكريم فدخله مع الامير مكثر واقام به مدة طويلة ثم خرجا وتزاحم الناس للدخول تزاحماً أبهت الناظرين حتى أزيل الكرسي الذي يصعد عليه فلم يغن عن ذلك شيئاً وأقاموا على الازدحام في الصعود باشالة بعضهم على بعض وداموا على هذه الحالة الى أن وصل الخطيب فخرجوا لاستماع الخطبه

وأغلق الباب وصلى الامير سيف الاسـلام مع الامير مكثر فى القبة العباسية فلما انقضت الصلاة خرج على باب الصفا وركب الى مضرب أبنيته وفي يوم الاربعاء العشر منه خرج الامير المذكور بجنوده الى اليمن والله يعرف المسلمين في مقدمه خيراً بمنه وهذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين بالحرم الشريف في قيامه وصلاة تراويحه وكثرة الائمة فيه وكل وتر من الليالى العشر الاواخر يختم فيها القرآن فأولها ليلة احدى وعشرين ختم فيها أحد أبناء أهل مكة وحضر الختمة القاضى وجماعة من الاشياخ فلما فرغوا منها قام الصبي فيهم خطيباً ثم استدعاهم أبو الصبي المذكور الي منزله الى طعام وحلواء قد أعدها واحتفل فيهما ثم بعـد ذلك ليلة ثلاث وعشرين وكان المختم فيها أحد أبناء المكيين ذوى اليسار غلاماً لم يبلغ سنه الخمس عشرسنة فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالا بديعا وذلك انه أعدله ثريا مصنوعة من الشمع مغصنة قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة وأعد اليها شمعا كثيرا ووضع في وسط الحرم مما يلى باب بني شيبة المحراب المربع من أعواد مشرجبة قد أقيم على قوايم أربع وربطت فى أعلاه عيدان نزلت منها قناديل وأسرجت فى أعلاها مصابيح ومشاعيل وسمر دائر المحراب كله بمسامير حديد الأطراف غرز فيها الشمع فاستدار بالمحراب كله وأوقدت الثريا المغصنة ذات الفواكه وأمعن الاحتفال فى هذا كله ووضع بمقربة من المحراب منـبر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الالوان وحضر الامام الطفل فصلى التراويح وختم وقد احتشد أهـل

المسجد الحرام اليه رجال و نساء وهو في محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمس المحدق به ثم برز من محرابه رافلا في أفخر ثيابه بهيئة أمامية وسكينة غلامية مكحل العينين مخضوب الكفين الى الزندين فلم يستطع الخلوص الى منبره من كثرة الزحام فأخذه أحد سدنة تلك الناحية في ذراعه حتى ألقاه على ذروة منبره فاستوى مبتسما وأشار على الحاضرين مسلماً وقعد بين يديه قراء فابتدروا القراءة على لسان واحد فلما أكملوا عشراً من القرآن قام الخطيب فصدع بخطبته بحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التذكير والتخشيع وبين يديه في درجات المنبر نفر يمسكون أنوار الشمع في أيديهم ويرفعون أصواتهم بيارب يارب عند كل فصل من فصول الخطبة يكررون ذلك والقراء يبتدرون القراءة في أثناء ذلك فيسكت الخطيب الى أن يفرغوا ثم يعود لخطبته وتمادى فيها متصرفاً في فنون من التذكير وفي أثنائها اعترضه ذكر البيت العتيق كرمه الله فحسر عن ذراعيه مشيراً اليه وأردفه بذكر زمزم والمقام فأشار اليهما بكلتا أصبعيه ثم ختمها بتوديع الشهر المبارك وترديد السلام عليه ثم دعا للخليفة ولكل من جرت العادة بالدعاء له من الامراء ثم نزل وانفض ذلك الجمع العظيم وقد استظرف ذلك الخطيب واستنبل وان لم تبلغ الموعظة من النفوس ما أمل والتذكرة اذا خرجت من اللسان لم تتعد مسافة الآذان ثم ذكر ان للمعينين من ذلك الجمع كالقاضي وسواه خصوا بطعام حفيل وحلوا على عادتهم في مثل هذا المجتمع وكانت لابي الخطيب في تلك

أبنية عقفة واسعة في جميع ما ذكر ثم كانت ليلة خمس وعشرين فكان
ختم فيها الامام الحنفي وقد أعد ابنه لذلك سنه نحو من سن الخطيب
لابن المذكور فكان حتفل الامام الحنفي لابنه في هذه الليلة عظيما
حضر فيه من ريت شمع أربعاً مختلفات الصنعة منها مشجرة مغصنة
مشمولة بأنواع من الرطبة واليابسة ومنها غير مغصنة فصففت أمام
حسبه ونوج خدمه بخشب وألوح وضعت أعلاه وجلل ذلك كله
بسرج ومشاعيل وشمع فستدر أحطيم كله حتى لاح في الهواء كالتاج
العظيم من النور وحضر شمع في أنوار الصفر ووضع المحراب
العودي المشرح محل دائر الاعلى كله شمعاً وأحدق الشمع في
الاطوار به وكذلك هلات من نور ونصب المنبر قبالته مجللا أيضاً
بالكسوة الملونة واحتفل الناس لمشاهدة هذا المنظر النير أعظم من
لاحتفال الاول فختم الصبي المذكور ثم برز من محرابه الى منبره يسحب
ذيل حسن الثواب رتبته منعم فتسور منبره وأشار بالسلام على
الحاضرين وبدء خطبته بسكينة ولين ولسان على حداثة الحياة مبين
فكانت ... ولكنها كانت أوقر من الاولى وأخشع والموعظة
انفع و ... وحضر قراء بين يديه على رسم الاول وفي أثناء
فصول الخطبة يتناوبون ... فيسكت خلال اكمالهم الآية التي
انتزعوها من القرآن ثم يعود في خطبته وبين يديه في درجات المنبر
طائفة من الخدمة يمسكون أتوار الشمع بأيديهم ومنهم من يمسك المجمرة
يسطع بعرف العود الرطب الموضوع فيها مرة بعد أخرى فعند ما

يصل الى فصل من تذكير أو تخشيع رفعوا أصواتهم بيارب يارب يكررونها ثلاثاً أو أربعاً وربما جاراهم في النطاق بعض الحاضرين الى أن فرغ من خطبته ونزل وجرى الامام أثره على الرسم من الاطعام لمن حضر من أعيان المكان اما باستدعائهم الى منزله تلك الليلة أو بتوجيه ذلك الى منازلهم ثم كانت ليلة سبع وعشرين وهي ليلة الجمعة بحساب يوم الاحد فكانت الليلة الغراء والختمة الزهراء والهيبة الموفورة الكملاء والحالة التي تمكن عند الله تعالى في القبول والرجاء وأي حالة توازي شهود ختم القرآن ليلة سبع وعشرين من رمضان خلف المقام الكريم وتجاه البيت العظيم وانها لنعمة تتضاءل لها النعم تضاؤل سائر البقاع للحرم ووقع النظر والاحتفال لهذه الليلة المباركة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة وأقيمت ازاء حطيم أمام الشافعية خشب عظام بائنة الارتفاع موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الاعواد الوثيقة فاتصل منها صف كاد يملك نصف الحرم عرضاً ووصلت بالحطيم المذكور ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على الاذرع المذكورة وعلت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات فكانت الطبقة العليا فيها خشبة مستطيلة مغروزة كلها مسامير محددة الاطراف لاصقا بعضها ببعض كظهر الشيهم نصب عليها الشمع والطبقتان تحتها ألواح مثقوبة ثقباً متصلا وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الانابيب المنبعثة من أسافلها وتدلت من جوانب هذه الالواح والخشب ومن جميع الاذرع المذكورة قناديل كبار وصغار وتخللها أشباه الاطباق المبسوطة من الصفر قد انتظم كل

طبق منها ثلاث سلاسل تقدها في الهواء وخرقت كلها ثقباً ووضعت فيها الزجاجات ذوات الاذنيب من أسفل تلك الاطباق الصفرية لا يزيد منها أنبوب على أنبوب في القد وأوقدت فيها المصابيح فجاءت كأنها موائد ذوات أرجل كثيرة تشتعل نوراً ووصلت بالحطيم الثاني الذي يقابل الركن الجنوبي من قبة زمزم خشب على الصفة المذكورة تصل الى الركن المذكور ووقد المشعل الذي في رأس نخل القبة المذكورة وصففت طرة شباكها شمعاً مما يقابل البيت المكرم وحف المقام الكريم بمحراب من الاعواد المشرجبة المخرمة محفوفة الاعلى بمسامير حديدة الاطراف على الصفة المذكورة جللت كلها شمعاً ونصب عن يمين المقام ويساره شمع كبير الجرم في أنوار تناسبها كبراً وصفت تلك الانوار على الكراسي التي يصرفها السدنة مطالع عند الايقاد وجلل جدار الحجر المكرم كله شمعاً في أنوار من الصفر فجاءت كأنها دائرة نور ساطع وحدقت بالحرم المشاعيل واوقد جميع ما ذكر وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة وقد وضعت بيد كل (واحد) منهم كرة من الخرق مشبعة سليطاً فوضعوها متقدة في رؤس الشرفات وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الاربع فجعلت كل طائفة تباري صاحبتها في سرعة إيقادها فيخيل للناظر ان النار تثب من شرفة الى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمي الابصار وفي أثناء محاولتهم لذلك يرفعون أصواتهم بيارب يارب على لسان واحد فيرتج الحرم لاصواتهم فلما كمل إيقاد الجميع بما ذكر كاد يعشي الابصار

شعاع تلك الانوار فلا تقع لمحة طرف الا على نور تشغل حاسة البصر عن استمالة النظر فيتوهم المتوهم لهول ما يعاينه من ذلك ان تلك الليلة المباركة تنزهت لشرفها عن لباس الظلماء فزينت بمصابيح السماء وتقدم القاضي فصلى فريضة العشاء الآخرة ثم قام وابتدأ بسورة القدر وكان أئمة الحرم في الليلة قبلها قد انتهوا في القراءة اليها وتعطل في تلك الساعة سائر الأئمة من قراءة التراويح تعظيما لختمة المقام وحضروا متبركين بمشاهدتها وقد كان (المقام) المطهر أخرج من موضعه المستحدث في البيت العتيق حسبما تقدم الذكر أولا له فيما سلف من هذا التقييد ووضع في محله الكريم المتخذ مصلى مستورا بقبته التي يصلي الناس خلفها فختم القاضي بتسليمتين وقام خطيباً مستقبل المقام والبيت العتيق فلم يتمكن سماع الخطبة للازدحام وضوضاء العوام فلما فرغ من خطبته عاد الأئمة لاقامة تراويحهم وانفض الجمع ونفوسهم قد استطارت خشوعاً وأعينهم قد سالت دموعاً والانفس قد أشعرت من فضل تلك (الليلة) المباركة رجاء مبشراً بمن الله تعالى بالقبول ومشعراً انها ولعلها ليلة القدر المشرف ذكرها في التنزيل والله عز وجل لا يخلي الجميع من بركة مشاهدتها وفضل معاينتها انه كريم منان لا اله سواه ثم ترتبت قراءة أئمة المقام الخمسة المذكورين أولا بعد هذه الليلة المذكورة بآيات ينتزعونها من القرآن على اختلاف السور تتضمن التذكير والتحذير والتبشير بحسب اختيار كل واحد منهم ورسم طوافهم أثر كل تسليمتين باق على حاله والله ولي القبول من الجميع ثم

كانت ليلة تسع وعشرين منه فكان الختم فيها لسائر أئمة التراويح ملتزمين
لحضور الختمة اثر الختمة ومشاركة منهم للمالكي فتقدم باعداد أعواد
بإزاء محرابه منصوبة على هيئة دائرة محراب مرتفعة عن الارض بدون
القامة معترض على كل عودين منها عود مبسوط فأدير بالشمع أعلاها وأحدق
مقام بتدبير شمع كثير قد تقدم ذكره عند ذكر أول الشهر المبارك
وأحدق أيضاً داخل تلك الدائرة شمع آخر متوسط فكان منظراً
عجيباً ومشهداً من حسن المباهاة منزهاً موقراً رغبة في احتفال
الاجر والثواب ومناسبة لوضع هيئة المحراب اثبات للشمع فيه عوضاً
من الانوار التي من الاحجار وخرجت الحال غريبة في الاختصار خارجة
عن شوب التعاظم والاستكبار داخلة مدخل التواضع والاستصغار
واحتفل جميع المالكية مختمة فتدوبها أئمة التراويح فقضوا صلاتهم
مراعاة كالا يبقى صدورها حنوفاً واستمحالا ثم تقدم أحدهم
امة محموله بين يدى الاشياخ يصدع بخطبة منتزعة من خطبة الصبي
ابن الامام اخي في نسبها ممدة الى الاسماع ثقيلا ختمها على الطباع ثم
[illegible] وحقت للحين من اثافيه ذلك
الشمع [illegible] الشباب ولم يكن في الجماعة من يستحي منه
[illegible] وعناه لله تعالى في ذلك الجزاء والثواب انه سبحانه الكريم
[illegible] ذلك الشهر ذاهبة عنا بسلام جعلنا الله ممن طهر فيها
من الآثام ولا حرمنا من فضل القبول ببركة صومه في جوار الكعبة
[illegible] وختم لنا ولجميع أهل الملة الحنيفية بالوفاة على الاسلام

وأوزعنا حمداً يحق هذه النعمة وشكراً وجعلها للمعاد لنا ذخراً ووفقنا عليها ثواباً من لديه وأجراً يرجي بفضله وكرمه انه لا يضيع لديه أيام اتخذ لصيامها ماء زمزم فطراً انه الحنان المنان لا رب سواه

﴿ شهر شوال المبارك عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلاله ليلة الثلاثاء السادس عشر من يناير عرفنا الله مطلعه ورزقنا الله بركته وهذا الشهر المبارك هو فاتحة أشهر الحج المعلومات وبعده تتصل ثلاث الاشهر الحرم المباركات وكانت ليلة استهلال هلاله من الليالي الحفيلة في المسجد الحرام زاده الله تكريماً جرى الرسم في ايقاد مشاعله وتزيينه وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم وأوقدت الصوامع من الاربع جهات من الحرم وأوقد سطح المسجد الذى في أعلى جبل ابي قبيس وأقام المؤذن الليلة تلك في أعلى سطح قبة زمزم مهللا ومكبراً ومسبحاً وحامداً وأكثر الائمة تلك الليلة احياء وأكثر الناس على مثل تلك خاض بين طواف وصلاة وتهليل وتكبير تقبل الله من جميعهم انه سميع الدعاء كفيل بالرجاء سبحانه لا اله سواه فلما كان صبيحتها وقضى الناس صلاة الفجر لبس الناس أثواب عيدهم وبادروا لاخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام لان السنة جرت بالصلاة فيه دون مصلى يخرج الناس اليه رغبة في شرف البقعة وفضل بركتها وفضل صلاة الامام خلف المقام ومن يأتم به فأول من بكر الشيبيون وفتحوا باب الكعبة المقدسة

وأقام زعيمهم جالساً فى العتبة المقدسة وسائر الشيبيين داخل الكعبة الى أن أحسوا بوصول الامير مكثر فنزلوا اليه وتلقوه بمقربة من باب النبي صلى الله عليه وسلم فانتهي الى البيت المكرم وطاف حوله اسبوعاً والناس قد احتفلوا لعيدهم والحرم قد غص بهم والمؤذن الزمزمي فوق سطح القبة على العادة رافعاً صوته بالثناء عليه والدعاء له متناوباً في ذلك مع أخيه فلما أكمل الامير الاسبوع عمد الى مصطبة قبة زمزم مما يقابل الركن الاسود فقعد بها وبنوه عن يمينه ويساره ووزيره وحاشيته وقوف على رأسه وعاد الشيبيون لمكانهم من البيت المكرم يلحظهم الناس بأبصار خاشعة للبيت غابطة لمحلهم منه ومكانهم من حجابته وسدانته فسبحان من خصهم بالشرف فى خدمته وحضر الامير من خاصته شعراء أربعة فانشدوه واحداً اثر واحد الى أن فرغوا من انشادهم وفى أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة وكان ضحي من النهار فأقبل القاضى الخطيب يتهادى بين رايتيه السوداوين والفرقعة المتقدم ذكرها أمامه وقد صك الحرم صوتها وهو لابس ثياب سواده فجاء الى المقام الكريم وقام الناس للصلاة فلما قضوها رقى المنبر وقد ألصق الى موضعه المعين له كل جمعة من جدار الكعبة المكرمة حيث الباب الكريم شارعاً فخطب خطبة بليغة والمؤذنون قعود دونه فى أدراج المنبر فعند افتتاحه فصول الخطبة بالتكبير يكبرون بتكبيره الى أن فرغ من خطبته وأقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء مسرورين جذلين فرحين بما آتاهم الله من فضله وبادروا الى البيت الكريم فدخلوا بسلام آمنين

مزدحمين عليه فوجاً فوجاً فكان مشهداً عظيماً وجمعا بفضل الله تعالى مرحوماً جعله الله ذخيرة للمعاد كما جعل ذلك العيد الشريف في العمر أفضل الاعياد بمنه وكرمه انه ولي ذلك والقادر عليه وأخـذ الناس عند انتشارهم من مصلاهم وقضاء سنة السلام بعضهم على بعض في زيارة الجبانة بالمعلى تبركاً باحتساب الخطا اليها والدعاء بالرحمة لمن فيها من عباد الله الصالحين من الصدر الاول وسواه رضي الله عن جميعهم وحشرنا في زمرتهم ونفعنا بمحبتهم فالمرء كما قال صلى الله عليه وسلم مع من أحب وفي يوم السبت التاسع عشر منه والثالث لفبراير صعدنا الى مني لمشاهدة المناسك المعظمة بها ولمعاينة منزل أكترى لنا فيها اعداداً للمقام بها أيام التشريق ان شاء الله فألفيناها تملأ النفوس بهجة وانشراحاً مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختطاط عتيقة الوضع قد درست الا منازل يسيرة متخذة للنزول تحف بجانبي طريق كان ميدان انبساطاً وانفساحاً ممتد الطول فأول ما يلقى المتوجه اليها عن يساره وبمقربة منها (مسجد البيعة) المباركة التي كانت أول بيعة في الاسلام عقـدها العباس رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم على الانصار حسب المشهور من ذلك ثم يفضي منه الى (جمرة العقبه) وهي أول مني للمتوجه من مكة وعن يسار المار اليها وهي على قارعة الطريق مرتفعة المتراكم فيها من حصي الجمرات ولولا آيات الله البينات فيهـا لكانت كالجبال الرواسى اذ يجتمع فيها على تعاقب الدهور وتوالي الازمنـة لكن لله عز وجل فيها سر كريم من أسراره الخفيات لا اله سواه

وعليها مسجد مبارك وبها علم منصوب شبه أعلام الحرم التي ذكرناها فيجعلها الرامي عن يمينه مستقبلا مكة شرفها الله ويرمي بها سبع حصيات وذلك يوم النحر بعد طلوع الشمس ثم ينحر أو يذبح ويحلق والحلق حوله والنحر في كل موضع من منى لان منى كلها منحر كما قال صلى الله عليه وسلم وقد حل له كل شيء الا النساء والطيب حتى يطوف طواف الافاضة وبعد هذه الجمرة العقبة موضع (الجمرة الوسطى) ولها أيضاً علم منصوب وبينهما قدر الغلوة ثم بعدها يأتي (الجمرة الاولى) ومسافتها منها كمسافة الاخرى وفي وقت الزوال من ثاني يوم النحر ترمى في الاولى سبع حصيات وفي الوسطى كذلك وفي العقبة كذلك احدى وعشرون حصاة وفي الثالث من يوم النحر في الوقت بعينه كذلك على الترتيب المذكور فتلك اثنان وأربعون حصاة في اليومين وسبع رميت في العقبة يوم النحر وقت طلوع الشمس كما ذكرناه وهي حصيات ... عليه سوى النساء والطيب فتلك تكملة تسع وأربعين حصاة وفي ... ثم ينتقل الحاج الى مكة من ذلك اليوم ... وعشرون كانت ترمي في اليوم الرابع على ... وذلك لاستعجال الحج خوفاً من العرب الشعبيين ... من ... التي المغيرات لآثار السنن فمضى العمل اليوم على سبع وأربعين حصاة وكانت في القديم سبعين والله يهب ... الى منى أول ما يأتي الجمرة الاولى ... ثم جمرة العقبة وفي يوم النحر تكون جمرة العقبة أولى

منفردة بسبع حصيات حسبما تقدم ذكره ولا يشترك معها سواها في ذلك اليوم ثم في اليومين بعده ترجع الآخرة على الترتيب حسبما وصفناه بحول الله عز وجل وبعد الجمرة الاولى يعرج عن الطريق يسيراً ويأتي منحر الذبيح صلى الله عليه وسلم حيث فدى بالذبح العظيم وعلى الموضع المبارك مسجد مبنى وهو بمقربة من سفح ثبير وفي موضع المنحر المذكور حجر قد ألصق بالجدار الذي فيه أثر قدم صغيرة يقال انه أثر قدم الذبيح صلى الله عليه وسلم عند تحركه فلان الحجر له بقدرة الله عزوجل اشفاقاً وحناناً فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويفضى من ذلك الى مسجد الخيف المبارك وهو آخر منى في توجهك أعنى من المعمور منها بالبنيان وأما الآثار القديمة فآخذة الى أبعد غاية أمام المسجد وهذا المسجد المبارك متسع الساحة كأكبر مايكون من الجوامع والصومعة وسط رحبة المسجد وله في القبلة أربعة بلاطات يشملها سقف واحد وهو من المساجد الشهيرة بركة وشرف بقعة وكفى بما ورد في الأثر الكريم من ان بقعته الطاهرة مدفن كثير من الانبياء صلوات الله عليهم وبمقربة منه عن يمين المار في الطريق حجر كبير مسند الى صفح الجبل مرتفع عن الارض يظل ما تحته ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قعد تحته مستظلا ومس رأسه المكرم فيه فلان له حتى أثر فيه تأثيراً بقدر دور الرأس فيبادر الناس لوضع رؤوسهم في ذلك الموضع تبركا واستجارة لها بموضع مسه الرأس المكرم أن لا تمسها النار بقدرة الله عز وجل فلما قضينا معاينة هذه المشاهد الكريمة أخذنا في

الانصراف مستبشرين بما وهبنا الله من فضله في مباشرتها ووصلنا الى مكة قريب الظهر والحمد لله على ما من به وفي يوم الاحد بعده وهو الموفي عشرين لشوال صعدنا الى الجبل المقدس حراء وتبركنا بمشاهدة الغار في أعلاه الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه وهو أول موضع نزل فيه الوحي عليه صلى الله عليه وسلم ورزقنا شفاعته وحشرنا في زمرته وأماتنا على سنته ومحبته بمنه وكرمه لا رب سواه وفي ضحوة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين منه وهو أول السادس من فبراير اجتمع الناس كافة للاستسقاء تجاه الكعبة المعظمة بعد أن ندبهم القاضي الى ذلك وحرضهم على صيام ثلاثة أيام قبله فاجتمعوا في هذا اليوم الرابع المذكور وقد أخلصوا النيات لله عز وجل وبكر الشيبيون ففتحوا الباب المكرم من البيت العتيق ثم أقبل القاضي بين رايتيه السوداوين لابس ثياب البيض وأخرج مقام الخليل ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا ووضع على عتبة باب البيت المكرم وأخرج مصحف عثمان رضي الله عنه من خزانته ونشر بازاء المقام المطهر فكانت دفته الواحدة عليه والثانية على الباب الكريم ثم نودي في الناس بالصلاة جامعة فصلى القاضي بهم خلف موضع المقام المتخذ مصلى ركعتين قرأ في احداهما بسبح اسم ربك الاعلى وفي الثانية بالغاشية ثم صعد المنبر وقد ألصق الى موضعه المعهود من جدار الكعبة المقدسة فخطب خطبة بليغة وآلى فيها الاستغفار ووعظ الناس وذكرهم وخشعهم وحضهم على التوبة والانابة لله عز وجل حتى ترفت دمعها العيون واستنفدت ماءها الشؤن وعلا

الضجيج وارتفع الشهيق والنشيج وحول رداءه وحول الناس أرديتهم
اتباعاً للسنة ثم انفض الجميع راجين رحمة الله عز وجل غير قانطين
منها والله يتلافى عباده بلطفه وكرمه وتمادى استسقاؤه بالناس ثلاثة
أيام متوالية على الصفة المذكورة وقد نال الجهد من أهل الحجاز وأضر
بهم القحط وأهلك مواشيهم الجدب لم يمطروا فى الربيع ولا الخريف
ولا الشتاء الا مطر اطلا غير كاف ولا شاف والله عز وجل لطيف
بعباده غير مؤاخذهم بجرائمهم انه الحنان المنان لا رب سواه وفي يوم
الخميس الرابع والعشرين من شوال صعدنا الى جبل أبي ثور لمعاينة
الغار المبارك الذى أوي اليه النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق
رضى الله عنه حسبما جاء في محكم التنزيل العزيز وقد تقدم ذكر هذا
الغار وصفته أولا فى هذا التقييد وولجناه من الموضع الذى يعسر
الولوج منه على البعض من الناس تبركا بمس بشرة البدن بموضع مسه
الجسم المبارك قدسه الله لان مدخل النبي صلى الله عليه وسلم كان منه
وكان لاحد الصاعدين اليه ذلك اليوم من المصريين موقف خجلة
وفضيحة وذلك انه رام الولوج فيه على ذلك الموضع الضيق فلم يقدر
بحيلة وعاود ذلك مراراً فلم يستطع حتى استوقف الناس ما عاينوه من
ذلك وبكوا به اشفاقاً ولجؤا الى الله عز وجل فى الدعاء فلم يغن ذلك
شيئاً وكان فيهم من هو أضخم منه فيسر الله عليه وطال تعجب الناس
منه واعتبارهم وأعلمنا بعد انفصالنا فى ذلك اليوم بأن هذا الموقف المخجل
لثلاثة أناس في ذلك اليوم بعينه عصمنا الله من مواقف الفضيحة في

الدنيا والآخرة ، هذا الجبل صعب المرتقى جداً يقطع الانفاس تقطيعاً لا يكاد يبلغ منتهاه الا وقد ألقى بالايدي اعياء وكلالا وهو من مكة على مقدار ثلاثة أميال وعلى ذلك القدر هو جبل حراء منها والله تعالى لا يخلينا من بركة هذه المشاهد بمنه وكرمه وطول الغار ثمانية عشر شبراً وسعته احد عشر شبراً في الوسط منه وفي حافتيه ثلثا شبر وعلى الوسط منه يكون الدخول وسعة الباب الثاني المتسع مدخله خمسة اشبار ايضاً لان له بابين حسبما ذكرناه أولا وفي يوم الجمعة بعده وصل السرو يبيون في عدد كثير مؤملين زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وجلبوا ميرة الى مكة على عادتهم فاستبشر الناس بقدومهم استبشاراً كثيراً حتى انهم أقاموه عوض نزول المطر ولطائف الله لسكان حرمه الشريف واسعة انه سبحانه لطيف بعباده لا اله سواه

﴿ شهر ذي القعدة عرفنا الله يمنه وبركته ﴾

استهل هلاله ليلة الاربعاء بموافقة الرابع عشر من شهر فبراير بشهادة ثبتت عند القاضي في رؤيته وأما الاكثر الاغلب من أهل المسجد الحرام فلم يبصروا شيئاً وطال ارتقابهم الى أثر صلاة المغرب وكان منهم من يخيل به فيشير اليه فاذا حققه الاشي عنده نظره وكذب خبره والله اعلم بصحة ذلك وهذا الشهر المبارك ثاني الاشهر الحرم وثاني أشهر الحج اطلع الله هلاله على المسلمين بالامن والايمان والمغفرة والرضوان بعزته ورحمته وفي يوم الاثنين الثالث عشر منه دخلنا مولد النبي صلى الله عليه

وسلم وهو مسجد حفيل البنيان وكان داراً لعبدالله بن عبد المطلب أبي النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم ذكره ومولده صلى الله عليه وسلم صفة صهريج صغير سعته ثلاثة أشبار وفي وسطه رخامة خضراء سعتها ثلثا شبر مطوقة بالفضة فتكون سعتها مع الفضة المتصلة بها شبراً ومسحنا الخدود في ذلك الموضع المقدس الذي هو مسقط لأكرم مولود على الارض ومس لاطهر سلالة وأشرفها صلى الله عليه وسلم ونفعنا ببركة مشاهدة مولده الكريم وبإزائه محراب حفيل القرنصة مرسومة طرته بالذهب وقد تقدم الوصف لهذا كله وهذا الموضع المبارك هو شرقي الكعبة متصل بصفح الجبل ويشرف عليه بمقربة منه جبل أبي قبيس وعلى مقربة منه أيضاً مسجد عليه مكتوب هذا المسجد هو مولد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وفيه تربي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان داراً لأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وكافله ودخلت أيضاً في اليوم المذكور دار خديجة الكبرى رضوان الله عليها وفيها قبة الوحي وفيها أيضاً مولد فاطمة رضي الله عنها وهو بيت صغير مائل للطول وا ولد شبه صهريج صغير وفي وسطه حجر أسود وفي البيت المذكور مولد الحسن والحسين ابنيها رضي الله عنهما لاصق بالجدار ومسقط شلو الحسن لاصق بمسقط شلو الحسين وعليهما حجران مائلان الى السواد كأنهما علامتان للمولدين المباركين الكريمين ومسحنا الخدود في هذه المساقط المكرمة المخصوصة بمس بشرات المواليد الكرام رضوان الله عليهم وفي الدار المكرمة أيضاً مختبأ النبي صلى الله

عليه وسلم شبيه القبة وفيه مقعد فى الارض عميق شبيه الحفرة داخل فى الجدار قليلا وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل المقعد المذكور قيل انه كان الحجر الذى كان غطي النبي صلى الله عليه وسلم عنه خنبائه فى الموضع المذكور صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين وعلى كل واحد من هذه المواليد المذكورة قبة خشب صغيرة تصون الموضع غير ثابتة فيه اذا جاء المبصر لها نحاها ولمس الموضع الكريم وتبرك به ثم أعادها عليه وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر المذكور نفذ أمر الامير مكثر بالقبض على زعيم الشيبيين محمد ابن اسماعيل وانتهاب منزله وصرفه عن حجابة البيت الحرام طهره الله وذلك لهنات نسبت اليه لاتليق بمن نيطت به سدانة البيت العتيق (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) أعاذنا الله من سوء القضاء ونعوذ به من نفوذ الدعاء عليه وفي هذه الايام السالفة من الشهر المذكور توالى شيء من اليمنيين فى رفاق كثيرة بالميرة من الطعام وسواه وضروب لا تحصى من اليابسة فأرغدوا البلد ولولاهم لكان من بعض الجدب وغلاء السعر فى جهد ومشقة فهم رحمة لهذا البلد الامين ثم توجهوا فى زيارة المباركة الى التربة المباركة طيبة مدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصلوا فى أسرع مدة قطعوا الطريق من مكة الى المدينة في يسير أيام ومن صحبهم من الحاج حمد صحبتهم وفي أثناء مقيمهم وصلت مد ثقف أخر منهم للحج خاصة لضيق الوقت عن الزيارة فأقاموا بمكة ووصل الزوار منهم فضاق بهم المتسع فلما كان يوم الاثنين

السابع والعشرين من الشهر المذكور فتح البيت العتيق وتولى فتحه من الشيبيين ابن عم الشيبي المعزول هو أمثل طريقة منه على ما يذكر فازدحم السرو للدخول على العادة فجاؤا بأمر لم يعهد فيما سلف يصعدون أفواجاً حتى يغص الباب الكريم بهم فلا يستطيعون تقدماً ولا تأخراً الى أن يلجوا على أعظم مشقة ثم يسرعون الخروج فيضيق الباب الكريم بهم فينحدر الفوج منهم على المصعد وفوج آخر صاعده فيلتقيه وقد ارتبط بعضهم الى بعض فربما حمل المنحدرون في صدور الصاعدين وربما وقف الصاعدون للمنحدرين وتضاغطوا الى أن يميلوا فيقع البعض على البعض فيعاين النظارة منهم مرأى هائلاً فمنهم سليم وغير سليم وأكثرهم انما ينحدرون وثباً على الرؤس والاعناق ومن أعجب ما شاهدناه في يوم الاثنين المذكور أن صعد بعض من الشيبيين أثناء ذلك الزحام يرومون الدخول الى البيت الكريم فلم يقدروا على التخلص فتعلقوا بأستار حافتي عضادتي الباب ثم ان أحدهم تمسك باحدى الشرائط القنبية الممسكة للاستار الى أن علا الرؤوس والاعناق فوطئها ودخل البيت فلم يجد موطئاً لقدمه سواها لشدة تزاحمهم وتراكمهم وانضمام بعضهم الى بعض وهذا الجمع الذي وصل منهم في هذا العام لم يعهد قط مثله فيما سلف من الاعوام والله الأعمرة المجزية لاله سواه وفي هذا اليوم المذكور الذي هو السابع والعشرون من ذي القعدة شمرت أستار الكعبة المقدسة الى نحو قامة ونصف عن الجدار من الجوانب الاربعة ويسمون ذلك احرامها فيقولون أحرمت الكعبة وبهذه جرت العادة دائما

في الوقت المذكور من الشهر ولا تفتح من حين احرامها الا بعد الوقفة
فكان ذلك التشمير ايذانا بالتشمير للسفر وإيذانا بقرب وقت وداعها
المنتظر فلا جعله الله آخر وداع وقضى لنا اليها بالعودة وتيسير سبيل
الاستطاعة بعزته وقدرته وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين قبل هذا
اليوم المذكور كان دخولنا الى البيت الكريم على حال اختلاس
و [illegible] فرصة وجدت بعض فرجة من الزحام فدخلناه دخول وداع
اذ لا يمكن دخوله بعد ذلك لترادف الناس عليه ولا سيما الاعاجم
[illegible] مع الامير العراقي فانهم يصعدون من [illegible] عليه والبدار
[illegible] والازدحام فيه [illegible] حول [illegible] لمنظرهم وغلظهم
فلا [illegible] لاحد [illegible] فلا [illegible] غير ذلك والله عز وجل لا يجعله
[illegible] ويرزقنا العودة اليه في خير وعافية بمنه ولطيفه
صنعه [illegible] يوم [illegible] الكعبة المذكور قلعت عن موضع المقام المقدس
[illegible] خشبية التي كانت [illegible] ووضعت عوضها قبة الحديد [illegible]
[illegible] كلا فضلا عن
[illegible] هذه المشاهد المقدسة
و [illegible] بمنه وكرمه وفي يوم
الثلاثاء [illegible] المذكور جاء زعيم الشيبيين المعزول
[illegible] ومفتاح الكعبة المقدسة بيده قد أعيد
[illegible] فتح [illegible] وصعد [illegible] سطح المبارك الاعلى بأمراس
[illegible] يوثقونها في [illegible] الحديد [illegible] في السطح ويرسلونها

الى الارض فيربط فيها شبيه محمل من العود ويجلس فيه أحد سدنة البيت من الشيبيين فيصعد به على بكرة معدة لذلك فى أعلى السطح المذكور فيتولى خياطة ما مزقته الريح من الاستار فسألنا عن كيفية صرف هذا الشيبى المعزول الى خطته على صحة الهنات المنسوبة اليه فأعلمنا انه صودر عليها بخمسمائة دينار مكية استقرضها ودفعها فطال التعجب من ذلك والاعتبار وتحققنا ان اظهار النقض عليه لم يكن غيرة ولا أنفة على حرمات الله المنتهكة على يديه مع كونها فى خطة دونها الخلافة رفعة والحال تشبه بعضها بعضا (وان الظالمين بعضهم أولياء بعض) والى الله المشتكى من فساد ظهر حتى فى أشرف بقاع الارض وهو حسبنا ونعم الوكيل وفي يوم الاربعاء التاسع والعشرين من ذى القعدة المذكور دخلنا دار الخيزران التى كان منها منشأ الاسلام وهي بازاء الصفا وبالاصقها بيت صغير عن يمين الداخل اليها كان مسكن بلال رضي الله عنه ويدخل اليها على حلق كبير شبيه الخندق قد احدقت به بيوت للكراء من الحجاج والدار المكرمة دار صغيرة بجرها الداخل اول الخلق المذكور عن يساره وهي مجددة البناء نفق في ابتناء عمارتها من الدين المذكور أثره الكريم ... هذا المكتوب نحو الالف دينار نفعه الله بما أسلفه من العمل الصالح وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه الى قبة كبيرة بديعة البناء فيها مقعد النبى صلى الله عليه وسلم والصخرة التي كان اليها مستنده وعن يمينه موضع أبي بكر الصديق وعن يمين أبي بكر موضع علي بن أبي طالب رضى الله عنهما والصخرة التى كان اليها

مستندة هي داخلة في الجدار كشبه المحراب وفي هذا الدار كان اسلام عمر بن الخطاب ومنها ظهر الاسلام على يديه وأعزه الله به نفعنا الله ببركة هذه المشاهد المكرمة والآثار المعظمة وأماتنا على محبة الذين شرفت بهم وسبت اليهم صلوات الله عليهم أجمعين

﴿ شهر ذي الحجة عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلاله ليلة الخميس بموافقة الخامس عشر من مارس وكان للناس في ارتقابه أمر عجيب • وشأن من البهتان غريب • ونطق من الزور كاد يعارضه من الجماد فضلا عن غيره رد وتكذيب • وذلك انهم ارتقبوه ليلة الخميس الموفى ثلاثين والافق قد تكاثف نوؤه وتراكم غيمه الى أن ظهر مع المغيب بعض حمرة من الشفق فطمع الناس في فرجة من الغيم لعل الابصار تلتقطه فيها فبيناهم كذلك اذ كبر أحدهم فكبر الجم الغفير بتكبيره وقاموا قياماً ينظرون مالا يبصرون ويشيرون الى ما يتوهمون حرصاً منهم على أن تكون الوقفة بعرفات يوم الجمعة كأن الحج لا يتم الا في ذلك اليوم بعينه فاختلقوا شهادات زورية ومشت منهم طائفة من المغاربة أصلح الله أحوالهم ومن أهل مصر وأربابها فشهدوا عند القاضي برؤيته فردهم أقبح رد وجرح شهاداتهم أسوأ تجريح وفضحهم في تزييف أقوالهم أخزى فضيحة وقال يالعجب لو أن أحدهم يشهد برؤيته الشمس تحت ذلك الغيم الكثيف النسج لما قبلته فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين ليلة وكان أيضاً مما

حكي من قوله تشوشت الغارب تعرضت شعرة من الحاجب فأبصروا خيالا ظنوه هلالا وكان لهذا القاضي جمال الدين في أمر هذه الشهادة الزورية مقام من التوقف والتحري حمده له أهل التحصيل وشكره عليه ذوو العقول وحق لهم ذلك فانها مناسك الحج للمسلمين عظيمة أتوا لها من كل فج عميق فلو تسومح فيها بطل السعي وفال الرأى والله يرفع الالتباس والبأس بمنه فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة ظهر الهلال أثناء فرج السحاب وقد اكتسى نوراً من الثلاثين ليلة فزعقت العامة زعقات هائلة وتنادت بوقفة الجمعة وقالت الحمد لله الذي لم يخيب سعينا ولا ضيع قصدنا كأنهم قد صح عندهم ان الوقفة اذا لم تكن توافق يوم الجمعة ليست مقبولة ولا الرحمة فيها من الله مرجوة مأمولة تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ثم انهم يوم الجمعة المذكور اجتمعوا الى القاضي فأدوا شهادات بصحة الرؤية تبكي الحق وتضحك الباطل فردها وقال يا قوم حتى م هذا التمادي في الشهوة والى م تستمرون في طرق الهفوة وأعلمهم انه قد استأذن الامير مكثر في أن يكون الصعود الى عرفات صبيحة يوم الجمعة فيقفوا عشية بها ثم يقفوا صبيحة يوم السبت بعده ويبيتوا ليلة الاحد بمزدلفة فان كانت الوقفة يوم الجمعة فما عليهم في تأخير المبيت بمزدلفة بأس اذ هو جائز عند أئمة المسلمين وان كانت يوم السبت فبها ونعمت وأما أن يقع القطع بها يوم الجمعة فتغرير بالمسلمين وافساد لمناسكهم لان الوقفة يوم التروية عند الائمة غير جائزة كما انها عندهم جائزة يوم النحر فشكر جميع من حضر للقاضي هذا

المنزع من التحقيق ودعوا له وأشهر من حضر من العامة الرضى بذلك وانصرفوا عن سلام والحمد لله على ذلك وهذا الشهر المبارك هو ثالث الاشهر الحرم وعشرة الاولى مجتمع الامم وموسم الحج الاعظم شهر العج والثج ... وفود الله من كل أوب وفج ... الرحمة والبركات و... وقت الأعظم بعرفات جعلنا الله ممن فاز فيه بالحسنات وتعرى به من ملابس الاوزار والسيئات ... وكرمه انه أهل التقوى واهل المغفرة ولا ... لكشف هذا الالباس عن الناس في أمر علال اهله ... فيه ان شاء الله وفي سائر هذه الايام كلها التي هي ... ووفق ... وسائر حجج الآفاق لا يحصى عددها ... أرزاقها لا اله سواه فمن الآيات البينات ... هذا البلد الامين الذي هو بطن ... المدن العظيمة حتى علي هذا الجمع ... مما تختص به من الآيات البينات ... شبهتم العلماء حقيقة بأنها ... وكذلك عرفات وسائر المشاهد ... ورزانة الرحمة في بكرمه وفضله ... الامير بكرة وعشية وفي أوقات ... الي يوم الصعود الى عرفات ... الاثنين الخامس أو الرابع من هذا الشهر ... تخرج منها فارا أمام سيف الاسلام

للتوجه الي اليمن وركب البحر في جلاب كثيرة مشحونة بأحوال عظيمة وأموال لا تحصى كثرة لانه طال مقامه في تلك الولاية واتسع كسبه وعند خروجه من البحر بموضع يعرف بالصر لحقت جلبه حراريق الامير سيف الاسلام فأخذت جميع ما فيها من الاثقال وكان قد استصحب الخف النفيس الخطير مع نفسه الي البر وهو في جملة من رجاله وعبيده فسلم به ووصل مكة بعير موقرة متاعاً ومالا دخلت على أعين الناس الي داره التي ابتناها بها بعد أن قدم نفيس ذخائره وناض ماله وجملة رقيقه وخدمه ليلاً وبالجملة فحاله لا توصف كثرة واتساعاً والذي انتهب له أكثر لانه كان في ولايته يوصف بسوء السيرة مع التجار وكانت المنافع التجرية كلها راجعة اليه والذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلة الى يديه فاكتسب سحتاً عظيماً وحصل على كنوز قارونية لكن حوادث الايام قد ابتدأت بالخسف به ولا يدري حال أمره مع صلاح الدين ما يكون والدنيا متنية محببا وآكلة بنيها وثواب الله خير ذخيرة وطاعته أشرف غنيمة لا اله سواه وبقيت الشهادة مضربة في أمر هذا الهلال المبارك الميمون الي أن تواصلت الاخبار برؤيته ليلة الخميس الذي يوافق الخامس عشر من مارس شهد بذلك ثقات من أهل الزهد والورع يمنيون وسواهم من الواصلين من المدينة المكرمة لكن بقي القاضي على ثباته وتوقفه في القبول وارجأ الامر الى وصول المبشر المعلم بوصول الامير العراقي بيتعرف من قبله ما عند أمير الحاج في ذلك فلما كان يوم الاربعاء السابع من الشهر المذكور وصل المبشر وكانت نفوس

أهل مكة قد أوحست خيفة لبطشه حذراً من حقد الخليفة على أميرهم مكثر لذمومه فعل صدر عنه فكان وصول هذا البشير أماناً وتسكيناً للنفوس الشاردة فوجس به شر ومؤنساً وأعلم برؤية الهلال ليلة الخميس المذكور وتواترت الانباء بذلك فصح الامر عند القاضي ذلك صحة ووجبت خطبته في ذلك اليوم على ماجرت به العادة في اليوم السابع من ذي الحجة اثر صلاة الظهر علم الناس فيها مناسكهم ثم أعلمهم أن غدهم هو يوم الصعود الى منى وهو يوم التروية وان وقفهم يوم الجمعة وأن الاثر الكريم فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها تعدل سبعين وقفة ففضل هذه الوقفة في الاعوام كفضل يوم الجمعة على سائر الايام فلما كان يوم الخميس بكر الناس بالصعود الى منى وتمادوا منها الى عرفات وكانت السنة المبيت بها لكن ترك الناس ذلك اضطراراً بسبب خوف بني شعبة المغيرين على الحجاج في طريقهم الى عرفات وصدر عن هذا الامير عثمان المتقدم ذكره في ذلك اجتهاد بل جهاد يرجى له به المغفرة لجميع خطاياه ان شاء الله وذلك انه تقدم بجميع أصحابه شاكين في الاسلحة الى المضيق الذي بين مزدلفة وعرفات وهو موضع يحصر الطرق فيه بين جبلين فينحدر الشعبيون من أحدهما وهو الذي عن يسار المار الى عرفات فينهبون الحاج انتهاباً فضرب هذا الامير قبة من ذلك المضيق بين الجبلين بعد أن قدم أحد أصحابه فصعد الى رأس الجبل بفرسه وهو جبل كؤود فعجبنا من شأنه وأكثر التعجب من أمر الفرس وكيف تمكن له الصعود الى ذلك المرتقى

الصعب الذى لا يرتقيه ٠٠٠٠٠٠ فأمن جميع الحاج بمشاركة هذا الامير لهم فحصل على أجرين أجر جهاد وحج لان تأمين وفد الله عز وجل في مثل ذلك اليوم من أعظم الجهاد واتصل صعود الناس ذلك اليوم كله والليلة كلها الى يوم الجمعة كله فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصي عدده الا الله عز وجل ومزدلفة بين منى وعرفات من منى اليها ما من مكة الى منى وذلك نحو خمسة أميال ومنها الى عرفات مثل ذلك أو أشف قليلا وتسمى المشعر الحرام وتسمى جمعاً فلها ثلاثة أسماء وقبلها بنحو الميل وادي محسر وجرت العادة بهرولة فيه وهو حد بين مزدلفة ومنى لانه معترض بينهما ومزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء في زمان زبيدة رحمها الله وفي وسط ذلك البسيط من الارض حلق في وسطه قبة في أعلاها مسجد يصعد اليه على أدراج من جهتين يزدحم الناس في الصعود اليه والصلاة فيه عند مبيتهم بها وعرفات أيضاً بسيط من الأرض مد البصر لو كان محشراً للخلائق لوسعهم يحدق بذلك البسيط الافيح جبال كثيرة وفي آخر ذلك البسيط جبل الرحمة وفيه وحوله موقف الناس والعلمان قبله بنحو الميلين فما امام العلمين الى عرفات حل وما دونهما حرم وبمقربة منهما مما يلى عرفات بطن عرنة الذى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه في قوله صلى الله عليه وسلم عرفات كلها موقف وارتفعوا عن بطن عرنة فالواقف فيه لا يصح حجه فيجب التحفظ من ذلك لان الجاهلين عشية الوقفة ربما استحثوا

كثيراً من الحاج وحذروهم الزحمة فى النفر واستدرجوهم بالعلمين الذين أمامهم الى أن يصلوا بهم بطن عرنة أو يجيزوه فيبطلوا على الناس حجهم ومنعتند لاينفر من الموقف حتى يتمكن سقوط القرصة من الشمس وجبل رحمة المذكور منقطع عن الجبال قائم في وسط البسيط وهو كله حجارة منقطعة بعضها عن بعض وكان صعب المرتقى فأحدث فيه جمال الدين المذكورة مآثره فى هذا التقييد ادراجاً وطية من أربع جهاته يصعد فيها بالدواب الموقورة وأنفق فيها مالا عظيما وفي أعلى الجبل قبة تنسب الى أم سلمة رضي الله عنها ولا يعرف صحة ذلك وفي وسط القبة مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدق به فسيح الساحة جميل المنظر يشرف منه على بسيط عرفات وفي جهة القبلة منه جدار وقد نصبت فيه محاريب يصلى الناس فيها وفى أسفل هذا الجبل المقدس عن يسار المستقبل للقبلة فيه دار قديمة البنيان في أعلاها غرف لها طيقان تنسب الى آدم صلى الله عليه وسلم وعن يسار [illegible] في استقبال القبلة الصخرة التي كان عندها موقف النبي صلى الله عليه وسلم وهي في جبل متطأمن وحول جبل رحمة و[illegible] صهاريج للماء وجباب وعن يسار الدار أيضاً [illegible] منها [illegible] وبقربة من العلمين عن يسار مستقبل القبلة مسجد قديم فسيح [illegible] منه الجدار القبلي ينسب الى ابراهيم صلى الله عليه وسلم فيه يخطب الخطيب يوم الوقفة ثم يجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلمين أيضاً في استقبال القبلة وادى الاراك وهو

أراك أخضر يمتد في ذلك البسيط مع البصر امتداداً طويلا فتكامل جمع الناس بعرفات يوم الخميس وليلة الجمعة كلها وفي نحو الثلث الباقي من ليلة الجمعة المذكورة وصل أمير الحاج العراقي فضرب أبنيته في البسيط الافيح مما يلي الجانب الايمن من جبل الرحمة في استقبال القبلة والقبلة في عرفات هي الى مغرب الشمس لان الكعبة المقدسة في تلك الجهة منها فأصبح يوم الجمعة المذكور في عرفات جمع لا شبيه له الا الحشر لكنه ان شاء الله تعالى حشر للثواب مبشر بالرحمة والمغفرة يوم الحشر للحساب زعم المحققون من الاشياخ المجاورين انهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعاً أحفل منه ولا أرى كان من عهد الرشيد الذي هو آخر من حج من الخلفاء جمع في الاسلام مثله جعله الله جمعاً مرحوماً معصوماً بعزته فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور وقف الناس خاشعين باكين والى الله عز وجل في الرحمة متضرعين والتكبير قد علا وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع فما رؤي يوم أكثر مدامع ولا قلوباً خواشع ولا أعناقاً لهيبة الله خوانع خواضع من ذلك اليوم فما زال الناس على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم الى أن سقط قرصها وتمكن وقت المغرب وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين ووقفوا بمقربة من الصخرات عند المسجد الاصغر المذكور وأخذ السرو اليمنيون مواقفهم بمنازلهم المعلومة لهم في جبل عرفات المتوارثة عن جد فجد من عهد النبي صلى الله عليه وسلم لا تتعدى قبيلة على منزل أخرى وكان المجتمع منهم في هذا العام عدداً لم يجتمع قط مثله وكذلك وصل

الامير العراقي في جمع لم يصل قط مثله ووصل معه من أمراء الاعاجم الخراسانيين ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين واحدتهن خاتون ومن السيدات ست لامراء كثير ومن سائر العجم عدد لا يحصى فوقف جميع وقد جعلوا قدوتهم في النفر الامام المالكي لان مذهب مالك رضي الله عنه يقتضي أن لا ينفر حتى تمكن سقوط القرصة وتحين وقت المغرب ومن السرو يين من نفر قبل ذلك فلما أن حان الوقت أشار الامام المالكي بيديه ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعاً ترتجت له الارض ورجفت الجبال فياله موقفاً ما أهول مرآه وأرجى في النفوس عقباه جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وتغمده بنعماه أنه منعم كريم حنان منان وكانت محلة هذا الامير العراقي جميلة النظر بهية العدة رائقة المضارب والابنية عجيبة القباب والاروقة على هيآت لم ير أبدع منها منظراً فأعظمها مرأى مضرب الامير وذلك انه احدق به سرادق كالسور من كتان كأنه حديقة بستان أو زخرفة بنيان وفي داخله مضارب مستديرة وهي كلها سواد في بياض مرقشة ملونة كأنها أزاهير رياض وقد جللت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الاربعة كلها أشكال درقية من ذلك السواد منزل في البياض يستشعر الناظر اليها مهابة يخيلها درقاً لمطية قد جللتها مزخرفات الاغشية ولهذا السرادق الذي هو كالسور مداخل وأبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها الى دهاليز ومعاريج ثم يفضي منها الى الفضاء الذي فيه القباب وكأن هذا الامير ساكن في مدينة قد احدق بها سورها تنتقل بانتقاله

وتنزل بنزوله وهي من الابّهات الملوكية المعهودة التي لم يعهد مثلها عند
ملوك المغرب وداخل تلك الابواب حجّاب الامير وخدمه وحاشيته
وهي أبواب مرتفعة بمجيء الفارس برايته فيدخل عليها دون تنكيس
ولا تطأطؤ قد أحكمت اقامة ذلك كله أحواش وثيقة من الكتان
يتصل بأوتاد مضروبة أدير ذلك كله بتدبير هندسى غريب ولسائر
الامراء الواصلين صحبة هذا الامير مضارب دون ذلك لكنها على تلك
الصفة وقباب بديعة المنظر عجيبة الشكل قد قامت كأنها التيجان المنصوبة
الي ما يطول وصفه ويتسع القول فيه من عظيم احتفال هذه المحلة
في الآلة والعدة وغير ذلك مما يدل على سعة الاحوال وعظيم
الاحراف في المكاسب والاموال ولهم أيضاً في مراكبهم على الابل قباب
تظلهم بديعة المنظر عجيبة الشكل قد نصبت على محامل من الاعواد
يسمونها القشاوات وهي كالتوابيت المجوفة هي لركابها من الرجال
والنساء كالأمهدة للاطفال علا بالفرش الوثيرة ويقعد الراكب فيها
مستريحاً كأنه فى مهاد لين فسيح وبأزاءه معاد له أو معادلته فى مثل
ذلك من الشقة الاخرى والقبة مصروفة عليهما فيسار بهما وهما نائمان
لا يشعرن أو كيف ما أحبا فعند ما يصلان الى المرحله التي يحطان
بها ضرب سرادقها للحين ان كانا من أهل الترفة والتنعم فيدخل بهما
الى السرادق وهما راكبان وينصب لهما كرسي ينزلان عليه فينتقلان
من ظل قبة المحمل الى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ولا خطفة
شمس تصيبهما وناهيك من هذا الترفيه فهؤلاء لا يلقون لسفرهم وان

بلغت شقته نصباً ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً ودون
هؤلاء في الراحة راكبو المحارات وهي شبيهة الشقادف التي تقدم
وصفها في ذكر صحراء عيذاب لكن الشقادف أبسط وأوسع وهذه
أضم وأضيق وعليها أيضاً ظلالات تقي حر الشمس ومن قصرت حاله
عنها في هذه الاسفار فقد حصل على نصب السفر الذي هو قطعة من
العذاب (ثم يرجع القول) الى استيفاء حال النفر عشية الوقفة المذكورة
بعرفات وذلك ان الناس نفروا منها بعد غروب الشمس كما تقدم الذكر
فوصلوا مزدلفة مع العشاء الآخرة فجمعوا بها بين العشاءين حسبما
جرت به سنة النبي صلى الله عليه وسلم واوقد المشعر الحرام تلك الليلة
كله مشاعيل من الشمع المسرج وأما مسجده المذكور فعاد كله نوراً
فيخيل للمتطلع اليه ان كواكب السماء كلها نزلت به وعلى هذه الصفة
كان جبل الرحمة ومسجده ليلة الجمعة لان هؤلاء الاعاجم الخراسانيين
وسواهم من العراقيين أعظم الناس همة في استجلاب هذا الشمع والاستكثار
منه للتباهي بمشاهده الكريمة وعلى هذه الصفة عاد الحرم بهم مدة
مقامهم فيه يجيء منهم كل انسان بشمعة في يده وأكثر ما يقصدون
بذلك حطيم الامام الحنفي لانهم على مذهبه وشاهدنا منه شمعاً عظيماً
حمله منهم هذه الشمعة منه بلغت كأنه السرو وضع أمام الحنفي
فبات الناس بهذا المشعر الحرام هذه الليلة وهي ليلة السبت فلما صلوا الصبح
غدوا منه الى منى بعد الوقوف والدعاء لان مزدلفة كلها موقف الا
وادي محسر ففيه تقع الهرولة في التوجه الى منى حتى يخرج عنه ومن

مزلفـة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وهو المستحب ومنهم من يلتقطها حول مسجد الخيف بمنى وكل ذلك واسع فلما انتهى الناس الى منى بادروا لرمي جمرة العقبة بسبع حصوات ثم نحروا أو ذبحوا وحلوا من كل شئ الا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الافاضة ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ثم توجه أكثر الناس لطواف الافاضة ومنهم من أقام الى اليوم الثاني ومنهم من أقام الى اليوم الثالث وهـو يوم الانحدار الى مكة فلما كان اليوم الثانى من يوم النحر عند زوال الشمس رمى الناس بالجمرة الاولى سبع حصيات وبالجمرة الوسطى كذلك وبهاتين الجمرتين يقفون للدعاء وبجمرة العقبة كذلك ولا يقفون بها اقتداء فى ذلك كله بفعل النبى صلى الله عليه وسلم فتعود جمرة العقبة فى هذين اليومين أخيرة وهى يوم النحر أولى منفردة لا يخلط معها سواها وفى اليوم الثانى من يوم النحر بعد رمي الجمرات خطب الخطيب بمسجد الخيف ثم جمع بين الظهر والعصر وهذا الخطيب وصل مع الامير العراقى متقدماً من عند الخليفة للخطبة والقضاء بمكة على ما ذكر ويعرف بتاج الدين وظاهر أمره البلادة والبله لان خطبته أعربت عن ذلك ولسانه لا يقيم الاعراب فلما كان اليوم الثالث تعجل الناس فى الانحدار الى مكة بعد أن كمل لهم رمى تسع واربعين جمرة سبع منها يوم النحر بالعقبة وهي المحللة ثم احدى وعشرون في اليوم الثانى بعد زوال الشمس سبعا سبعا في الجمرات الثلاث وفي اليوم الثالث كذلك ونفروا الى مكة فمنهم من صلى العصر بالابطح ومنهم من

صلاها بالمسجد الحرام ومنهم من تعجل فصلى الظهر بالابطح ومضت السنة قديماً بإقامة ثلاث أيام بعد يوم النحر بمنى لاكمال رمي سبعين حصاة فوقع التعجيل في هذا الزمان في اليومين كما قال الله تبارك وتعالى (فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه) وذلك مخافة بني شعبة ومن يعضدهم من حرامية المكيين وقد كانت في يوم الانحدار المذكور بين سودان اهل مكة وبين الاتراك العراقيين جولة وهوشة وقعت فيها جراحات وسلت السيوف وفوقت القسي ورميت السهام وانتهب بعض امتعة التجار لان منى في تلك الايام الثلاثة سوق من أعظم الاسواق يباع فيها من الجوهر النفيس الى أدنى الخرز الى غير ذلك من الامتعة وسائر سلع الدنيا لانها مجتمع أهل الآفاق فوقى الله شر تلك الفتنة تسكيناً لها سريعاً وكانت عين الكمال في تلك الوقفة الهنيئة وكمل للناس حجهم والحمد لله رب العالمين وفي يوم السبت يوم النحر المذكور سيقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الامير العراقي الى مكة على أربعة جمال تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية والرايات على رأسه والطبول تهدر وراءه وابن عم الشيبي محمد بن اسماعيل معها لانه ذكر ان أمر الخليفة نفذ بعزله عن حجابة البيت لهنات اشتهرت عنه والله يطهر بيته المكرم بمن يرضى من خدمه بمنه وهذا ابن العم المذكور هو أشبه طريقة منه وأمثل حالاً وقد تقدم ذكر ذلك في العزلة الاولى فوضعت الكسوة في السطح المكرم أعلى الكعبة فلما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور اشتغل الشيبيون بأسبالها خضراء يانعة

يقيد الابصار حسناً فى أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب فيه في الصفح
الموجه الى المقام الكريم حيث الباب المكرم وهو وجهها المبارك بعد
البسملة (أن أول بيت وضع للناس) الآية وفى سائر الصفحات اسم الخليفة
والدعاء له ونحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صغار بيض
فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن وذكر الخليفة أيضاً
فكملت كسوتها وشمرت أذيالها الكريمة صوناً لها من أيدى الاعاجم
وشدة اجتذابهم وقوة تهافتهم عليها وانكبابهم فلاح للناظرين منها أجمل
منظر كأنها عروس جليت فى السندس الاخضر أمتع الله بالنظر اليها
كل مشتاق الى لقائها حريص على المثول بفنائها بمنه وفى هذه الايام يفتح
البيت الكريم كل يوم للاعاجم العراقيين والخراسانيين وسواهم من
الواصلين مع الامير العراقى فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب
الكريم ووصول بعضهم على بعض وسباحة بعضهم على رؤس بعض
كانهم في غدير من الماء أمر لم ير أهول منه يؤدى الى تلف المهج
وكسر الاعضاء وهم في خلال ذلك لايبالون ولا يتوقفون بل يلقون
بأنفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح القاء الفراش
بنفسه على المصباح فعادت أحوال السرو اليمنيين فى دخولهم البيت
المبارك على الصفة المتقدمة الذكر حال تؤدة ووقار بالاضافة الى هؤلاء
الاعاجم الاغنام نفعهم الله بنياتهم وقد فقد منهم في ذلك المزدحم
الشديد من دنا أجله والله يغفر للجميع وربما زاحمهم فى تلك الحال
بعض نسائهم فيخرجن وقد نضحت جلودهن طبخاً في مضيق ذلك

للمتزايد الذي حي بأنفاس الشوق وطيشه والله ينفع الجميع بمعتقده وحسن مقصده بعزته وفي ليلة الخميس الخامس عشر من الشهر المبارك أثر صلاة العتمة نصب منبر الوعظ أمام المقام فصعده واعظ خراسانى البشرة مليح الاشارة يجمع بين اللسانين عربي وعجمى فأتى في الحالين بسحر حلال من بيان فصيح ينطق بارع الالفاظ ثم يقلب لسانه الاعجم ... ضطرابا بين أيديهم زفرات وانعى ما فلما كانت الليلة الاخرى ... وضع منبره آخر خلف حطيم الحنفي فصعده أثر صلاة العتمة أيضا شيخ أبيض السبال رائع الجلال بارع التمام في الفصل والكمال فصدع بخطبة ... آية الكرسي كلمة كلمة ثم تصرف في أساليب من وعظ وفنون من العلم بأسنانين يحرك بها القلوب حتى أطارها ... بخشية بعد ... وفي أثناء ذلك ترشقه سهام من ... من الجواب سريع البليغ فتحار له الالباب ... والذي ... من الشرقية من ... اليهم وافاضة ... عن غريب شأنهم ... انما هي في فنون شتى ... وبجواب كخطفة البرق وارتداد ... وبين أيدى هؤلاء الوعاظ ... تكسب الجماد طرباً وأريحيه ... فلا ... من أحوال هذا المجتمع تعجب

والله يؤتي الحكمة من يشاء لا اله سواه وسمعت هذا الشيخ الواعظ
يسند الحديث الى خمسة من أجداده جداً عن جد نسقاً مسلسلا من أبيه
اليهم على اتصال كلهم له لقب يدل على منزلته من العلم ومكانته من
التذكير والوعظ فهو معرق في الصنعة الشريفة تليد المجد فيها وفي
أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام نزهه الله وشرفه سوقاً عظيمة
يباع فيه من الدقيق الى العقيق ومن البر الى الدر الى غير ذلك من
السلع فكان مبيع الدقيق بدار الندوة الى جهة باب الشيبة ومعظم
السوق في البلاط الآخذ من الغرب الى الشرق وفي البلاط الآخذ
من الشمال الى الشرق وفي ذلك من النهي الشرعي ما هو معلوم والله
غالب على أمره لا اله سواه وفي عشي يوم الاحد الموفي عشرين من
الشهر المذكور وهو أول ابريل كان تبريزنا الى محلة الامير العراقي
بالزاهر وهو على نحو من الميلين من البلد وقد كل كثير ... وصل
وهو امامه بغداد بعشرة أيام عرفنا الله الخير والخيرة فأقمنا بالزاهر
ثلاثة أيام نجدد العهد كل يوم بالبيت العتيق ونعيد وداعه فلما كان
ضحوة يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة المذكور اقلعت
المحلة على تؤدة ورفق بسبب البطء والتأخر ونزلت على نحو ثمانية
أميال من موضع الذي أقلعت منه بمقربة من بطن مر والله الكفيل
بالسلامة والعصمة بمنه فكانت مدة مقامنا بمكة ... من يوم وصولنا
اليها وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر سنة تسع وسبعين
الى يوم اقلاعنا من الزاهر وهو يوم الخميس الثاني والعشرين لذي الحجة

من السنة المذكورة ثمانية أشهر وثلث شهر التي هي بحسب الزائد والناقص من الأشهر مائتا يوم واثنتان وخمسة وأربعون يوما سعيدات مباركات جعلها الله تعالى وجعلنا القبول فيها موافقا لمرضاته بمنه فغبنا عن رؤية البيت الكريم فيها ثلاثة أيام يوم عرفة وثانى يوم النحر ويوم الاربعاء الذي هو الحادي والعشرون لذى الحجة قبل يوم الخميس يوم الاقلاع من الحرم والله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم بمنه ثم اقلعنا من ذلك الموضع اثر صلاة الظهر من يوم الخميس الى بطن مر وهو واد خصيب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة الماء تسقى منها ارض تلك الناحية وعلى هذا الوادى قطر متسع وقري كثيرة وعيون ومنه تجلب الفواكه الى مكة حرسها الله فأقمنا به يوم الجمعة لسبب عجيب وهو أن في مكة خاتون بنت الامير مسعود ملك الدروب والارمن وما يليها من البلاد وهي احدى الخواتين الثلاث الاتي وصلن للحاج مع امير الحاج المذكور مكرمة مشتكين مولى امير المؤمنين الموجه كل عام من قبل الخليفة وقد تولى هذه الخطة نحو الثمانية أعوام أو أزيد وهذه الخاتون هي أهم الخواتين قدرا بسبب سعة مملكة أبيها والمقصود من ذكرها انها سرت من بطن مر ليلة الجمعة الى مكة في خاصة من حشمها وخدمها فتفقدت موضعها يوم الجمعة المذكور فوجه الامير نقاته من خاصة نحوه يستطلعونها في الانصراف وأقام بالناس منتظراً لها فوصلت ثانى يوم السبت وعللت في سبب انصراف هذه الملكة المترفة

قداح الظنون وسلت الخواض على استخراج سرها المكنون فمنهم من يقول انها انصرفت انفة لبعض ما انتقدته على الامير ومنهم من قال ان نوازع الشوق للمجاورة عطفت بها الى المثابة المكرمة ولا يعلم الغيب الا الله وكيف ما كان الامر فقد كفى الله المعطلة بسببها واطلق سبيل الحاج ولله الحمد على ذلك وأبو هذه المرأة المذكورة الامير مسعود كما ذكرناه وهو فى بسطة من ملكه واتساع من امرته يركب له على ما حقق عندنا أكثر من مائة ألف فارس وصهره عليها نور الدين صاحب آمد وما سواها ويركب له أيضاً نحو اثنا عشر ألف فارس وللخاتون هذه أفعال من البر كثيرة فى طريق الحاج منها سقى الماء للسبيل سبيا عينت لذلك نحو الثلاثين ناضحة ومثلها للزاد واستجلبت ما تختص به من الكسوه والازودة وغير ذلك نحو المائة بعير وأمرها يطول وصفه وسنها نحو خمسة عشرين عاما والخاتون الثانيه أم معز الدين صاحب الموصل زوج بابك أخي نور الدين الذى كان صاحب الشام رحمه الله ولهذه أفعال كثيرة من البر والخاتون الثالثه ابنة الدقوس صاحب أصبهان من بلاد خراسان وهي أيضاً كبيرة القدر عظيمة الشان منافسة فى أفعال البر وتأتى جمع عجيب جداً فى ماهن بسبيله من الخير والاحتفال فى الأبهة الملوكية ثم أقلعنا ظهر يوم السبت الرابع والعشرين لذى الحجة المذكور ونزلنا بمقربة من عسفان ثم أسرينا اليها نصف الليل وصبحناه بكرة يوم الاحد وهي فى بسيط من الارض بين جبال وبها آبار معينة تنسب لعثمان رضى الله عنه وشجر المقل فيها

كثير وبها حصن عتيق البنيان ذو أبراج مشيدة غير معمور قد أثر
فيه القدم وأوحشه قلة العمارة ولزوم الخراب فاجتزناها بأميال ونزلنا
مريحين قائلين فلما كان أثر صلاة الظهر أقلعنا الى خليص فوصلناها
عشي النهار وهي أيضاً في بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل
لها جبل فيه حصن مشيد في قنته وفي البسيط حصن آخر قد أثر فيه
الخراب وبها عين فوارة قد حدثت لها أخاديد في الارض مسربة
يستقي منها على أفواه كالآبار يجدد الناس بها الماء لقلته في الطريق
بسبب القحط المتصل والله يغيث بلاده وعباده وأصبح الناس بها مقيمين
يوم الاثنين لاراحة الابل واستصحاب الماء وهذه الجملة العراقية ومن
انضاف اليها من الخراسانية والموصلية وسائر جهات الآفاق من
الواصلين بصحبة أمير الحاج المذكور جمع لا يحصى عدده الا الله تعالى
يغص بهم البسيط الافيح ويضيق عنهم المهمه الصحصح فترى الارض
تميد بهم ميداً وتموج بجمعهم موجاً فتبصر منهم بحراً طامي العباب [illegible]
[illegible] وشمره القبائل [illegible] والقباب تسير سير
[illegible] وشراعه القلاع [illegible]
السحاب [illegible] يتداخل بعضها على بعض ويصطدم بعضها جوانب
بعض فتشاهد [illegible] في البراح المفسح بهول ويروع واصطكاك
[illegible] في بعضه بعض مقروع في لم يشاهد هذا السفر العراقي
لم يشاهد من أعجب الزمن ما يحدث به ويتحف السامع بغرابته والقدرة
والقدرة لله وحده وحسبك أن النازل في منزل من منازل هذه المحلة متى

خرج عنها لبعض حاجة ولم تكن له دلالة يستدل بها على موضعه ضلّ وتلف وعاد ملشوداً في جملة الضوالّ وربما اضطربه الحال الى الوصول الى مضرب الامير ورفع مسألته اليه فيأمر أحد المنشدين بريحة والهاتفين بأوامره ممن قد أعد لذلك أن يردفه خلفه على جمل ويطوف به المحلة العجاجة وهو قد ذكر له اسمه واسم جماله واسم البلد الذي هو منه فيرفع عقيرته بذلك معرفاً بهذا الضال ومنادياً باسم الجمال وبلده الى أن يقع عليه فيؤديه اليه ولو لم يفعل ذلك لكان آخر عهده بصاحبه الا أن يلتقطه التقاطا أو يقع عليه اتفاقا فهذا من بعض عجائب شؤن هذه المحلة وعجائبها أكثر من أن يحيط بها الوصف ولأهلها من قوة الجدة واليسار ما يعينهم على ما هم بسبيله والملك بيد الله يؤتيه من يشاء ولهؤلاء النسوة الخواتين في كل عام اذ لم يحججن بأنفسهن نواضح مسبلة مع الحاج يرسلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل في المواضع المعروف فيها الماء في الطريق كله وبعرفات وبالمسجد الحرام في كل يوم وليلة فلهن في ذلك أجر عظيم وما التوفيق الا بالله جل جلاله فتسمع المنادي على النواضح يرفع صوته بأبناء السبيل فيهطع اليه المرملون من الزاد والماء بقربهم وأباريقهم فيملؤنها ويقول المنادي في أثناء ذلك بصوته أبقى الله الملكة خاتون ابنة الملك الذي من أمره كذا ومن شأنه كذا ويحليه بحلاه أعلاما باسمها واظهاراً لفعلها واستجلابا لدعاء هذا من الناس والله لا يضيع أجر من أحسن عملا وقد تقدم تفسير هذه اللفظة خاتون وأنها عندهم بمنزلة السيدة أو ما يليق بهذا اللفظ لملوك النسائي ومن

عجيب هذه المحلة أيضاً على عظمها وكبرها وكونها وجود دنيا بأسرها أنها اذا حطت رحلها ونزلت منزلها ثم ضرب الامير طبله للانذار بالرحيل ويسمونه الكوس لم يكن بين استقلال الرواحل بأوقارها ورحالها وركابها لا كلا ولا فلا يكاد يفرغ الناقر من الضربة الثالثة الا والركائب قد أخذت سبيلها كل ذلك من قوة الاستعداد وشدة الاستظهار على السفر والحول والقوة لله وحده لا رب سواه واسراؤها بالليل بمشاعيل موقدة يمسكها الرجالة بأيديهم فلا تبصر قشاوة من القشاوات الا وامامها مشعل فالناس يسيرون منها بين كواكب سيارة توضح غسق الظلماء وتباهي بها الارض أنجم السماء والمرافق الصناعية وغيرها من المصالح الدينية والمنافع الحيوانية كلها موجودة بهذه المحلة غير معدومة ووصفها يطول والاخبار عنها لا تحصر فلما كان ظهر يوم الاثنين أثر الصلاة أقلعنا من خليص مرتحلين وتمادي سيرنا الى العشاء الآخرة ثم نزلنا ونمنا نومة خفيفة ثم ضرب الكوس فأقلعنا وأسرينا الى ضحي من النهار ثم نزلنا مريحين الى أول الظهر من يوم الثلاثاء ثم أقلعنا من منزلنا ذلك الى واد يعرف بوادي السمك اسم يكاد يكون واقعا على غير مسمى فنزلناه مع العشاء الآخرة ثم صبحنا به مقيمين يوم الاربعاء لتجديد حمل الماء وهو بهذا الوادي في مستنقعات وربما حفر عليه في الرمل فأقلعنا منه أول ظهر يوم الاربعاء المذكور ثم أجزنا مع الليل عقبة محجرة كؤوداً ذهب فيها من الجمال كثير ونزلنا في بسيط من الارض ونمنا الى نصف الليل ثم رحلنا في مهمه أفيح بسيط ممتد مد البصر ورملة منثالة فمشيت

الجبال فيها دون مقطرة لانفساح طريقها ثم نزلنا مريحين قائلين يوم الخميس التاسع والعشرين من ذي الحجة وبيننا وبين بدر مقـدار مرحلتين فلما كان أول الظهر رحلنا الي مقربة من بدر فنزلنا بائتين ثم قنا قبل نصف الليل فوصلنا بدراً وقد ارتفع النهار وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن في ربوة مرتفعة ويدخل اليها على بطن واد بين جبال وببدر عين فوارة وموضع القليب الذى كان بإزائه الوقعة الاسلامية التى أعزت الدين وأذلت المشركين هو اليوم نخيل وموضع الشهداء خلفه وجبل الرحمة الذى نزلت فيه الملائكة عن يسار الداخل منها الى الصفراء وبازائه جبل الطبول وهو شبيه كثيب رمل ممتد وهذه التسمية لاشاعة لهج بها أكثر المسلمين وذلك أنهم يزعمون أن أصوات الطبول تسمع بها كل يوم جمعة كأنها آثار متذاوات باقية بما سلف من النصر النبوى في ذلك الموضع والله أعلم بغيبه وموضع عريش النبي صلى الله عليه وسلم يتصل بسفح جبل الطبول المذكور وموضع الوقيعة أمامه وعند نخيل القليب مسجد يقال انه مبرك ناقة النبي صلى الله عليه وسلم وصح عندنا على زعمة أحد الاعراب الساكنين ببدر أنهم يسمعون أصوات الطبول بالجبل المذكور لكن عين لذلك كل يوم اثنين ويوم خميس فعجبنا من زعمه كل العجب ولا يعلم حقيقة ذلك الا الله تعالى وبين بدر والصفراء بريد والطريق اليها في واد بين جبال تتصل بها حدائق النخيل والعيون فيه كثيرة وهو طريق حسن وبالصفراء حصن مشيد ويتصل به حصون كثيرة منها حصنان يعرفان بالتأمين وحصن

يعرف بالحسلية وآخر يعرف بالجديد الى حصون كثيرة وقرى متصلة

شهر محرم سنة ثمانين وخمسمائة عرفنا الله بركته وبركة سنته وخصنا فيه برحمته وتكفلنا بعصمته

استهل هلاله ليلة السبت بموافقة الرابع عشر لشهر ابريل ونحن مقلعون من بدر الى الصفراء فبتنا باستهلاله بهذه البقعة الكريمة بدر حيث نصر الله المسلمين وقهر المشركين والحمد لله على ذلك وكان نزولنا بالصفراء اثر صلاة العشاء الآخرة فأصبحنا يوم السبت مستهل الهلال المذكور مقيمين مريحين بها ليتزود الناس منها الماء ويأخذون نفس استراحة الى الظهر ومنها الى المدينة المكرمة ان شاء الله ثلاثة أيام فأقلعنا منها ظهر يوم السبت المذكور وتمادى السير بنا الى أثر صلاة العشاء الآخرة والطريق في وعر وصعب بين جبال فنزلنا ليلة الاحد ثم أقلعنا نصف الليل وتمادى سيرنا الى ضحى من النهار فنزلنا مريحين قائلين ببئر ذات العلم ويقال ان علي بن أبي طالب رضى الله عنه قاتل الجن بها وتعرف ايضا بالروحاء والبئر المذكورة متناهية بعد الرشاء لا يكاد يلحق قعرها وهي معينة ورحلنا منها أثر صلاة الظهر من يوم الاحد وتمادى بنا السير الى أثر صلاة العشاء الآخرة فنزلنا شعب على رضى الله عنه وتهجمنا نصف الليل الى تربان الى البيداء ومنها تبصر المدينة المكرمة فنزلنا ضحى يوم الاثنين الثالث محرم المذكور بوادي العقيق فعلى شفيره مسجد ذي الحليفة من حيث أحرم رسول الله صلى الله

عليه وسلم والمدينة من هذا الموضع على خمسة أميال ومن ذى الحليفة
حرم المدينــة الى مشهد حمزة الى قباء وأول ما يظهر للعين منارة
مسجدها بيضاء مرتفعة ثم رحلنا منها أثر صلاة الظهر من يوم الاثنين
المذكور وهو السادس عشر لابريل فنزلنا بظاهر المدينــة الزهراء
والتربة البيضاء والبقعة المشرفة بمحمد سيد الانبياء صلى الله عليه وسلم
صلاة تتصـل مع الاحيان والاناء وفى عشى ذلك اليوم دخلنا الحرم
المقدس لزيارة الروضة المكرمة المطهرة فوقفنا بأزائها مسلمين ولترب
جنباتها المقدسة مستلمين وصلينا بالروضة التى بين القبر المقدس والمنبر
واستلمنا أعواد المنبر القديمة التى كانت موطأ الرسول صلى الله عليه وسلم
والقطعة الباقية من الجزع الذى حن اليه صلى الله عليه وسلم وهى
ملصقة فى عمود قائم أمام الروضة الصغيرة التى بين القبر والمنبر وعن
يمينك اذا استقبلت القبلة فيها ثم صلينا صلاة المغرب مع الجماعة وكان من
الاتفاق السعيد لنا ان وجدنا بعض فسحة فى تلك الحال لاشتغال
الناس باقامة مضاربهم وترتيب رحالهم فتمكنا من الغرض المقصود
وفزنا بشهود المحمود وأدينا حق السـلام على الصاحبين الضجيعين
صديق الاسلام وفاروقه وانصرفنا الى رحالنا مسرورين وبنعمة الله
علينا شاكرين ولم يبق لنا أمل من آمال وجهتنا المباركة ولا وطر الا
وقد قضيناه ولا غرض من أغراضنا المأمولة الا وبلغناه وتفرغت الخواطر
للاياب للوطن نظم الله الشمل وتمم علينا الفضل والحمد لله على ما أولاه
وأسداه وأعاده من جميل صنعه وأبداه فهو أهل الحمد والشكر ومستحقه

لا إله سواه

﴿ ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر روضته المقدسة المطهرة ﴾

المسجد المبارك مستطيل وتحفه من جهاته الاربع بلاطات مستديرة به ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى فالجهة القبلية منها لها خمس بلاطات مستطيلة من غرب الى شرق والجهة الجوفية لها أيضاً خمس بلاطات على الصفة المذكورة والجهة الشرقية لها ثلاثة بلاطات والجهة الغربية لها أربعة بلاطات والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلي الشرق وانتظمت من بلاطاته مما يلي الصحن في السعة اثنين وتنيف الى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ولها خمسة أركان بخمس صفحات وشكلها شكل عجيب لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله والصفحات الاربع محرفة عن القبلة تحريفاً بديعاً لا يتأتى لاحد معه استقبالها في صلاته لانه ينحرف عن القبلة وأخبرنا الشيخ الامام العالم الورع بقية العلماء وعمدة الفقهاء أبو ابراهيم اسحاق ابن ابراهيم التونسي رضى الله عنه ان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اخترع ذلك في تدبير بنائها مخافة أن يتخذها الناس مصلى وأخذت أيضاً من الجهة الشرقية سعة بلاطين وتضمنت داخلها من أعمدة الابلطة ستة وسعة الصفحة القبلية منها أربعة وعشرون شبراً وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبراً وما بين الركن الشرقي الى الركن الجوفي صفحة سعتها خمسة وثلاثون

شبراً ومن الركن الجوفي الى الغربي صفحة سعتها تسعة وثلاثون شبراً
ومن الركن الغربي الى القبلي صفحة سعتها أربعة وعشرون شبراً وفي
هذه الصفحة صندوق آبنوس مختم بالصندل مصفح بالفضة مكوكب بها
هو قبالة رأس النبي صلى الله عليه وسلم وطوله خمسة أشبار وعرضه
ثلاثة أشبار وارتفاعه أربعة أشبار وفي الصفحة التي بين الركن الجوفي
والركن الغربي موضع عليه ستر مسبل يقال انه كان مهبط جبريل عليه
السلام فجميع سعة الروضة المكرمة من جميع جهاتها مائتا شبر واثنان
وسبعون شبراً وهي مؤزرة بالرخام البديع النحت الرائع النعت وينتهي
الازار منها الى نحو الثلث أو أقل يسيراً وعليه من الجدار المكرم ثلث
آخر قد علاه تضميخ المسك والطيب بمقدار نصف شبر مسوداً مشققاً
متراكما مع طول الازمنة والايام والذي يعلوه من الجدار شبابيك عود
متصلة بالسمك الاعلى لان أعلى الروضة المباركة متصل بسمك المسجد
والى حيز ازار الرخام تنتهي الاستار وهي لازوردية اللون مختمة بخواتيم
بيض مثمنة ومربعة وفي داخل الخواتيم دوائر مستديرة ونقط بيض
تحف بها فمنظرها منظر رائق بديع الشكل وفي أعلاها رسم مائل الى
البياض وفي الصفحة القبلية امام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسمار فضة
هو قبالة الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام والى قدميه صلى الله
عليه وسلم رأس أبي بكر الصديق رضي الله عنه ورأس عمر الفاروق
مما يلي كتفي أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فيقف المسلم مستدبر
القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم ثم ينصرف يميناً الى وجه أبي بكر

ثم الى وجه عمر رضي الله عنهما وامام هـذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلا معلقة من الفضة وفيها أثنان من ذهب وفي جوف الروضة المقدسة حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب قيل انه كان بيت فاطمة رضى الله عنها ويقال هو قبرها والله أعلم بحقيقة ذلك وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم ومنـه اليها اثنتان وأربعون خطوة وهو فى الحوض المبارك الذى طوله أربع عشر خطوة وعرضه ست خطا وهو مرخم كله وارتفاعه شبر ونصف وبينه وبين الروضة الصغيرة التى بين القبر الكريم والمنبر وفيها جاء الأثر انها روضة من رياض الجنة ثمانى خطوات وفي هذه الروضة يتزاحم الناس للصلاة وحق لهم ذلك وبأزائها لجهة القبلة عمود يقال انه مطبق على بقية الجزع الذى حن للنبي صلى الله عليه وسلم وقطعة منه في وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ويبادرون للتبرك بلمسها ومسح خدودهم فيهـا وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق وارتفاع المنبر الكريم نحو القامة أو أزيد وسعته خمسة أشبار وطوله خمسة خطوات وأدراجه ثمانية وله باب على هيئة الشبك مقفل يفتح يوم الجمعة وطوله أربعة أشبار ونصف شبر والمنبر مغشى بعود الابنوس ومقعد الرسول صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر قد طبق عليه بلوح من الابنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه فيدخل الناس أيديهم اليه ويتمسحون به تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم وعلى رأس رجل المنبر اليمنى حيث يضع الخطيب يده اذا خطب حلقة فضة مجوفة مستطيلة تشبه حلقة الخياط التى يضعها فى

أصبعه صفة لاصفراً لانها أكبر منها لاعبة تستدير في موضعها يزعم الناس
أنها لعبة الحسن والحسين رضي الله عنهما فى حال خطبة جدهما صلوات
الله وسلامه عليه وطول المسجد الكريم مائة خطوة وستة وتسعون
خطوة وسعته مائة وست وعشرون خطوة وعــدد سواريه مائتان
وتسعون وهي أعمدة متصلة بالسمك دون قسي تنعطف عليها فكأنها
دعائم قوائم وهي من حجر منحوت قطعاً قطعاً ململمة مثقبة توضع
أنثى في ذكر ويفرغ بينهما الرصاص المذاب الى أن تتصل عموداً قائماً
وتكسى بغلالة جيار ويبالغ فى صقلها ودلكها فتظهر كأنها رخام أبيض
والبلاط المتصل بالقبلة من الخمسة بلاطات المذكورة تحف به مقصورة
تكتنفه طــولاً من غرب الى شرق والمحراب فيها ويصلى الامام فى
الروضة الصغيرة المذكورة الى جانب الصندوق وبينها وبين الروضة
والقبر المقدس محمل كبير مدهون عليه مصحف كبير فى غشاء مقفل
عليه هو أحــد المصاحف الاربعة التى وجه بها عثمان بن عفان رضى
الله عنه الى البلاد وبأزاء المقصورة الى جهة الشرق خزانتان كبيرتان
محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك ويليهما في
البلاط الثانى لجهة الشرق أيضاً دفة مطبقة على وجه الارض مقفلة هي
على سرداب يهبط اليه على أدراج تحت الارض يفضى الى خارج المسجد
الى دار أبى بكر الصديق رضي الله عنه وهــو كان طريق عائشة اليها
وبأزائها دار عمر بن الخطاب ودار ابنه عبدالله رضى الله عنهما ولا
شك ان ذلك الموضع هــو موضع الخوخه المفضية لدار أبي بكر التى

أس النبي صلى الله عليه وسلم بإعقابها خاصة وأمام الروضة المقدسة أيضاً صندوق كبير هو للشمع والانوار التي توقد أمام الروضة كل ليلة وفي الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود هو موضع مبيت بعض السدنة الحارسين للمسجد المبارك وسدنته فتيان أحابيش وصقالب ظراف الهيئات نظاف الملابس والشارت والمؤذن الراتب فيه أحد أولاد بلال رضى الله عنه وفي جهة جوف الصحن قبة كبيرة محدثة جديدة تعرف بقبة الزيت هي مخزن لجميع آلات المسجد المبارك وما يحتاج اليه فيه وبازائها في الصحن خمس عشرة نخلة وعلى رأس المحراب الذي في جدار القبلة داخل المقصورة حجر مربع أصفر قدر شبر في شبر ظاهر البريق والبصيص يقال انه كان مرآة كسرى والله أعلم بذلك وفي أعلاه داخل المحراب مسمار مثبت في جداره فيه شبه حق صغير لا يعرف من أى شيء هو ويزعم بعض انه كان كاس كسرى والله أعلم بحقيقة ذلك كله ونصف جدار القبلة الاسفل رخام موضوع ازاراً على ازار مختلف الصنعة واللون مجزع أبدع تجزيع والنصف الاعلى من الجدار منزل كله بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء قد أنتج الصناع فيه نتائج من الصنعة غريبة تضمنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات مائلات الاغصان بثمرها والمسجد كله على تلك الصفة لكن الصنعة في جدار القبلة أحفل والجدار الناظر الى الصحن من جهة القبلة كذلك ومن جهة الجوف أيضاً والغربي والشرقي الناظران الى الصحن مجردان أبيضان ومقرنصان قد زينا برسم يتضمن أنواعاً من الاصبغة الى ما يطول وصفه وذكره

من الاحتفال في هذا المسجد المبارك المحتوى على التربة الطاهرة المقدسة وموضوعها أشرف ومحلها أرفع من كل ماتزين به وللمسجد المبارك تسعة عشر بابا لم يبق منها مفتحاً سوى أربعة في الغرب منها اثنان يعرف الواحد بباب الرحمة والثاني بباب الخشية وفي الشرق اثنان يعرف الواحد بباب جبريل عليه السلام والثاني بباب الرجاء ويقابل باب جبريل عليه السلام دار عثمان رضى الله عنه وهي التي استشهد بها ويقابل الروضة المكرمة من هذه الجهة الشرقية روضة جمال الدين الموصلي رحمه الله المشهور خبره وأثره وقد تقدم ذكر مآثره وامام الروضة المكرمة شباك حديد مفتوح الى روضته تتنسم منها رحاء وريحانا وفي القبلة باب واحد صغير مغلق وفي الجوف أربعة مغلقة وفي الغرب خمسة مغلقة أيضاً وفي الشرق خمسة أيضاً مغلقة فكملت بالاربعة المفتوحة تسعة عشر باباً وللمسجد المبارك ثلاث صوامع احداها في الركن الشرقي المتصل بالقبله والاثنتان في ركني الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة برجين والصومعة الاولى المذكورة على هيئة الصوامع

﴿ ذكر المشاهد المكرمة التي ببقيع الغرقد ﴾
(وصفح جبل أحد)

فأول ما نذكر من ذلك مسجد حمزة رضى الله عنه وهو بقبلي الجبل المذكور والجبل جوفي المدينة وهو على مقدار ثلاثة أميال وعلى قبره رضى الله عنه مسجد مبني والقبر برحبة جوفي المسجد والشهداء رضى

الله عنهم بازائه والغار الذى آوى اليه النبي صلى الله عليه وسلم بازاء الشهداء أسفل الجبل وحول الشهداء تربة حمراء هى التربة التى تنسب الى حمزة ويتبرك الناس بها وبقيع الغرقد شرقي المدينة تخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع وأول ماتلقى عن يسارك عند خروجك من الباب المذكور مشهد صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم أم الزبير بن العوام رضى الله عنه وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الامام المدنى رضى الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وأمامه قبر السلالة الطاهرة ابراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم وعليه قبة بيضاء وعلى اليمين منها تربة ابن لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه اسمه عبد الرحمن الأوسط وهو المعروف بأبي شحمة وهو الذي جلده أبوه الحد فمرض ومات رضى الله عنهما وبازائه قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وعبد الله ابن جعفر الطيار رضى الله عنه وبازائهم روضة فيها أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبازائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي صلى الله عليه وسلم ويليها روضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن علي رضى الله عنهم وهي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور وعن يمين الخارج منه ورأس الحسن الى رجلى العباس رضي الله عنهما وقبراهما مرتفعان عن الارض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع الصق مرصعة بصفائح الصفر ومكوكبة بمساميره على أبدع صفة وأجمل منظر وعلى هذا الشكل قبر ابراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم ويلى هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه

وسلم ويعرف ببيت الحزن يقال انه الذي آوت اليه والتزمت فيه الحزن
على موت أبيها المصطفى صلي الله عليه وسلم وفى آخر البقيع قبر عثمان
الشهيد المظلوم ذى النورين رضي الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة
وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم علىّ رضى الله عنها وعن بنيها
ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى لانه مدفن الجمهور الاعظم من
الصحابة المهاجرين والانصار رضى الله عنهم أجمعين وعلى قبر فاطمة
المذكورة مكتوب ماضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد رضى الله عنها
وعن بنيها وقباء قبلىّ المدينة ومنها اليها نحو الميلين وكانت مدينة كبيرة
متصلة بالمدينة المكرمة والطريق اليها بين حدائق النخل المتصلة
والنخيل محدق المدينة من جهاتها وأعظمها جهة القبلة والشرق وأقلها
جهة الغرب والمسجد المؤسس على التقوى بقباء مجدد وهو مربع
مستوى الطول والعرض وفيه مئذنة طويلة بيضاء تظهر على بعد وفى
وسطه مبرك الناقة بالنبى صلى الله عليه وسلم وعليه حلق قصير شبه
روضة صغيرة يتبرك الناس بالصلاة فيه وفى صحنه مما يلي القبلة شبه محراب
على مصطبة هو أول موضع ركع فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم وفى قبلته
محاريب وله باب واحد من جهة الغرب وهو سبعة بلاطات في الطول
ومثلها في العرض وفى قبلة المسجد دار لبني النجار وهي دار أبى أيوب
الانصارى وفى الغرب من المسجد رحبة فيها بئر وبازائها على الشفير
حجر متسع شبه البيلة يتوضأ الناس فيه ويلى دار بني النجار دار عائشة
رضي الله عنها وبازائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبي بكر رضى الله

عنهم وبرأسها بئر أريس حيث تفل النبي صلى الله عليه وسلم فعاد ملوحها
عذبا بعد ما كان أجاجا وفيها وقع خاتم من يد عثمان رضى الله عنه
والحديث مشهور وفى القرية تل مشرف يعرف بعرفات يدخل اليه على
دار الصفة حيث كان عمار وسلمان وأصحابهما المعروفون بأهل الصفة
وسمي ذلك التل عرفات لانه كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم
عرفة ومنه زويت له الارض فأبصر الناس بعرفات وآثار هذه القرية
المكرمة ومشاهدها كثيرة لا تحصي وللمدينة المكرمة أربعة أبواب وهي
تحت سورين في كل سور باب يقابله آخر الواحد منها كله حديد ويعرف
باسمه باب الحديد ويليه باب الشريعة ثم باب القبلة وهو مغلق ثم باب
البقيع وقد تقدم ذكره وقبل وصولك سور المدينة من جهة الغرب
بمقدار غلوة تلقى الخندق الشهير ذكره الذى صنع النبى صلى الله عليه
وسلم عند تحزب الاحزاب وبينه وبين المدينة عن يمين الطريق العين
المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم وعليها حلق عظيم مستطيل ومنبع
العين وسط ذلك الحلق كأنه الحوض المستطيل وتحته سقايتان مستطيلتان
مستطيلة الحلق وقد ضرب بين كل سقاية وبين الحوض المذكور بجدار
فصار الحوض محدقاً بجدارين وهو بين السقايتين المذكورتين ويهبط
اليهما على أدراج عددها نحو الخمسة والعشرين درجاً وماء هذه العين
المباركة يعم أهل الارض فضلا عن أهل المدينة فهي لتطهر الناس
واستقائهم وغسل أثوابهم والحوض المذكور لا يتناول فيه غير الاستقاء
خاصة صوناً له ومحافظة عليه وبمقربة منه مما يلي المدينة قبة حجر

الزيت يقال ان الزيت رشح للنبي صلى الله عليه وسلم من ذلك الحجر
ولجهة الجوف منه بئر بضاعة وبأزائها لجهة اليسار جبل الشيطان
حيث صرخ لعنه الله يوم أحد حين قال قتل نبيكم وعلى شفير
الخندق المذكور حصن يعرف بحصن العزاب وهو خرب قيل ان عمر
رضي الله عنه بناه لعزاب المدينة وأمامه لجهة الغرب على البعد بئر
رومة التي اشترى نصفها عثمان رضى الله عنه بعشرين ألفاً وفى طريق
أحد مسجد على رضى الله عنه ومسجد سلمان رضى الله عنه ومسجد
الفتح الذي أنزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم سورة الفتح وللمدينة
المكرمة سقاية ثالثة داخل باب الحديد يهبط اليها على أدراج وماؤها
معين وهي بمقربة من الحرم الكريم وبقبلي هذا الحرم المكرم دار امام
دار الهجرة مالك ابن أنس رضى الله عنه ويطيف بالحرم كله شارع مبلط
بالحجر المنحوت المفروش فهذا ذكر ما تمكن على الاستعجال من آثار
المدينة المكرمة ومشاهدها على جهة الاقتضاب والاختصار والله ولى
التوفيق ومن عجيب ما شاهدناه من الامور البديعة الداخلة مدخل
السمعة والشهرة ان احدى الخواتين المذكورات وهى بنت الامير مسعود
المتقدم ذكره ذكر أبيها وصلت عشي يوم الخميس السادس لمحرم
ورابع يوم وصولنا المدينة الي مسجد رسول صلى الله عليه وسلم راكبة
في قبتها وحولها قباب كرائمها وخدمها والقراء أمامها والفتيان والصقالب
بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ويدفعون الناس أمامها الى أن
وصلت الى باب المسجد المكرم فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها

ومشت الى أن سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم والخول أمامها
والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها اشارة بذكرها ثم وصلت الى
الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر فصلت فيها تحت المحفة
و[illegible] يزاحمون عليها والمقامع تدفعهم عنها ثم صلت في الحوض بإزاء
المنبر ثم مشت في الصفحة الغربية من الروضة المكرمة فقعدت في
موضع يقال انه كان مهبط جبريل عليه السلام وأرخي الستر
عليها وقام شيوخها وصقالبها وحجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم
بأمرها واستصحبت معها الى المسجد حملين من متاع الصدقة فما زالت
في موضعها الى الليل وقد وقع الايذان بوصول صدر الدين رئيس
الشافعية الاصفهاني المشهور الساعة ولوجاهة في العلم كابر عن كابر
لعقد مجلس وعظ تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة السابع من المحرم
فتأخر وصوله الى هدء من الليل والحرم قد غص بالمنتظرين
والخاتون جالسة بموضعها وكان سبب تأخره تأخر أمير الحج لأنه كان
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

الى الروضة

هاتيك روضته تفوح نسيما   صلوا عليه وسلموا تسليما

واعتذر من التقصير لطول ذلك المقام وقال عجباً لالكن الاعجم كيف ينطق عند أفصح العرب وتمادى فى وعظه الى أن أطار النفوس خشية ورقة وتهافتت عليه الاعاجم معلنين بالتوبة وقد طاشت ألبابهم وذهلت عقولهم فيلقون نواصيهم بين يديه فيستدعى جلمين ويجزها ناصية ناصية ويكسو عمامته المجزوز الناصية فيوضع عليه حين عمامة أخرى من أحد قرمائه وجلسائه ممن قد عرف منزعه الكريم فى ذلك فبادر بعمامته لاستجلاب العرض النفيس بكارمه الشهيرة عندهم فلا يزال يخلع واحدة بعد أخرى الى أن جمع منهم عدة وجز نواصى كثيرة ثم ختم مجلسه بأن قال معشر الحاضرين قد كلمت لكم ليلة بحرم الله عز وجل وهذه الليلة بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بد للواعظ من كدية وقد سألتكم حاجة ان [illegible] لكم ماء وجهي في ذكرها [illegible] الا [illegible] حاجتى [illegible] تكشفوا رؤسكم و[illegible] يديكم [illegible] الى [illegible] في أن يرضى عنى ويسترضى الله عز وجل لى ثم أخذ فى تعداد ذنوبه والاعتراف بها فأطار الناس عمائمهم وبسطوا أيديهم للنبي صلى الله عليه وسلم داعين له [illegible] أكثر دموعاً ولا [illegible] خشوعاً من تلك الليلة [illegible]

[illegible]

بين خدمها وكرائمها متلفعة في ردائها فعاينا من أمرها في الشهرة الملوكية عجباً وأمر هذا الرجل صدر الدين عجيب في قعوده وأبهته وملوكيته ونخمة [illegible] وبهاء حالته وظاهر مكنته ووفور عدته وكثرة عبيده وخدمته واحتفال حاشيته وغاشيته فهو من ذلك على حال يقصر عنها الملوك وله مضرب كالتاج العظيم في الهواء مفتح على أبواب على هيئة غريبة الوضع بديعة الصنعة والشكل تطل على المحلة من بعد فتبصره سامياً في الهواء وشأن هذا الرجل العظيم لا يستوعبه الوصف شاهدنا مجلسه فرأينا رجلاً يذوب طلاقة وبشراً ويحن للزائر كرامة وبراً على عظيم حرمته ونخامة بنيته وهو قد أعطي البسطتين علماً وجسماً أستجزناه فأجازنا نثراً ونظماً وهو أعظم من شاهدنا بهذه الجهات وفي يوم الجمعة المذكور وهو السابع من محرم شاهدنا من أمور البدعة أمراً ينادي له الاسلام يالله يالمسلمين وذلك ان الخطيب وصل للخطبة فصعد منبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ما يذكر على مذهب غير مرضي ضد الشيخ الامام الحجي الملازم صلاة الفريضة في المسجد الكريم فذلك على طريقة من الخير والورع لا ثقة بامام مثل ذلك الموضع الكريم فلما أذن المؤذن قام هذا الخطيب المذكور للخطبة وقد تقدمته الرايتان السوداوان وقد ركزتا بجانبي المنبر الكريم فقام بينهما فلما فرغ من الخطبة الاولي جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل في السرعة وابتدر الجمع مردة من الخدمة يخترقون الصفوف ويتخطون الرقاب كدية على الاعاجم والحاضرين لهذا الخطيب القليل التوفيق

فمنهم من يطرح الثوب النفيس ومنهم من يخرج الشقة الغالية من الحرير فيعطيها وقد أعدها لذلك ومنهم من يخلع عمامته فيلبذها ومنهم من يتجرد عن برده فيلقى به ومنهم من لا يتسع حاله لذلك فيسمح فضلة من الخام ومنهم من يدفع القراضة من الذهب ومنهم من يمد يده بالدينار والدينارين الى غير ذلك ومن نسائه من تطرح خلخالها وتخرج خاتمها وتلقيه الى ما يطول الوصف له من ذلك والخطيب في أثناء هذه الحال كلها جالس على المنبر يلحظ هؤلاء المستجدين المستسمين على الناس بلحظات يكررها الطمع ويعيدها الرغبة والاستزادة الى أن كاد الوقت ينقضي والصلاة تفوت وقد ضج من له دين وصحة من الناس وأعلن بالصياح وهو قاعد ينتظر تنفذ صبابة الكدية وقد أراق عن وجهه ماء الحياء فاجتمع له من ذلك السحت المؤتلف كوم عظيم أمامه فلما أرضاه قام وأكمل الخطبة وصلى بالناس وانصرف أهل التحصيل باكين على الدين يائسين من فلاح الدنيا متحققين اشراط الآخرة ولله الامر من قبل ومن بعد وفي عشي ذلك اليوم المبارك كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة فيا له وداعا عجيباً ذهلت النفوس ارتياعا حتى طارت شعاعا واستشرت به النفوس التياعا حتى ذابت تصداعا وما ظنك بموقف يناجي بالتوديع فيه سيد الاولين والآخرين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين انه الموقف تنفطر له الافئدة وتطيش به الالباب الثابتة المتئدة فوا أسفاه وأسفاه كل يبوح لديه باشواقه ولا يجد بداً من فراقه فما يستطيع الى الصبر سبيلا ولا تسمع في هول ذلك المقام الا رنة

وعويلا وكل بلسان الحال ينشد

محبتي تقتضي مقامي   وحالتي تقتضي الرحيلا

جوزانا الله بزيارة هذا النبي الكريم منزل الكرامة وجعله شفيعا لنا يوم القيامة وأحلنا من فضله في جواره دار المقامة برحمته انه غفور رحيم جواد كريم وكان مقامنا بالمدينة المكرمة خمسة أيام أولها يوم الاثنين وآخرها يوم الجمعة

وفي ضحوة يوم السبت الثامن محرم المذكور والحادي والعشرين من شهر ابريل كان رحيلنا من المدينة المكرمة الى العراق قرب الله لنا المرام وسهل علينا السبيل واستصحبنا منها الماء لثلاثة أيام فنزلنا يوم الاثنين ثالث يوم رحيلنا المذكور بوادي العروس فتزود الناس منها الماء يحفرون عليه في الارض بئرا فينبع منها ماء عذب معين يروي الامة التي لا يحصى [illegible] من هذه المحلة مع جمالها التي تنيف على عددها ولله القدرة سبحانه وتعالى وصعدنا من وادي العروس الى أرض نجد وشاهدنا [illegible] في بسيطة من الارض يحسر الطرف دون أقصاها [illegible] نسيم نجد وهوائها المضروب به المثل فانتعشت النفوس والاجسام ببرد نسيمه وصحة هوائه ونزلنا يوم الثلاثاء رابع يوم رحيلنا على ماء يعرف بماء العسيلة ثم نزلنا يوم الاربعاء خامس رحيلنا بموضع يعرف بالحفيرة فيه آبار ومصانع كالصهاريج العظام وجدنا [illegible] ماء المطر فعم جميع الحاج ولم ينضب على كثرة الاستقاء و [illegible] هذا الامر بالحاج أن يسرع من نصف الليل الى ضحية

ثم ينزل الى أول الظهر ثم يرحل وينزل مع العشاء الآخرة ثم يقوم
نصف الليل هذا دأبه ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحرم وسادس يوم
رحيلنا على ماء يعرف بالقارورة وهي مصانع مملوءة بماء المطر وهذا
الموضع هو وسط أرض نجد وما أرى أن في المعمور أرضاً أفسح بسيطا
ولا أوسع متنفسا ولا أطيب نسيما ولا أصح هواء ولا أمد استواء ولا
أصفى جواً ولا أنقى تربة ولا أنعش للنفوس والابدان ولا أحسن اعتدالا
في كل الازمان من أرض نجد ووصف محاسنها يطول والقول فيها يتسع
وفي يوم الخميس المذكور مع ضحوة النهار نزلنا بالحاجر والماء فيه في
مصانع وربما حفروا عليه حفراً قريبة العمق يسمونها أحفاراً واحدها
حفر وكنا نتخوف في هذا الطريق قلة الماء لاسيما مع عظم هذا الجمع
الاناسي والانعامي الذين لو وردوا البحر لأنزفوه واستقوه فأنزل الله
من سحب رحمته ماء أغاث الغيطان غدرانا وأجرى الشعاب سيولا وصير
الوهاد مملوءة ثماداً فكنا نبصر مذانب الماء سائحة على وجه الارض
فضلا من الله ونعمة ولطفا من الله بعباده ورحمة والحمد لله على ذلك
وفي اليوم المذكور جزنا بالحاجر واديين سائلين وأما البرك والقرارات
فلا تحصى وفي يوم الجمعة بعده نزلنا ضحوة النهار سميرة وهي موضع
معمور وفي بسيطها شبه حصن يطيف به حلق كبير مسكون والماء فيه
في آبار كثيرة لكنها زعاق ومستنقعات وبرك وتبايع العرب فيها مع
الحاج فيما يخرجونه من لحم وسمن ولبن ووقع الناس على قرم وعيمة
فبادروا الابتياع لذلك بشقق الخام التي يستصحبونها لمشارات الاعراب

لانهم لا يبايعونهم الا بها وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بالجبل
المخروق وهو جبل في بيداء من الارض وفي صفحه الاعلى ثقب نافذ
تخترقه الريح ثم رحلنا من ذلك الموضع وبتنا بوادي الكروش على غير
ماء ثم أسرينا منه وصبحنا على فيد يوم الاحد وهي حصن كبير مبرج
مشرف في بسيط من الارض يمتد حوله ربض يطيف به سور عتيق
البنيان وهو معمور بسكان من الاعراب يتعشون مع الحاج في
التجارات والمبايعات وغير ذلك من المرافق وهنالك يترك الحاج بعض
زادهم اعدادا للارماق من التزاد عند انصرافهم ولهم بها معارف يتركون
زودتهم عندهم وهذا نصف الطريق من بغداد الى مكة على المدينة
شرفها الله او اقل يسيرا ومنها الى الكوفة اثنا عشر يوما في طريق سهلة
طيبة والمياه فيه بحمد الله موجودة في مصانع كثيرة ودخل أمير الحاج
هذا الموضع المذكور على تعبئة واهبة أرهابا للمجتمعين به من الاعراب
لئلا يدخلهم الطمع في الحج فهم يحضونهم مستشرفين الى مكانهم
لكنهم لا يجدون اليه سبيلا والحمد لله والماء بهذا الموضع كثير في آبار تمدها
عيون تحت الارض ووجد الحاج فيها مصنعا قد اجتمع فيه الماء من
المطر فنزف بالحين وامتلأت أيدي الحاج الترمين من أغنام العرب
المبايعة المذكورة فلم يبق مضرب ولا خيمة ولا ظلالة الا والى جانبها
كبش أو كبشان بحسب القدرة واوجد فيه جميع المحلة غنم العرب
وكان ذلك اليوم عيدا من الاعياد وكذلك عمتهم أيضا جمالهم من أراد
الاتساع منهم من الحمالين وسواهم الاستظهار على الطريق وأما السمن

والعسل واللبن فلم يبق الا من تحمل أو استعمل منها بقدر حاجته وأقام الناس يومهم ذلك مريحين بها الى ظهر يوم الاثنين بعده ثم أسروا لنصف الليل ترتيب سيرهم المذكور قبل ونزلوا ضحوة يوم الثلاثاء الثامن عشر لمحرم وهو أول يوم من مايه بموضع يعرف بالاجفر وهو مشتهر عندهم بموضع جميل وبثينة العذريين ثم أقلعنا ظهر يوم الثلاثاء المذكور على العادة ونزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة ثم أسرينا منها ونزلنا ضحوة يوم الاربعاء بزرود وهي وهدة فى بسيط من الارض فيها رمال منهالة وبها حلق كبير داخله دويرات صغار شبيه الحصن يعرف بهذه الجهات بالقصر والماء بهذا الموضع في آبار غير عـذبة فنزلنا ضحوة يوم الخميس الموفي عشرين لمحرم والثالث مايه بموضع يعرف بالثعلبية ولها مبنى شبه الحصن خرب لم يبق منه الا الحلق وبازائه مصنع عظيم كبير الدور من أوسع ما يكون من الصاريج وأعلاها والمهبط اليه على أدراج كثيرة من ثلاث جهات وكان فيه من ماء المطر ما عم جميع المحلة ووصل الى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالا ونساء واتخـذوا به سوقا عظيمة حفيلة للجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الابل فكان يوم سوق نافقة وبقي من هذا الموضع الى الكوفة من المناهل التى تعم جميع المحلة ثلاثة أحدها زبالة والثانى واقصة والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة وبين هذه المناهل مياه موجودة لكنها لا تعم وهذه الثلاثة المذكورة هي التي تعم الناس والابل وهي التى تردها رفقها وفى هذا المنهل الذى للثعلبية شاهدنا من غلبة الناس على الماء أمرا هائلا

لا يكاد يشاهد مثله في تغاب المدن والحصون بالقتال وحسبك ان مات في ذلك الموضع ضغطا لشدة الزحام وغطا تحت الماء بالاقدام سبعة رجال بادروا مورد الماء فحصلوا على مورد الفناء رحمهم الله وغفر لهم وفي ضحوة يوم الجمعة بعده نزلنا بموضع يعرف ببركة المرحوم وهي مصنع وقد بني له في ما علوه من الارض مصب يؤدي الماء اليه على بعد وأحكم حيث احكامه يدل على قدرة الاتساع وقوة الاستطاعة ولهذا المرجوم المذكور مشهد على قارعة الطريق وقد علا كأنه هضبة شماء وكل مجتاز عليه لا بد ان يلقي عليه حجرا ويقال ان أحد الملوك رجمه لأمر استوجب به ذلك والله أعلم وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويبدروا للحين عند مجيئهم من مرافق الادم يبيعونها من الحاج وكان هذا المصنع مملوءا من ماء المطر فعمر الناس وعمهم والحمد لله وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد الى مكة في آثار زبيدة ابنة جعفر ابن ابي جعفر المنصور زوج هارون الرشيد وابنة عمه انتدبت لذلك مدة حياتها فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من وفاتها الى الآن ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذا الطريق والله كفيل بجزائها والرضى عنها وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بموضع يعرف بالشقوق وفيه مصنعان ألفيناهما مملوءين ماء عذبا صافيا فأرق الناس مياههم وجددوا مياها طيبة واستبشروا بكثرة الماء وجددوا شكر الله على ذلك وأحد هذين المصنعين مصنع عظيم الدائرة كبيره لا يكاد يقطعه السابح الا عن جهد ومشقة وكان الماء قد علا

فيه أزيد من قامتين فتنعم الناس من مائه سباحة واغتسالا وتنظيف أثواب وكان يومهم فيه من أيام راحة السفر ومن لطائف صنع الله تعالى بوفده وزوار حرمه أن كانت هذه المصانع كلها عند صعود الحاج من بغداد الى مكة دون ماء فأرسل الله من رحمته ما أترعها ماء معداً لصدر الحاج فضلا من الله ولطفاً بوفده المنقطعين اليه ورحنا من ذلك الموضع المذكور وبتنا بموضع يعرف بالتنانير وكان فيه أيضاً مصنع مملوء ماء وأسرينا منه ليلة يوم الاحد الثالث والعشرين من المحرم واجتزنا سحراً (بزبالة) وهي قرية معمورة وفيها قصر مشيد من قصور الاعراب ومصنعان للماء وآبار وهي من مناهل الطريق الشهيرة ونزلنا عندما ارتفع النهار من اليوم المذكور بالهيثمين وفيها مصنعان للماء ولا نكاد نمر بحول الله يوما بموضع الا والماء يوجد فيه والشكر لله على ذلك وبتنا ليلة الاثنين الرابع والعشرين لمحرم المذكور على مصنع مملوء ماء فسقى الناس بالليل واستقوا وهذا الموضع هو دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان ومع الصباح من يوم الاثنين المذكور صعدنا العقبة وليست بالطويلة الكؤود ولكن ليس بالطريق وعر غيرها فهي شهيرة بهذا السبب ونزلنا عند ارتفاع النهار على مصنع دون ماء واجتزنا مصانع كثيرة وما منها مصنع الا والى جانبه قصر مبني من قصور الاعراب والطريق كلها مصانع ورضي الله عن التي اعتنت بسبيل وفد الله هذا الاعتناء ثم نزلنا ضحوة يوم الثلاثاء بعده بواقصة وهي وهدة من الارض منفسحة فيها مصانع للماء مملوءة وقصر كبير وبإزائه أثر بناء وهي معمورة بالاعراب

وهي آخر مناهل الطريق وليس بعدها الى الكوفة منهل مشهور الا مشارع ماء الفرات ومنها الى الكوفة ثلاثة أيام وبها يلتقي الحاج كثير من أهل الكوفة وهم يستجلبون اليهم الدقيق والخبز والتمر والادام والفواكه الحاضرة في ذلك الوقت ويهنئ الناس بعضهم بعضاً بالسلامة والحمد لله عز وجل على ما من به من التيسير والتسهيل حمداً يستوجب المزيد ويستصحب من كرم صنعه المعهود وبتنا ليلة الاربعاء السادس والعشرين بموضع يعرف بسورة وفيها مصنع كبير وجده الناس مملوء فجددوا الاستسقاء ورفعوا الاثقال ثم اسرينا منها وأجزنا سحر يوم الاربعاء المذكور بموضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعاء وفيه أيضاً مصنع ماء وله ستة مخازن وهي صهاريج صغار تؤدي الماء الي المصانع أستقي الناس فيها وسقوا وكثرت مصانع حتى لا تكاد الكتب تحصرها ولا تضبطها والحمدلله على منته وسابغ نعمته وبتنا ليلة الخميس بعده على مصنع عظيم مملوءماء ثم نزلنا ضحوة اليوم المذكور بمنارة تعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الارض لا بناء حولها قد دمت في الارض كأنها عمود مخروط من الاحجار نقشت فيها من الخواتيم الآجرية مثمنة ومربعة أشكال بديعة ومن غريب أمرها انها مجللة كلها قرون غزلان مثبتة فيها فتلوح كظهر الشيهم وللناس فيها خبر يمنع ضعف سنده من أثباته وعلى مقربة من هذه المنارة قصر ذو بروج مشيدة وبإزائه مصنع عظيم وجد مملوءماء والحمد لله على ما من به وجزنا عشي يوم الخميس المذكور على العذيب وهو واد خصيب وعليه بناء وحوله فلاة خصيبة فيها مسرح

للعيون وفرجة وأعلمنا ان بقربة منه بارقاً ووصلنا منه الى الرحبة وهي بقربة منه وفيها بناء وعمارة ويجري الماء فيها من عين نابعة في أعلى القرية المذكورة وبتنا أمامها بمقدار فرسخ ثم أسرينا ليلة الجمعة الثامن والعشرين لمحرم المذكور نصف الليل واجتزنا على القادسية وهي قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل ومشارع من ماء الفرات وأصبحنا بالنجف وهو بظهر الكوفة كأنه حد بينها وبين الصحراء وهو صلب من الارض منفسح متسع للعين فيه مزاد استحسان وانشراح ووصلنا الكوفة مع طلوع الشمس من يوم الجمعة المذكور والحمد لله على ماأنعم به من السلامة

﴿ ذكر مدينة الكوفة حرسها الله تعالى ﴾

هي مدينة كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على أكثرها فالغامر منها أكثر من العامر ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها فهي لا تزال تضر بها وكفاك بتعاقب الايام والليالي محيياً ومفنياً وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة ولا سور لها والجامع العتيق آخرها مما يلي شرقي البلد ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق وهو جامع كبير في الجانب القبلي منه خمسة أبلطة وفي سائر الجوانب بلاطان وهذه البلاطات على أعمدة من السواري الموضوعة من صم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص ولا قسي عليها على الصفة التي ذكرناها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في نهاية الطول متصلة بسقف المسجد

فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها فما رأيت في الارض مسجداً أطول
أعمدة منه ولا أعلى سقفاً وبهذا الجامع المكرم آثار كريمة فمنها بيت
بإزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال انه كان مصلى ابراهيم الخليل
صلى الله عليه وسلم وعليه ستر أسود صوناً له ومنه يخرج الخطيب لابساً
ثياب السواد للخطبة فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة
فيه وعلى مقربة منه في الجانب الايمن من القبلة محراب محلق عليه
بأعواد الساج مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير وهو محراب
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفي ذلك الموضع ضربه
الشقي اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف فالناس يصلون فيه باكين
داعين وفي الزاوية من آخر هذا البلاط القبلي المتصل بآخر البلاط الغربي
شبه مسجد صغير محلق عليه أيضاً بأعواد الساج هو موضع فار التنور
الذي كان آية لنوح عليه السلام وفي ظهره خارج المسجد بيته الذي كان
فيه [illegible] بيت آخر يقال انه كان متعبد ادريس صلى الله عليه وسلم
[illegible] الجدار القبلي من المسجد يقال انه كان منشأ
السفينة [illegible] علي بن أبي طالب رضي الله عنه والبيت
[illegible] بيت ابنة نوح صلى الله عليه
[illegible] شيوخ من أهل البلد
[illegible] ذلك كله وفي الجهة الشرقية من
[illegible] قبر [illegible] بن أبي طالب رضي الله
[illegible] سقاية كبيرة من ماء الفرات فيها

ثلاثة أحواض كبار وفي غربي المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسوب لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها مسجّى ميتاً على ما يذكر ويقال ان قبره فيه والله أعلم بصحة ذلك وفي هذا المشهد بناء حفيل على ما ذكر لنا لانا لم نشاهده بسبب أن وقت المقام بالكوفة ضاق عن ذلك لانا لم نبت فيها سوى ليلة يوم السبت وفي غداته رحلنا ونزلنا قريب الظهر على نهر منسرب من الفرات والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ مما يلي الجانب الشرقي والجانب الشرقي كله حدائق نخيل ملتفة يتصل سوادها ويتسع امتدادها في البعد ورحلنا من ذلك الموضع وبتنا ليلة الاحد بسنابخ حرم بقرية من الحلة ثم جئنا يوم الاحد المذكور

ذكر مدينة الحلة حرسها الله تعالى

هي مدينة كبيرة عتيقة الوضع مستطيلة لم يبق من سورها إلا حلق من جدار ترابي مستدير بها وهي على شط الفرات يتصل بها من جانبه الشرقي ويمتد بطولها ولهذه المدينة أسواق حسنة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية وهي قوية العمارة كثيرة الخلق متصلة حدائق النخيل داخلا وخارجا فديارها بين حدائق النخيل وألفينا بها جسرا عظيما معقودا على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة مربوطة إلى خشب مثبتة في كلا الشطين تدل على عظم الاستطاعة

والقدورة أمر الخليفة بعقده على الفرات اهتماما بالحاج واعتناء بسبيله وكانوا قبل ذلك يعبرون في المراكب فوجدوا هـذا الجسر قد عقده الخليفة في مغيبهم ولم يكن عنـد شخوصهم الى مكة شرفها الله وعبرنا الجسر ظهر يوم الاحد المذكور ونزلنا بشط الفرات على مقدار فرسخ من البلد وهذا النهر كاسمه فرات هو من أعذب المياه وأخفها وهو نهر كبير زخار تصعد فيه السفن وتنحدر والطريق من الحلة الى بغداد أحسن طريق وأجمله في بسائط من الارض وعمائر تتصل بها القرى يميناً وشمالا ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها فتحرثها لا حد لاتساعه وانفساحه فللعين في هـذه الطريق مسرح انشراح وللنفس مزاد انبساط وانفساح والأمن فيها متصل بحمد الله سبحانه وتعالى

﴿ شهر صفر سنة ثمانين عرفنا الله يمنه وبركته ﴾

هلاله على الكمال من ليلة الاثنين بموافقة الرابع عشر من مايه استهل هلاله ونحن على شط الفرات بظاهر مدينة الحـلة وفي ضحوة يوم الاثنين المذكور رحلنا واجزنا جسراً على نهر يسمى النيل وهو فرع متشعب من الفرات وكان عليـه ازدحام غرق كثير من الناس والدواب في المـاء فتنحينا مرتجين الى أن انفرج ذلك المزدحم وعبرنا على سلامة وعافية والحمد لله ومن مدينة الحلة يتسلسل الحاج ارسالا وافواجا أفواجا فمنهم المتقدم والمتوسط والمتأخر لا يعرج المستعجل على

المعتذر ولا المتقدم على المتأخر فحيثما شاؤا من طريقهم نزلوا وأراحوا
واستراحوا وسكنت نفوسهم من روعة نقر الكوس الذي كانت الافئدة
ترجف له بداراً للرحيل واستعجالا للقيام فربما كان النائم منهم يهذي
بنقر الكوس فيقوم عجلا وجلا ثم يتحقق أنه من أضغاث أحلامه فيعود
الى منامه ومن جملة الدواعي لافتراقهم كثرة القناطير المعترضة في طريقهم
الى بغداد فلا تكاد تمشي ميلا الا وتجد قنطرة على نهر متفرع من
الفرات فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطير وعلى أكثرها
خيام فيها رجال محترسون للطريق اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج
دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها فلو زاحم ذلك البشر تلك
القناطير دفعة لما فرغوا من عبورها ولتراكموا وقوعا بعض على بعض
والامير طاشتكين المتقدم الذكر يقيم بالحلة ثلاثة أيام الى أن يتقدم
جميع الحاج ثم يتوجه الى حضرة خليفته وهذه الحلة المذكورة طاعة
بيده للخليفة وسيرة هذا الامير في الرفق بالحج والاحتياط عليهم
والاحتراس لمقدمتهم وساقتهم وضم نشر ميمنتهم وميسرتهم سيرة محمودة
وطريقته في أحزمه وحسن النظر طريقة سديدة وهو من التواضع
ولين الجانب وقرب المكان على وتيرة سعيدة نفعه الله ونفع المسلمين
به وفي عصر يوم الاثنين المذكور نزلنا بقرية تعرف بالقنطرة كثيرة
الخصب كبيرة مساحة متدفقة فيها جداول الماء وارفة الظلال بشجرات
الفواكه من أحسن القرى وأجملها وبها قنطرة على فرع من فروع
الفرات كبيرة محدودبة يصعد اليها ويحدر عنها فتعرف القرية بها وتعرف

أيضاً بحصن بشير وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات في هذا الوقت
الذي هو نصف مايه. ورحلنا من القرية المذكورة سحر يوم الثلاثاء الثاني
لصفر فنزلنا قائلين ضحوة بقرية تعرف بالفرش كثيرة العمارة يشقها
وحولها بسيط أخضر جميل المنظر وقرى هذه الطريق من الحلة الى
بغداد على هذه الصفة من الحسن والاتساع وفي هذه القرية المذكورة
خان كبير يطيف به جدار له شرفات صغار ثم رحلنا منها ونزلنا
عشي النهار بقرية تعرف بزريران وهذه القرية من أحسن قرى الارض
وأجملها منظراً وأفسحها ساحة وأوسعها اختطاطاً وأكثرها بساتين
ورياحين وحدائق نخيل وكان لها سوق تقصر عنه أسواق المدن
وحسبك من شرف موضوعها أن دجلة تسقي شرقيها والفرات يسقي
غربيها وهي كالعروس بينهما والبسائط والقرى والمزارع متصلة بين
هذين النهرين الشريفين المباركين ومن شرف هذه القرية أيضاً أن
بإزاء جهة الشرق منها ايوان كسرى ومدينته المسماة بالمدائن الايوان
يبصر في الهواء ساطع البياض لم يبق من قصوره الا البعض قائماً بناؤها
على مبنية سامية مشرفة وأما المدائن فخراب اجتزنا
بها يوم الاربعاء لثلاث من صفر فرأينا من سورها واتساعها
مرأى عجيباً ومن فضل هذه القرية أيضاً أن بالشرق منها بمقدار نصف
فرسخ مشهد سلمان الفارسي رضي الله عنه فقد اختصت تربتها بهذا الدفين
المبارك رضي الله عنه الا أنه فصل تربته والقرية على شط دجلة وهي
تعترض بينها وبين المشهد الكريم المذكور وكنا سمعنا أن هواء بغداد

ينبت السرور فى القلب ويبعث النفس دالة على الانبساط والانس فلا تكاد تجد فيها الاجنبالان طرب وان كان نازح الدار مغتربا حتى حللنا بهذا الموضع المذكور وهو على مرحلة منه فه انفحت نوافح هوائها ونقعنا الغلة ببرد مائها أحسسنا من نفوسنا على حال وحشة الاغتراب دواعى من الاضراب واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغياب بالاياب وهبت بنا محركات من الاطراب ذكرتنا معاهد الاحباب فى ريعان الشباب

هذا الغريب النازح الوطن فكيف لو وفد فيه على أهل وسكن

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ورد الى الاوطان كل غريب

وفى سحر يوم الاربعاء المذكور رحلنا من القرية المذكورة واجتزنا على مدينة كسرى حسبما ذكرناه ونتهيت فى صدر يوم تحت زريران المذكورة حسنا وقريب منها وبمجانبها القبلى نهر كبير متفرع من الفرات عليه جسر معقود على مراكب تحيط به من الشط الى الشط سلاسل حديد عظام على الصفة التى ذكرناها فى جسر الحلة فعبرناه واجتزنا الى قرية الثانية ويبنها وبين بغداد نحو ثلاثة فراسخ وبهذه القرية سوق حفيل ومسجد جامع كبير حديث وهى من القرى التى تملأ النفوس بهجة وحسنا ومدائن الهواء لشريد ن دجلة والفرات قد شنت شهرتهما عن وصفهما وماتقدم من ذكر يعن وسعد والمعمرة ومنتهاهما مصبهما الى البحر ومجراهما من الشمال الى الجنوب وحسبهما ما حصل الله به من البركة فيهما رحمهم الله ثم من ههنا مذكور مشهور ورحلنا من ذلك الموضع قبيل الظهر من يوم الاربعاء المذكور وجئنا بغداد قبيل

العصر والمدخل اليها على بساتين وبسائط يقصر الوصف عنها

﴿ذكر مدينة السلام بغداد حرسها الله تعالى﴾

هذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الامامية القرشية الهاشمية قد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها الا شهير اسمها وهي بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس والاثر الطامس أو تمثال الخيال الشاخص فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر الا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين فهي تردها ولا تظمأ وتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ هي من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة فدتن الهوى الا أن يعصم الله منها مخوفة وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء يزدرون الغرباء ويظهرون لمن دونهم الانفة والاباء ويستصغرون عمن سواهم الاحاديث والانباء قد تصور كل منهم في معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم يسحبون أذيالهم أشراً أو بطراً ولا يغيرون في ذات الله منكراً يظنون أن اسنى الفخار في سحب الازار ولا يعلمون أن فضله بمقتضى الحديث المأثور في النار

يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً وما منهم من يحسن لله قرضاً فلا نفقة فيها
الا من دينار تقرضه وعلى يدي مخسر لميزان تعرضه لا تكاد تظفر
من خواص أهلها بالورع العفيف ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها
الاعلى من ثبت له الويل في سورة التطفيف لا يبالون في ذلك بعيب كأنهم
من بقايا مدين قوم النبي شعيب فالغريب فيهم معدوم الارفاق
متضاعف الانفاق لا يجد من أهلها الا من يعامله بنفاق أو يهش اليه
هشاشة انتفاع واسترفاق كأنهم من التزام هذه الخلة القبيحة على شرط
اصطلاح بينهم واتفاق فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومائها
ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأنبائها أستغفر الله الا فقهاءهم
المحدثين ووعاظهم المذكرين لا جرم أن لهم في طريقة الوعظ والتذكير
ومداومة التنبيه والتبصير والمثابرة على الانذار والتخويف والتحذير
مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيراً من أوزارهم
ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ويمنع القارعة الصماء أن
تحل بديارهم لكنهم معهم يضربون في حديد بارد ويرومون تفجير
الجلامد فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعتهم من واعظ يتكلم فيه فالموفق
منهم لا يزال في مجلس ذكر أيامه كلها لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة
فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضى الدين القزويني رئيس
الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار اليه بالتقديم في العلوم الاصولية
حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة
الخامس لصفر المذكور فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على

كراسي موضوعة فتوقفوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة . ثم اندفع الشيخ الامام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف في أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل وايراد حديث رسوله صلى الله عليه وسلم والتكلم على معانيه ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر وتقدم وما تأخر ودفعت اليه عدة رقاع فيها فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها الى أن فرغ منها وحان المساء فنزل وافترق الجمع فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقوراً هيناً ليناً ظهرت فيه البركة والسكينة ولم تقصر عن [illegible] فيها النفس المستكينة ولا سيما آخر مجلسه فانه سرت حمياء عظة الى النفوس حتى أطارتها خشوعاً وفجرتها دموعاً وبدرت ذنوبها اليه سقوطاً على يده ووقوعاً فكم ناصية جز وكم مفصل من مفاصل التائبين صافق بيعة وحر فبمثل مقام هذا الشيخ المذكور ترحم [illegible] وتتعمد الجناة وتستدام العصمة والنجاة ومنه تعدى بجزى كل ذي مقام [illegible] ويتعمد ببركته العلماء الاولياء [illegible] سعيه وانتقامه برحمته وكرمه انه المنعم الكريم لا رب سواه ولا معبود الا إياه . وشهدنا له مجلساً ثانياً أثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر المذكور وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية ورئيس الأئمة الشافعية ودخل المدرسة النظامية بزهو عظيم وتخيف آماق تشوقت له النفوس فأخذ [illegible] في [illegible] مسروراً بحضوره ومتجملا به فأتى

بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الخجندي المتقدم الذكر في هذا التقييد المشهور المآثر والمكارم المقدم بين الاكابر والاعاظم ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي وهو يجلس به كل يوم سبت فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد وفي جوف الفرا كل الصيد آية الزمان وقرة عين الايمان رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتب العلية امام الجماعة وفارس حلبة هذه الصناعة والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة مالك أزمة الكلام في النظم والنثر والغائص في بحر فكره على نفائس الدر فأما نظمه فرضي الطباع مهياري الانطباع وأما نثره فيصدع بسحر البيان ويعطل المثل بقس وسحبان ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته انه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقرآن وعددهم ينيف على العشرين قارئا فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق فاذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات الى أن يتكاملوا قراءة وقد أتوا بآيات مشتبهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عددا أو يسميها نسقا فاذا فرغوا أخذ هذا الامام الغريب الشأن في ايراد خطبته عجلا مبتدرا وأفرغ في أصداف الاسماع من ألفاظه دررا وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء

خطبته فقرأ وأتى بها على نسق القراءة لها لا مقدماً ولا مؤخراً ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها فلو أن أبدع من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك فكيف بمن ينظمها مرتجلا ويورد الخطبة الغراء بها عجلا (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ن هذا لهو الفضل المبين) فحدث ولا حرج عن البحر وهيهات ليس الخبر عنه كالخبر ثم انه ثنى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقاً وذابت بها الانفس احتراقاً الى أن علا الضجيج وتردد بشهقاته النشيج وأعلن التائبون بالصياح وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعياً له ومنهم من يغشى عليه فيرفع في الاذرع اليه فشاهدنا هولاً يملأ النفوس انابة وندامة ويذكرها هول يوم القيامة فلو لم نركب ثبج البحر ونعتسف مفازات القفر الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة والوجهة المفلحة الناجحة والحمد لله على أن من بلقاء من يشهد الجمادات بفضله ويضيق الوجود عن مثله وفي أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل وتطير اليه الرقاع فيجاوب أسرع من طرفة عين وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا اله سواه ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه وهذا الموضع المذكور وهو من حرم الخليفة وخص بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من

الحرم ويفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور وقعدنا الى أن وصل هذا الحبر المتكلم فصعد المنبر وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعاً لحرمة المكان وقد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب وشوقوا ماشاؤا • وأطربوا ما أرادوا • وبادرت العيون بإرسال الدموع • فلما فرغوا من القراءة وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختامات صدع بخطبته الزهراء الغراء وأتي بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات ومشي الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب الى ان أكملها وكانت الآية (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس) فتمادى على هذا السنن • وحسن أي تحسين فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه • ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته وكنى عنها بالستر الاشرف • والجناب الأرأف ثم سلك سبيله في الوعظ • كل ذلك بديهة لا روية ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروآت على النسق مرة أخرى فأرسلت وابلها العيون وأبدت النفوس سر شوقها المكنون وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين وبالتوبة معلنين • وطاشت الالباب والعقول وكثر الوله والذهول وصارت النفوس لا تملك تحصيلا ولا تميز معقولا ولا تجد للصبر سبيلا • ثم في أثناء مجلسه ينشد أشعاراً من النسيب مبرحة التشويق بديعة الترقيق تشعل القلوب وجداً ويعود موضوعها النسيبي زهداً وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من

الاحترام وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام

أين فؤادي أذابه الوجد وأين قلبي فما صحا بعد

يا سعد زدني جوى بذكرهم بالله قل لي فديت يا سعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه الى أن خاف الافحام فابتدر القيام ونزل عن المنبر دهشاً عجلاً وقد أطار القلوب وجلاً وترك الناس على أحر من الجمر يشيعونه بالمدامع الحمر فمن معلن بالانتحاب ومن متعفر في التراب فياله من مشهد ما أهول مرآه وما أسعد من رآه نفعنا الله ببركته وجعلنا ممن فاز بنصيب من رحمته بمنه وفضله وفي أول مجالسه أنشد قصيداً نير القبس عراقي النفس في الخليفة أوله

في شغل من الغرام شاغل ما هاجه البرق بسفح عاقل

يقول فيه عند ذكر الخليفة

يا كلمات الله كوني عوذة من العيون للامام الكامل

فقرى بى ان شده وقد هز المجلس طربا ثم أخذ في شأنه وتمادى في ابراد سحر بيانه وما كنا نحسب أن متكلما في الدنيا يعطي من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطي هذا الرجل فسبحان من يخص بالكلام من يشاء من عبده لا إله غيره وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ممن يستغرب شأنه بالاضافة لما عهدناه من متكلمي الغرب وكنا قد شهدنا بمكة والمدينة شرفهما الله مجالس من قد ذكرناه في هذا التقييد فصغرت بالاضافة لمجلس هذا الرجل الفذ في نفوسنا قدراً ولم نستطب لها

ذكراً وأين تقعان مما أريد وشتان بين اليزيدين وهيهات الفتيان كثير والمثل بذلك يسير ونزلنا بعده بمجلس يطيب سماعه ويروق استطلاعه وحضرنا له مجلساً ثانياً يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضع المذكور بإزاء داره على الشط الشرقي فأخذت معجزته البيانية مأخذها فشاهدنا من أمره عجباً صدع بوعظه أنفاس الحاضرين سحباً وأسال من دمعهم وابلا سكباً ثم جعل يردد في آخر مجلسه أبيات من النسيب شوقاً زهدياً وطرباً الى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره والهاً مكتئباً وغادر الكل متندماً على نفسه منتحباً فمن ينادي ياحسرتا واحربا والندبون يدورون بحيهم دور الرحا وكل منهم بعد من سكرته ما صحا فسبحان من خلقه عبرة لاولي الالباب وجعله لتوبة عباده أقوى الاسباب لا اله سواه

(ثم نرجع الى ذكر بغداد) هي كما ذكرناه جانبان شرقي وغربي ودجلة بينهما فأما الجانب الغربي فقد عمه الخراب واستولى عليه وكان المعمور أولا وعمارة الجانب الشرقي محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة كل محلة منها مدينة مستقلة وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثة وثمان منها بجوامع يصلى فيها الجمعة فأكبرها القرية وهي التي نزلنا فيها بربض منها يعرف بمربعة على شط دجلة بمقربة من الجسر فحملته دجلة بمدها السيلي فعاد الناس يعبرون بالزوارق والزوارق فيها لا تحصى كثرة فالناس ليلا ونهاراً من تمادي العبور فيها في نزهة متصلة رجالا ونساء والعادة أن يكون لها جسران أحدهما مما يقرب من دور الخليفة والآخر فوقه لكثرة الناس والعبور في الزوارق لا ينقطع

منها ثم الكرخ وهي مدينة مسورة ثم محلة باب البصرة وهي أيضاً مدينة
وبها جامع المنصور رحمه الله وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيله
ثم الشارع وهي أيضاً مدينة فهذا الاربع أكبر المحلات وبين الشارع
ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهى مدينة صغيرة فيها المارستان
الشهير ببغداد وهو على دجلة وتتفقده الاطباء كل يوم اثنين وخميس
ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون اليه وبين
أيديهم قومة يتناولون طبخ الادوية والاغذية وهو قصر كبير فيه
المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل اليه من
دجلة وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها كالوسيطة وهى بين دجلة ونهر
يتفرع من الفرات وينصب في دجلة يجيء فيه جميع المرافق التي في
الجهات التي يسقيها الفرات ويشق على باب البصرة الذى ذكرنا محلته
نهر آخر منه وينصب أيضاً في دجلة ومن أسماء المحلات العتابية وبها
تصنع الثياب العتابية وهى حرير وقطن مختلفات الالوان ومنها الحربية
وهي أعلاها وليس وراءها الا القرى الخارجة عن بغداد الى أسماء
يطول ذكرها وباحدي هذه المحلات قبر معروف الكرخي وهو رجل
من الصالحين مشهور الذكر في الاولياء وفى الطريق الى باب
البصرة مشهد حفيل البنيان داخله قبر متسع السنام عليه
مكتوب هذا قبر عون ومعين من أولاد أمير المؤمنين على بن أبي
طالب رضى الله عنه وفى الجانب الغربى أيضاً قبر موسى بن جعفر
رضي الله عنهما الى مشاهد كثيرة ممن لم تحضرنا تسميته من الاولياء

والصالحين والسلف الكريم رضى الله عن جميعهم وبأعلى الشرقية
خارج البلد محلة كبيرة بأزاء محـلة الرصافة وبالرصافة كان باب
الطاق المشهور على الشط وفى تلك المحلة مشهد حفيل البنيان له قبة
بيضاء سامية في الهـواء فيه قبر الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وبه
تعرف المحلة وبالقرب من تلك المحلة قبر الامام أحمد بن حنبل رضي
الله عنه وفي تلك الجهة أيضاً قبر أبى بكر الشبلى رحمه الله وقبر الحسين
ابن منصور الحلاج وببغداد من قبور الصالحين كثير رضى الله عنهم
وللغربية هي البساتين والحدائق ومنها تجلب الفواكه الى الشرقية وأما
الشرقية فهي اليوم دار الخلافة وكفاها بذلك شرفاً واحتفالاً ودور
الخليفة مـع آخرها وهي تقع منها فى نحو الربع أو أزيد لأن جميع
العباسيين في تلك الديار معتقلين اعتقالاً جميلا لا يخرجون ولا يظهرون
ولهم المرتبات القائمة بهم وللخليفة من تلك الديار جزء كبير قد اتخذ
فيها المناظر المشرفة والقصور الرائقة والبساتين الانيقة وليس له اليوم
وزيراً انما له خديم يعرف بنائب الوزارة يحضر الديوان المحتوى على
أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الامـور وله قيم على جميع
الديار العباسية وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه
وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية يعرف بالصاحب مجد الدين
استاد الدار هذا لقبه ويدعى له أثر الدعاء للخليفة وهو قل ما يظهر
للعامة اشتغالا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها والتكفل
بمغالقها وتفقدها ليلا ونهاراً ورونق هذا الملك انما هو على الفتيان

والاحابش المجايب منهم فتى اسـمه خالص وهو قائد العسكرية كلها أبصرناه خارجاً أحد الايام وبين يديه وخلفه أمراء الاجناد من الاتراك والديلم وسواهم وحوله نحو خمسين سيفاً مسلولة في أيدى رجال قد احتفوا به فشاهدنا من أمره عجباً في الدهر وله القصور والمناظر على دجلة وقد يظهر الخليفة في بعض الاحيان بدجلة راكباً فى زورق وقد يصيد فى بعض الاوقات فى البرية وظهوره على حالة اختصار تعمية لامره على العامة فلا يزداد أمره مع تلك التعمية الا اشتهاراً وهو مع ذلك يحب الظهور للعامة ويؤثر التحبب لهم وهو ميمون النقيبة عندهم قد استسعدوا بأيامه رخاء وعدلا وطيب عيش فالكبير والصغير منهم داع له أبصرنا هذا الخليفة المذكور وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ويتصل نسبه الى أبي الفضل جعفر المقتدر بالله الى السلف فوقه من أجداده الخلفاء رضوان الله عليهم بالجانب الغربي أمام منظرته وقد انحدر عنها صاعداً في الزورق الى قصره بأعلى الجانب الشرقي على الشط وهو فى فتاء من سنه أشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه حسن الشكل جميل المنظر أبيض اللون معتدل القامة رائق الرواء سنه نحو الخمس وعشرين سنة لابساً ثوباً أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الاوبار الغالية القيمة المتخذة للباس الملوك مما هو كالفنك وأشرف متعمداً بذلك زي الاتراك تعمية لشأنه لكن الشمس لا تخفى وان سترت وذلك عشية يوم السبت

السادس لصفر سنة ثمانين وأبصرناه أيضاً عشي يوم الاحد بعده متطلعاً من منظرته المذكورة بالشرق الغربي وكنا نسكن بمقربة منها والشرقية حفيلة الاسواق عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله تعالى الذي أحصى كل شيء عدداً وبها من الجوامع ثلاثة كل يجمع فيها جامع الخليفة متصل بداره وهو جامع كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة مرافق الوضوء والطهور وجامع السلطان وهو خارج البلد ويتصل به قصور تنسب للسلطان أيضاً معروف بشاه شاه وكان مدبر أمر أجداد هذا الخليفة وكان يسكن هنالك فابتنى الجامع أمام مسكنه وجامع الرصافة وهو على الجانب الشرقي المذكور وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل وبالرصافة تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله فجميع جوامع البلد ببغداد المجمع فيها أحد عشر وأما حماماتها فلا تحصى عدة ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الالفي حمام وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل للناظر أنه رخام اسود صقيل وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لان شأنه عجيب يجلب من عين بين البصرة والكوفة وقد انبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار فهو يصير في جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب وقد انعقد فسبحان خالق ما يشاء لا إله سواه وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلا عن الاحصاء والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها وأعظمها وأشهرها

النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسمائة ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تصير الي الفقهاء المدرسين بها ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم ونخر مخلد فرحم الله واضعها الاول ورحم من تبع ذلك السنن الصالح وللشرقية أربعة أبواب فأولها وهو فى أعلى الشط باب السلطان ثم باب الظفرية ثم يليه باب الحلبة ثم باب البصلية هذه الابواب التى هى فى السور المحيط بها من أعلى الشط الى أسفله هو ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة وداخلها في الاسواق أبواب كثيرة وبالجملة فشأن هذه البلدة أعظم من أن يوصف وأين هى مما كانت عليه هى اليوم داخلة تحت قول حبيب

لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار

واتفق رحيلنا من بغداد الى الموصل أثر صلا العصر من يوم الاثنين الخامس عشر لصفر وهو الثامن والعشرون لمايه فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يوما ونحن فى صحبة الخاتونين خاتون بنت مسعود المتقدمة الذكر في هذا التقييد وخاتون أم معز الدين صاحب الموصل وأرض الاعاجم المتصلة بالدروب التى الى طاعة الامير مسعود والد إحدي الخاتونين المذكورتين وتوجه حاج خراسان وما يليها صحبة الخاتون الثالثة ابنة الملك الدقوس وطريقهم على الجانب الشرقى من بغداد وطريقنا نحن الى الموصل علي الجانب الغربي منها وهاتان الخاتونان هما

أميرنا هذا العسكر الذى توجهنا فيه وقائدناه والله لا يجعلنا تحت قول القائل ﴿ ضاع الرعيل ومن يقوده ﴾

ولها أجناد برسمها وزادها الخليفة جنداً يشيعونهما مخافة العرب الخفاجيين المضرين بمدينة بغداد وفي تلك العشية التي رحلنا فيها فجاءتنا خاتون المسعودية المترفة شبابا وملكاً وهي قد استقلت فى هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين الواحدة امام الاخرى وعليهما الجلال المذهبة وهما يسيران بها سير النسيم سرعة وليناً وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان وهي ظاهرة فى وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها وأمامها رعيل من فتيانها وجندها وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق ووراءها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة وعصبن رؤسهن بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بمذيلاتهن وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها وأبصرنا من نخوة الملك النسائي واحتفاله ونبة تهز الارض هزاً وتسحب أذيال الدنيا عزاً ويحق أن يخدمها العز ويكون لها هذا الهز فان مسافة مملكة أبيها نحو الاربعة أشهر وصاحب القسطنطينيه يؤدى اليه الجزية وهو من العدل في رعية على سيرة عجيبة ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية وأعلمنا أحد الحجاج من أهل بلدنا أن في هذا العام الذى هو عام تسعة وسبعين الخالي عنا استفتح من بلاد الروم نحو الخمسة وعشرين بلداً ولقبه عز الدين واسم أبيه مسعود وهذا الاسم غلب

عليه وهو عريق في المملكة عن جد فجد ومن شرف خاتون هذه
واسمها سلجوقة ان صلاح الدين استفتح آمد بلد زوجها نور الدين
وهي من أعظم بلاد الدنيا فترك البلد لها كرامة لأبيها وأعطاها مفاتيح
فبقي ملك زوجها بسببها وناهيك من هذا الشأن والملك ملك الحي
القيوم يؤتي الملك من يشاء لا إله سواه فكان مبيتنا تلك الليلة بأحدى
قري بغداد نزلناها وقد مضى هدء من الليل وبقرية منها دجيل وهو
نهر يتفرع من دجلة يسقي تلك القرى كلها وغدونا من ذلك الموضع
ضحى يوم الثلاثاء السادس عشر لصفر المذكور والقرى متصلة في
طريقنا فاتصل سيرنا الى أثر صلاة الظهر ونزلنا رأقما باقي يومنا ليلحقنا
من تأخر من الحاج ومن تجار الشم والموصل ثم رحلنا قبيل نصف
الليل وتمادى سيرنا الى أن ارتفع النهار فنزلنا قائلين ومريحين على رحيل
وأسرينا الليل كله فنزلنا مع الصباح بقرية من قرية تعرف (بالمثرية) من
أخصب القري وأفسحها ورحلنا من ذلك الموضع وأسرينا الليل كله
ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لصفر على شط دجلة
بقرية من حصن يعرف (بالمعشوق) يقال انه كان متنزها لزبيدة ابنة
عم الرشيد وزوجه رحمه الله وعلى قبالة هذا الموضع في الشط الشرقي
مدينة (سر من رأى) وهي اليوم عبرة من رأى أين معتصمها واثقها
ومتوكلها مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها الا بعض جهات منها
هي اليوم معمورة وقد أطنب المسعودي رحمه الله في وصفها ووصف
طيب هوائها ورائق حسنها وهي كما وصف وان لم يبق الا الاثر من

محاسنها والله وارث الارض ومن عليها لا إله غيره فأقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين وبيننا وبين مدينة تكريت مرحلة ثم رحلنا منه وأسرينا الليل كله فصبحنا تكريت مع الفجر من يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر وهو أول يوم من يونيه فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم •

﴿ ذكر مدينة تكريت حرسها الله تعالى ﴾

هي مدينة كبيرة واسعة الارجاء فسيحة الساحة حفيلة الاسواق كثيرة المساجد غاصة بالخلق أهلها أحسن أخلاقا وقسطا في الموازين من أهل بغداد ودجلة منها في جوفيها ولها قلعة حصينة على الشط هي قصبتها المنيعة ويطيف بالبلد سور قد أثر الوهن فيه وهي من المدن العتيقة المذكورة ورحلنا عشي اليوم المذكور وأسرينا طول الليل وأصبحنا يوم السبت الموافق عشرين منه بشط دجلة فنزلنا مريحين ومن ذلك الموضع يستصحب الماء ليوم وليلة فاستصحبناه ورحلنا ذلك اليوم ضحوة فأسرينا الى الليل ونزلنا لأخذ نفس راحة واختلاس سنة نوم فرو منا هنيهة ورحلنا وأسأدنا الى الصباح وتمادى سيرنا الى أن ارتفع النهار من يوم الاحد بعده فنزلنا قائلين بقرية على شط دجلة تعرف بالجديدة وبمقربة منها قرية كبيرة اجتزنا عليها تعرف بالعقر وعلى رأسها ربوة مرتفعة كانت حصناً لها وأسفلها خان جديد بأبراج وشرف حفيل البنيان وثيقه والقرى والعمائر من هذا الموضع الى

الموصل متصلة ومن هنا منتثر نظام الحاج فى المشى فينبسط كل في طريقه متقدما ومتأخراً وبطيئاً ومستعجلا آمناً مطمئناً فرحلنا منها قريب العصر وتمادي سيرنا الى المغرب ونزلنا آخذين غفوة سنة خلال ما تتعشي الابل ورحلنا قبل نصف الليل وأدلجنا الى الصباح وفي ضحوة هذا اليوم وهو يوم الاثنين الثانى والعشرين لصفر والرابع ليونيه مررنا بموضع يعرف (بالقيارة) بمقربة من دجلة وبالجانب الشرقى منها وعن يمين الطريق الى الموصل فيه وهدة من الارض سوداء كأنها سحابة قد أنبط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقار وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسط على الارض اسود أملس صقيلا رطباً عطر الرائحة شديد التعلك فيلصق بالاصابع لأول مباشرة من اللمس وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه الى جوانبها فيرسب قاراً فشاهدنا عجباً كنا نسمع به فنستغرب سماعه وبمقربة من هذه العيون على شط دجلة عين أخرى منه كبيرة أبصرنا على البعد منها دخاناً فقيل لنا ان النار تشعل فيه اذا أرادوا نقله فتنشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطعونه قطرات ويحملونه وهو يعم جميع البلاد الى الشام الى عكة الى جميع البلاد البحرية والله يخلق ما يشاء سبحانه وتعالى جده وجلت قدرته لا رب غيره ولا شك ان على هذه الصفة هي العين التى ذكر لنا أنها بين الكوفة والبصرة وقد ذكرنا أمرها في هذا التقييد ومن هذا الموضع الى الموصل

مرحلتان وأجزنا تلك العيون القارية ونزلنا قائلين ثم رحنا وسرنا الى العشى ونزلنا بقرية تعرف (بلعقية) ومنها تصبح الموصل ان شاء الله فأسرينا منها بعد نصف الليل ووصلنا الموصل عند ارتفاع النهار من يوم الثلاثاء الثالث والعشرين لصفر والخامس من يونيه ونزلنا بربضها فى أحد الخانات بقرية من الشط

﴿ ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى ﴾

هذه المدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمة قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن قد كادت أبراجها تلتقى انتظاماً لقرب مسافة بعضها من بعض وباطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله كان قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه وللمقاتلة في هذه البيوت حرز ووقاية وهي من المرافق الحربية وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصاً ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد الى أسفله ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وأبراجه في مائها وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق وأحدث فيه بعض أمراء البلدة وكان يعرف بمجاهد الدين جامعاً على شط دجلة ما أري وضع جامع أحفل منه بناء يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه وكل ذلك نقش في الآجر وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ويطيف به شبابيك حديد

تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها ولا أحسن
ووصفه يطول وإنما وقع الالماع بالبعض جرياً الى الاختصار وأمامه
مارستان حفيل من بناء مجاهد الدين المذكور وبنى أيضاً داخل البلد وفي
سوقه قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديد
وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض قد حلي ذلك كله في أعظم
صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له فما أرى في البلاد قيسارية
تعدلها وللمدينة جامعان أحدهما حديد والآخر من عهد بني أمية وفي
صحن هذا الجامع قبة داخلها سارية رخام قائم قد خلخل جيدها بخمسة
خلاخل مفتولة فتل السوار من حجر رخامها وفي أعلاها خصة رخام
مثمنة يخرج عليها أنبوب من الماء خروج انزعاج وشدة فيرتفع في الهواء
أزيد من القامة كأنه قضيب من البلور ممتد ثم ينعكس الى أسفل
القبة ويجمع في هذين الجامعين التسبيح والحديث ويجمع أيضاً في جامع
الربض وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح
كأنها قصور مشرفة وهذا المارستان حاشا الذي ذكرناه في الربض وخص
الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها مشهد جرجيس صلى الله عليه وسلم
وقد بني فيها مسجد وقبره في زاوية من أحد بيوت المسجد عن يمين
الداخل اليه وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر يجده
المار الى الجامع من باب الجسر عن يساره فتبركنا بزيارة هذا القبر
المقدس والوقوف عنده نفعنا الله بذلك ومما خص الله به هذه البلدة
ان في الشرق منها اذا عبرت دجلة على نحو الميل تل التوبة وهو التل

الذي وقف به يونس عليه السلام بقومه ودعا ودعوا حتي كشف الله عنهم العذاب وبمقربة منه على قدر الميل أيضاً العين المباركة المنسوبة اليه ويقال انه أمر قومه بالتطهر فيها واضمار التوبة ثم صعدوا على التل داعين وفي هذا التل بناء عظيم هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد وفي وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر وينغلق دونه باب كريم مرصع كله يقال انه كان الموضع الذي وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم ومحراب هذا البيت يقال انه كان بيته الذي كان يتعبد فيه ويطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظما فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ويتعبدون فيه وحول هذا الرباط قرى كثيرة ويتصل بها خراب عظيم يقال انه كان مدينة نينَوَى وهي مدينة يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر وفرج الابواب فيه بينة وأكوام أبراجه مشرفة بتنا بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر ثم صبحنا العين المباركة وشربنا من مائها وتطهرنا فيها وصلينا في المسجد المتصل بها والله ينفع بالنية في ذلك بمنه وكرمه وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة يستعملون أعمال البر فلا تلقى منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم وعندهم اعتدال فى جميع معاملاتهم فكان مقامنا في هذه البلدة أربعة أيام ومن أحفل المشاهد الدنيوية الغريبة بروز شاهدناه يوم الاربعاء ثاني يوم وصولنا الموصل للخاتونين أم معز الدين صاحب الموصل وبنت الامير مسعود المتقدم ذكرها

فخرج الناس عن بكرة أبيهم ركباناً ومشاة وخرج النساء كذلك وأكثرهن راكبات وقد اجتمع منهن عسكر جرار وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة قد جللوا أعناق ابلهم بالحرير الملون وقلدوها القلائد المزوقة ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الاكف وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات فلا تكاد تبين من القبة موضعاً ومطيتاها تزحفان بها زحفاً وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ومطاياها مجللة الاعناق بالذهب ومراكب جوار بها كذلك فمجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره وكان مشهداً أبهت الابصار وأحدث الاعتبار وكل ملك يفنى الاملاك الواحد القهار لا شريك له وأخبرنا غير واحد من الثقات ممن يعرف حال خاتون هذه انها موصوفة بالعبادة والخير مؤثرة لافعال البر فمنها انها أنفقت في طريقها هذا الى الحجاز في صدقات ونفقات في السبيل مالاً عظيماً وهي تحب الصالحين والصالحات وتزورهم متنكرة رغبة في دعائهم وشأنها عجيب كله على شبابها وانغماسها في نعيم الملك والله يهدي من يشاء من عباده وفي عشى اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة وهو يوم الجمعة السادس والعشرين لصفر المذكور رحلنا منها على دواب اشتريناها بالموصل تفاديا من معاملة الجمالين على ان القدر المحمود لم يسبب لنا الا صحبة الاشبه منهم ومن شكرنا على طول الصحبة وتمادیها من مكة شرفها الله الى الموصل فأسرينا ليلة السبت الى بعيد

نصف الليل ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور وقلنا بقرية تعرف بعين الرصد وكان مقيلنا تحت جسر معقود على واد يحد فيه الماء وكان مقيلا مباركا وفى تلك القرية خان كبير جديد وفي محلات الطريق كلها خانات واتفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة وأسرينا منها وأصبحنا يوم الاحد بقرية تعرف (بالمويلحة) وأسرينا منها وبتنا بقرية كبيرة تعرف (بجدال) لها حصن عتيق وفي يومنا هذا رأينا عن يمين الطريق جبل الجودى المذكور فى كتاب الله تعالى الذى استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل ثم رحلنا فى السحر الاعلى من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصفر فكان مبيتنا بقرية من قرى (نصيبين) ومنهـا اليها مرحلة ويعرف الموضع المذكور بالكلالى

﴿ شهر ربيع الاول من سنة ثمانين عرفنا الله بركته ﴾

استهل هلاله ليلة الثلاثاء بموافقة الثانى عشر من يونيو ونحن بالقرية المذكورة فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور ووصلنا نصيبين قبل الظهر من اليوم المذكور

﴿ ذكر مدينة نصيبين حرسها الله ﴾

شهيرة العتاقة والقدم ظاهرها شباب وباطنها هرم جميلة المنظر متوسطة بين الكبر والصغر يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه وتطرد فى نواحيه وتحف بها

عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار يانعة الثمار ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار والحدائق تتغلغل بحافتيه وتفيء ظلالها الوارفة عليه فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانى حيث يقول

طابت نصيبين لي يوماً فطبت لها يا ليت حظي من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضي الشمائل أندلسي الخمائل يرف غضارة ونضارة ويتألق عليه رونق الحضارة وداخلها شعث البادية بادعليه فلا مطمح للبصر اليه لا تجد العين فيه فسحة مجال ولا مسحة جمال وهذا النهر منسرب اليها من عين معينة منبعها بجبل قريب منها تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعمائرها ويتخلل البلد منها جزء فيتفرق على شوارعها ويلج فى بعض دبارها ويصل الى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحنه وينصب في صهريجين أحدهما وسط الصحن و لآخر عند الباب الشرقى منه ويفضى الى سقايتين حول الجامع وعلى النهر المذكور جسر معقود من صم الحجارة يتصل بباب المدينة القبلي وفيها مدرستان وبمارستان واحد وصاحبها معين الدين أخو معز الدين صاحب الموصل أبناء بابك ولمعين الدين أيضاً مدينة (سنجار) وهي عن يمين الطريق الى الموصل ويسكن في احدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم الشيخ أبو اليقظان الاسود الجسد الابيض الكبد أحد الاولياء الذين نور الله بصائرهم بالايمان وجعلهم من الباقيات الصالحات فى الزمان الشهير المقامات الموصوف بالكرامات نضو التبتل والزهادة ومن خالفت جدته العبادة قد اكتفى بنسج يده ولا يدخر من قوت يومه لغده أسعدنا

الله بلقائه وأصبحنا من بركة دعائه عشي يوم الثلاثاء مستهل ربيع الاول فحمدنا الله عز وجل على ان من علينا برؤيته وشرفنا بمصافحته والله ينفعنا بدعائه انه سميع مجيب لا اله سواه فكان نزولنا بها في خان خارجها وبتنا بها ليلة الاربعاء الثاني من ربيع الاول ورحلنا صبيحته في قافلة كبيرة من البغال والحمير حرانيين وحلبيين وسواهم من أهل البلاد وبلاد بكر وما يليها وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال فتمادي سيرنا الي أول الظهر ونحن على أهبة وحذر من اغارة الاكراد الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل الى نصيبين الي مدينة دنيصر يقطعون السبيل ويسعون فساداً في الارض وسكناهم في جبال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة ولم يعن الله سلاطينها على قمعهم وكف عاديتهم فهم ربما وصلوا في بعض الاحيان الى باب نصيبين ولا دافع لهم ولا مانع الا الله عز وجل فقلنا يوم الاربعاء المذكور ورأينا ذلك اليوم عن يمين طريقنا بقرب من صفح الجبل مدينة (داري العتيقة) وهي بيضاء كبيرة لها قلعة مشرف ويليها بمقدار نصف مرحلة مدينة (ماردين) وهي في سفح جبل في قنته قلعة لها كبيرة وهي من قلاع الدنيا الشهيرة وكلتا المدينتين معمورة

﴿ ذكر مدينة دنيصر حرسها الله ﴾

هي في بسيط من الارض فسيح وحولها بساتين الرياحين والخضر تسقي بالسواقي وهي مائلة الطبع الى البادية ولا سور لها وهي مشحونة

بشرا ولها الاسواق الحفيلة والارزاق الواسعة وهي مخطر لاهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم التي تلي طاعة الامير مسعود وما يليها ولها المحرث الواسع ولها مرافق كثيرة فكان نزولنا مع القافلة ببراح ظاهرها وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع الاول بها مريحين وخارجها مدرسة جديدة بقية البناء فيها ويتصل بها حمام والبساتين حولها فهي مدرسة ومأنسة وصاحب هذه البلدة قطب الدين وهو أيضاً صاحب مدينة (داري) ومدينة (ماردين) (ورأس العين) وهو قريب لابني بابك وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الاندلس كلهم قد تحلى بحلية تنسب الى الدين فلا تسمع الا ألقاباً هائلة وصفات لذي التحصيل غير طائلة قد تساوى فيها السوقة والملوك واشترك فيها الغني والصعلوك ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق أو اتصف بصفة هو بها خليق الا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن المشتهر بالفضل والعدل فهذا اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه وماسوى ذلك فسواه نزعازع ريح وشهادات يردها التجريح ودعوى نسبة للدين برحت به أي تبريح

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

(ونرجع) الى حديث المراحل قربها الله فكان مقامنا بدنيصر الى أن صلينا الجمعة وهو اليوم الرابع لربيع الاول تلوّم أهل القافلة بها لشهود سوقها لأن بها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الاحد بعدها سوق حفيلة يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها لأن الطريق كلها يميناً وشمالاً قرى متصلة وخانات

مشيدة ويسمون هذه السوق المجتمع اليها من الجهات البازار وأيام كل
سوق معلومة ورحلنا أثر صلاة الجمعة فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن
تعرف بتل العقاب هي للنصارى المعاهدين الذميين ذكرتنا هذه القرية
بقرى الاندلس حسناً ونضارة تحفها البساتين والكروم وأنواع الاشجار
وينسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه وخطها متسع والبساتين قد انتظمته
وشاهدنا بها من الخنانيص أمثال الغنم كثرة واستئناساً باهلها ثم وصلنا
عشى النهار الى قرية أخرى تعرف بالجسر هي الآن لناس من للمعاهدين
وهم فرقة من فرق الروم فكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس لربيع
المذكور ثم أسحرنا منها ووصلنا مدينة رأس العين قبيل الظهر من يوم
السبت المذكور •

﴿ ذكر مدينة رأس العين حرسها الله تعالى ﴾

هذا الاسم من أصدق الصفات وموضوع هذه أشرف الموضوعات
وذلك أن الله تعالى فجّر أرضها عيوناً وأجراها ماء معيناً فتقسمت
مذانب وانسابت جداول تنبسط فى مروج خضر فكأنها سبائك
اللجين ممدودة في بساط الزبرجد تحف بها أشجار وبساتين قد انتظمت
حافيتها الى آخر انتهائها من عمارة بطحائها وأعظم هذه العيون عينان
احداها فوق الاخرى فالعليا منهما نابعة فوق الارض في صم الحجارة
كأنها فى جوف غار كبير متسع يبسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج
العظيم ثم يخرج ويسيل نهراً كبيراً كأكبر ما يكون من الانهار وينتهى

الى العين الاخرى ويلتقي بمائها وهذه العين الثانية عجيب من عجائب مخلوقات الله عز وجل وذلك أنها نابعة تحت الارض من الحجر الصلد نحو أربع قامات أو أزيد ويتسع منبعها حتى يصير صهريجاً في ذلك العمق ويعلو بقوة نبعه حتى يسيل على وجه الارض فربما يروم السابح القوي السباحة الشديد الغوص في اعماق المياه أن يصل بغوصه الى قعره فيمجه الماء بقوة انبعاثه من منبعه فلا يتناهى في غوصه الى مقدار نصف مسافة العمق أو أقل شيئاً شهدت ذلك عياناً وماؤها أصفى من الزلال وأعذب من السلسبيل يشف عما حواه فلو طرح الدينار فيه في الليلة الظلماء لما أخفاه ويصاد فيها سمك جليل من أطيب ما يكون من السمك وينقسم ماء هذه العين نهرين أحدهما آخذ يميناً والآخر يساراً فالايمن يشق خانقة مبنية للصوفية والغرباء بازاء العين وهي تسمى الرباط أيضاً والايسر ينسرب على جانب الخانقة وتفضى منه جداول الى مطاهرها وصهاريجها المعدة للحاجة البشرية ثم يلتقيان أسفلها مع نهر العين الاخرى العليا وقد بنيت على شط نهرهما المجتمع بيوت أرحى تتصل على شط موضوع ومحط النهر كأنه سد ومن مجتمع هذين العينين منشأ نهر الخابور وبمقربة من هذه الخانقة بحيث تنظرها (مدرسة) بازائها حمام وكلاهما قد وهي وأخلق وتعطل وما أرى كان في موضوعات الدنيا مثل موضوع هذه المدرسة لانها في جزيرة خضراء والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب والمدخل اليها من جانب واحد وأمامها وورائها بستان وبازائها دولاب يلقي الماء الى بساتين مرتفعة عن مصب

النهر وشأن هذا الموضع كله عجيب جداً فغاية حسن القرى بشرق الاندلس أن يكون لها مثل هذا الموضع جمالا أو تحلى بمثل هذه العيون ولله القدرة فى جميع مخلوقاته وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء وللحضارة عنها استغناء لا سور يحصنها ولا دور أنيقة البناء تحسنها قد ضحيت في صحراؤها كأنها عوذة لبطحاؤها وهي مع ذلك كاملة مرافق المدن ولها جامعان حديث وقديم فالقديم بموضع هذه العيون وتنفجر أمامه عين معينة هي بدون التين ذكرناها وهو من بنيان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لكنه قد أثر القدم فيه حتى آذن بتداعيه والجامع الآخر داخل البلد وفيه يجمع أهله فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة لم نختلس فى سفرنا كله مثلها فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور وهو السادس عشر ليونيه رحلنا منها رغبة في الآساد وبرد الليل وتفاديا من حر هجيرة التأويب لان منها الى حران مسيرة يومين لا عمارة فيها سيرنا فتمادى الى الصبح ثم نزلنا فى الصحراء على ماء جب وأرحنا قليلا ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الاحد وسرنا ونزلنا قريب العصر على ماء بئر بموضع فيه برج مشيد وآثار قديمة يعرف ببرج حوّاء فبتنا به ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة وأسرينا الى الصباح فوصلنا مدينة حران مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور والثامن عشر ليونيه والحمد لله على تيسيره •

﴿ ذكر مدينة حران كلاها الله تعالى ﴾

بلد لا حسن لديه ولا ظل يتوسط بردَيهِ قد اشتق من اسمه

هواؤه فلا يألف البرد ماؤه ولاتزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه لاتجد فيه مقيلا ولا تتنفس منه الا نفساً ثقيلا قد نبذ بالعراء ووضع في وسط الصحراء فعدم رونق الحضارة وتعرت أعطافه من ملابس النضارة أستغفر الله كفى بهذا البلد شرفا وفضلا انها البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا ابراهيم صلى الله عليه وسلم وله بقبليها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك فيه عين جارية كان مأوي له ولسارة صلوات الله عليما ومتعبداً لهما ببركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدة مقراً للصالحين المتزهدين ومثابة للسائحين المتبتلين لقينا من افرادهم الشيخ أبا البركات حيان ابن عبد العزيز حذاء مسجده المنسوب اليه وهو يسكن منه في زاوية بناها في قبلته وتتصل بها في آخر الجانب زاوية لابنه عمر قد التزمها وأشبه طريقة أبيه فما ظلم وتعرفت منه شنشنة أعرفها من أخزم فوصلنا الى الشيخ وهو قد نيف على الثمانين فصافحنا ودعا لنا وأمرنا بلقاء ابنه عمر المذكور فملنا اليه ولقيناه ودعا لنا ثم ودعناهما وانصرفنا مسرورين بلقاء رجلين من رجال الآخرة ولقينا أيضاً بمسجد عتيق الشيخ الزاهد سلمة فلقينا رجلا من الزهاد الافراد فدعا لنا وسألنا وودعناه وانصرفنا وبالبلد سلمة آخر يعرف بالمكشوف الرأس لا يغطي رأسه تواضعاً لله عز وجل حتى عرف بذلك ووصلنا الى منزله فاعلمنا انه خرج للبرية سائحاً وبهذه البلدة كثير من أهل الخير وأهلها هينون معتدلون يحنون للغرباء مؤثرون للفقراء وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة الى الشام على هذه السبيل

من حب الغرباء واكرام الفقراء وأهل قراها كذلك فما يحتاج الفقراء الصعاليك منهم زاداً لهم في ذلك مقاصد فى الكرم مأثورة وشأن أهل هذه الجهات فى هذا السبيل عجيب والله ينفعهم بما هم عليه وأما عبّادهم وزهادهم والسائحون فى الجبال منهم فأكثر من أن يقيدهم الاحصاء والله ينفع المسلمين ببركاتهم وصوالح دعواتهم عنه وكرمه ولهذه البلدة المذكورة أسواق حفيلة الانتظام عجيبة الترتيب مسقفة كلها بالخشب فلا يزال أهلها فى ظل ممدود فتخترقها كأنك تخترق داراً كبيرة الشوارع قد بني عند كل ملتقى أربع سكك أسواقمنها قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص هي كالمفرق لتلك السكك ويتصل بهذه الاسواق جامعها المكرم وهو عتيق مجدد قد جاء على غاية الحسن وله صحن كبير فيه ثلاثة قباب مرتفعة على سواري رخام وتحت كل قبة بئر عذبة وفي الصحن أيضاً قبة رابعة عظيمة قد قامت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبراً وهذه القبة من بنيان الروم وأعلاها مجوف كأنه البرج المشيد يقال انه كان مخزناً لعدتهم الحربية والله أعلم والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنايا وخشبه عظام طوال لسعة البلاط وسعته خمس عشر خطوة وهو خمسة أبلطة وما رأينا جامعاً أوسع حنايا منه وجداره المتصل بالصحن الذى عليه المدخل اليه مفتح كله أبوابا عددهم تسعة عشر بابا تسعة يميناً وتسعة شمالا والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب يمسك قوسه من أعلى الجدار الى

أسفله بهي المنظر جميل الوضع كأنه باب من أبواب المدن الكبار وهذه الابواب كلها اغلاق من الخشب البديع الصنعة والنقش تنطبق عليها على شبه أبواب مجالس القصور فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع وحسن ترتيب أسواقه المتصلة به مرآي عجيباً قل ما يوجد في المدن مثل انتظامه وهذه البلدة مدرسة ومارستان وهي بلدة كبيرة وسورها متين حصين مبنيّ بالحجارة المنحوتة المرصوص بعضها على بعض في نهاية من القوة وكذلك بنيان الجامع المكرم ولها قلعة حصينة مما يلي الجهة الشرقية منها منقطعة عنها بفضاء واسع بينهما ومنقطعة أيضاً عن سورها بخفير عظيم يستدير بها قد شيدت حافاته بالحجارة المركومة فجاء في نهاية الوثاقة والقوة وسور القامة وثيق الحصانة وهذه البلدة نهير يجراه بالجهة الشرقية أيضاً منها بين سورها وجبانتها ومصبه من عين هي على بعد من البلد والبلد كثير الخلق واسع الرزق حاصل البركة كثير المساجد جم المرافق على أحفل ما يكون من المدن وصاحبه مظفر الدين بن زين الدين وطاعته الى صلاح الدين وهذه البلاد كلها من الموصل الى نصيبين الى الفرات المعروفة بديار ربيعة وحده من نصيبين الي الفرات مع مايلي الجنوب من الطريق وديار بكر التي تليها في الجانب الجوفي كآمد وميا فارقين وغيرها مما يطول ذكره ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين فهم الي طاعته وان كانوا مستبدين وفضله يبقي عليهم ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله فكان نزولنا ظاهر البلد بشرقيه على نهيره المذكور وأقمنا مريحين يوم الاثنين

ويوم الثلاثا بعده وأثر الظهر منه كان اجتماعنا بسلمة للكشوف الرأس الذى فاتنا لقاؤه يوم الاثنين فلقيناه بمسجده فرأينا رجلا عليه سيما الصالحين وسمت المحبين مع طلاقة وبشر وكرم لقاء وبر فآنسنا ودعا لنا وودعناه وانصرفنا حامدين لله عز وجل على ما من به علينا من لقاء أوليائه الصالحين وعباده المقربين وفي ليلة الاربعاء التاسع لربيع المذكور كان رحيلنا بعد تهويم ساعة فأسرينا الى الصباح ونزلنا مريحين بموضع يعرف بتل عبدة وهو موضع عمارة وهذا التل مشرف متسع كأنه المائدة المنصوبة وفيه أثر بناء قديم وبهذا الموضع ماء جار وكان رحيلنا منه عند المغرب وأسرينا الليل كله واجتزنا على قرية تعرف بالبيضاء فيها خان كبير جديد وهو نصف الطريق من حران الى الفرات ويقابلها على اليمين من الطريق في استقبالك الفرات الى الشام مدينة سروج التي شهر ذكرها الحريرى بنسبة أبي زيد اليها وفيها البساتين والمياه المطردة حسبما وصفها به فى مقاماته فكان وصولنا الى الفرات ضحوة النهار وعبرنا في الزواريق المعدة للعبور الى قلعة جديدة على الشط تعرف بقلعة نجم وحولها ديار بادية وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبز فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الاول المذكور مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور واذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام وسرت في طاعة صلاح الدين الى دمشق والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر وعن يسار الطريق في استقبالك الفرات الى الشام مدينة الرقة وهى على الفرات وتليها رحبة مالك بن طوق

وتعرف برحبة الشام وهي من المدن الشهيرة ثم رحلنا منها عند مضى ثلث الليل الاول وأسرينا ووصلنا مدينة منبج مع الصباح من يوم الجمعة الحادى عشر لربيع المذكور والثانى والعشرين ليونيه

﴿ ذكر مدينة منبج حرسها الله تعالى ﴾

بلدة فسيحة الارجاء صحيحة الهواء يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء جوها صقيل ومجتلاها جميل ونسيمها أرج النشر عليل نهارها يتندى ظله ولياليها كما قيل فيه سحر كله تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الاشجار مختلفة الثمار والماء يطرد فيها ويتخلل جميع نواحيها وخصص الله داخلها بآبار معينة شهدية العذوبة سلسبيلة المذاق تكون في كل دار منها البئر والبئران وأرضها أرض كريمة تستنبط مياهاً كلها وأسواقها وسككها فسيحة متسعة ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً وأعالي أسواقها مسقفة وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن من هذه الجهات لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الاحقاب حتى أخذ منها الخراب كانت من مدن الروم العتيقة ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها ولها قلعة حصينة في جوفها تنقطع عنها وتحاز منا ومدن هذه الجهات كلها لا تخلو من القلاع السلطانية وأهلها أهل فضل وخير سنيون شافعيون وهي مطهرة مهم من أهل المذاهب المنحرفة والعقائد الفاسدة كما تجده فى الاكثر من هذه البلاد فعاملتهم صحيحة وأحوالهم مستقيمة وجادتهم الواضحة

في دينهم من اعتراض بنيات الطريق سايمة فكان نزولنا خارجها في أحد بساتينها وأقمنا يوماً مريحين ثم رحلنا نصف الليل ووصلنا بزاعة ضحوة يوم السبت الثاني عشر لربيع المذكور

﴿ذكر بلدة بزاعة كلأها الله عز وجل﴾

بقعة طيبة الثرى واسعة الذرى تصغر عن المدن وتكبر عن القرى بها سوق تجمع بين المرافق السفرية والمتاجر الحضرية وفي أعلاها قلعة كبيرة حصينة رامها أحد ملوك الزمن فغاظته باستصعابها فأمر بثلم بنائها حتى غادرها عودة مسبوذة لعرائه ولهذه البلدة عين معينة يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة وتريك برونقها الانيق حسن الحضارة ويناظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة تعرف بالباب هي باب بين بزاعة وحلب وكان يعمرها منذ ثماني سنين قوم من الملاحدة الاسماعيلية لا يحصي عددهم الا الله فطار شرارهم وتمنع هذه السبيل فسادهم واضرارهم حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبية وحركتهم الآنفة والحمية فتجمعوا من كل أوب عليهم ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم وعجلوا بقطع دابرهم وكومت بهذه البطحاء جماجمهم وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم وأحاق بهم مكرهم والحمد لله رب العالمين وسكانها اليوم قوم سنيون فأقمنا بها يوم السبت ببطحاء هذه البلدة مريحين ورحلنا في الليل وأسرينا الى الصباح ووصلنا مدينة حلب ضحوة يوم الاحد الثالث عشر لربيع الاول والرابع والعشرين ليونيه

﴿ ذكر مدينة حلب حرسها الله تعالى ﴾

بلدة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير محلها من النفوس أثير فكم هاجت من كفاح وسلت عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع معدومة الشبه والنظير فى القلاع تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع قاعدة كبيرة ومائدة من الارض مستديرة منحوتة الارجاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها عتيقة فى الأزل حديثة وان لم تزل قد طاولت الايام والاعوام وشيعت الخواص والعوام هذه منازلها وديارها فأين سكانها قديماً وعمارها وتلك دار مملكتها وفناؤها فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها أجل فنى جميعهم ولم يأن بعد فناؤها فيا عجبا للبلاد تبقى وتذهب أملاكها ويهلكون ولا يقضى هلاكها تخطب بعدهم فلا يتعذر ملاكها وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها هذه حلب كم أدخلت من ملوكها فى خبر كان ونسخت ظرف الزمان بالمكان أنث اسمها فتحلت بزينة الغوان ودانت بالغدر فيمن خان وتجلت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان هيهات هيهات سيهرم شبابها ويعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وتتطرف جنبات الحوادث اليها حتى يرث الله الارض ومن عليها لا اله سواه سبحانه جلت قدرته وقد خرج بنا الكلام عن مقصده فلنعد الى ما كنا بصدده فنقول ان من شرف هذه القلعة انه يذكر

انها كانت قديماً في الزمان الاول ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم بغنيمات له فيحلبها هنك ويتصدق بلبنها فلذلك سميت حلب والله أعلم وبها مشهد كريم له يقصده الناس ويتبركون بالصلاة فيه ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع ان الماء بها نابع وقد صنع عليه جبابتان فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر والطعام يصبر فيها الدهر كله وليس في شروط الحصانة أهم ولا أكد من هاتين الخلتين ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلد ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه والماء ينبع فيه وشأن هذه القلعة في الحصانة والحسن أعظم من أن ننتهي الى وصفه وسورها الاعلى كله أبراج منتظمة فيها العلالي المنيفة والقصاب المشرفة قد تفتحت كلها طيقاناً وكل برج منها مسكون وداخلها المساكن السلطانية والمنازل الرفيعة الملوكية وأما البلد فموضوعه ضخم جداً حفيل التركيب بديع الحسن واسع الاسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة الى سماط صنعة أخرى الى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب فسكانها في ظلال وارفة وكل سوق منها تقيد الابصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائي الرياضية وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش

وتفتحت كلها حو انيت فجاءمنظرها أجمل منظر وكل سماط منها يتصل
بباب من أبواب الجامع المكرم وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها
قد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع مفتح كله أبواباً قصرية
الحسن الى الصحن عددها ينيف عن الخمسين باباً فيستوقف الابصار
حسن منظرها وفي صحنه بئران معينتان والبلاط القبلي لا مقصورة فيه
فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها
فى منبره فما أرى فى بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته واتصلت
الصنعة الخشبية منه الى المحراب فتجللت صفحاته كلها حسناً على تلك الصفة
الغريبة وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتي اتصل بسمك
السقف وقد قوس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية وهو
مرصع كله بالعاج والآبنوس واتصال الترصيع من المنبر الي المحراب
مع ما يليهما من القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال فتجتلي العيون منه
أبدع منظر يكون فى الدنيا وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن
يوصف ويتصل به من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع
حسناً واتقان صنعة فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى وهذه المدرسة
من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ومن أظرف ما
يلاحظ فيها ان جدارها القبلى مفتح كله بيوتاً وغرفاً لها طيقان يتصل
بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً فحصل
لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها فيمد
الساكن فيها يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولامشقة ولبلدة سوى

هذه المدرسة نحو أربع مدارس أو خمس ولها مارستان وأمرها في الاحتفال عظيم فهي بلدة تليق بالخلافة وحسنها كله داخل لا خارج لها الا نهر يجرى من جوفيها الى قبليها ويشق ربضها المستدير بها فان لها ربضاً كبير فيه من الخانات ما لا يحصى عدده وبهذا لنهر الارجاء وهى متصلة بالبلد وقائمة وسط ربضه وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله وكيف ما كان الامر فيه دخلا وخارجاً فهو من بلاد الدنيا التى لا نظير لها والوصف فيه يطول فكان نزولنا بربضة في خان يعرف بخان أبي الشكر فأقمنا به أربعة أيام ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور والثامن والعشرين ليونيه ووصلنا (قنسرين) قبيل العصر فأرحنا بها قليلا ثم انتقلنا الى قرية تعرف (بتل تاجر) فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة الثامن عشر منه وقنسرين هــذه هي البلدة الشهيرة في الزمان لكنها خربت وعادت كأن لم تغن بالامس فلم يبق الا آثارها الدارسة ورسومها الطامسة ولكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولا وتشبهها من البلاد الاندلسية جيان ولذلك يذكر ان أهل قنسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيان تأنساً بشبه الوطن وتعللا به مثل ما فعل فى أكثر بلادها حسب ما هــو معروف ثم رحلنا من ذلك الموضع عند الثلث الماضى من الليل فأسرينا وسرنا الى ضحوة من النهار ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقــدين في خان كبير يعرف بخان التركمان وثيق الحصانة وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعا وحصانة وأبوابها حديد وهي من الوثاقة

في غاية ثم رحلنا من هـذا الموضع وبتنا بموضع يعرف بتمنى في خان وثيق على الصفة المذكورة ثم أسحرنا منه يوم السبت التاسع عشر لربيع الاول المذكور وهو آخر يوم من يونيه ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين يوم الجمعة المذكور بلاد (المعرة) وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقا ووراءها جبل (لبنان) وهو سامي الارتفاع ممتد الطول يتصل من البحر الى البحر وفي صفحته حصون للملاحدة الاسماعيلية فرقة مرقت من الاسلام وادعت الالهية فى أحد الانام قيض لهم شيطان من الانس يعرف بسنان خدعهم بأباطيل وخيالات موّه عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها فاتخذوه آلهاً يعبدون ويبذلون الانفس دونه وحصلوا من طاعته وامتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردي ويستعجل فى مرضاته الردى والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء بقدرته نعوذ به سبحانه من الفتنة في الدين ونسأله العصمة من ضلال الملحدين لا رب غيره ولا معبود سواه وجبل لبنان المذكور هو حد بين بلاد المسلمين والافرنج لان وراءه انطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم أعادها للمسلمين وفي صفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الاكراد هو للافرنج ويغيرون منه على حماة وحمص وهو بمرأى العين منهما فكان وصولنا الى مدينة حماة في الضحى الاعلى من يوم السبت المذكور فنزلنا بربضها فى أحد خاناته

﴿ ذكر مدينة حماة حماها الله تعالى ﴾

مدينة شهيرة فى البلدان قديمة الصحبة للزمان غير فسيحة الفناء
ولا رائقة البناء اقطارها مضمومة وديارها مركومه لايهش البصر اليها
عنـد الاطلال عليها كانها تكن بهجتها وتخفيها فتجد حسنها كامناً فيها
حتى اذا جست خلالها وتقرت ظلالها أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً تتسع
في تدفقه اساليبه وتتناظر بشطيه دواليبه قد انتظمت طرتيه بساتين
تتهدل أغصانها عليـه وتلوح خضرتها عذاراً بصفحتيه ينسرب فى
ظلالها وينساب علي سمت اعتدالها وبأحد شطيه المتصل بربضها مطاهر
منتظمة بيوتا عـدة يخترق الماء أحد دواليبه جميع نواحيها فلا يجد
المغتسل أثر أذي فيها وعلى شطه الثاني المتصل بالمدينـة اسفل جامع
صغير قد فتح جداره الشرقي عليه طيقانا تجتلى منها منظراً ترتاح النفس
اليه وتتقيد الابصار لديه و بأزاء ممر النهر بجوفى المدينة قلعة حلبية الوضع
وان كانت دونها في الحصانة والمنع سرّب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها
فهى لا تخاف الصدي ولا تهيب مرام العدي وموضع هذه المدينة فى
وهدة من الارض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق يرتفع لها جانبان
أحدهما كالجبل المطل والمدينة العليا متصلة بصفح ذلك الجانب الجبلى
والقلعة فى الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة قـد تولى
نحتها الزمان وحصل لها بحصانتها من كل عدو الامان والمدينة السفلى
تحت القلعة متصلة بالجانب الذى يصب النهر عليه وكلتا المدينتين صغيرتان

وسور المدينــة العليا يمتد على رأس جانبه العلى الجبلى ويطيف بها
وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لان جانبها المتصل
بالنهر لايحتاج الى صور وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة يتصل
من المدينة السفلى الى ربضها وربضها كبير فيــه الخانات والديار وله
حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته الى أن يفرغ لدخول المدينــة
وأسواق المدينة العليا أحفل وأجــل من أسواق المدينة السفلى وهي
الجامعة لجميع الصناعات والتجارات وموضوعها حسن التنظيم بديع
الترتيب والتقسيم ولهــا جامع أكبر من الجامع الاسفل ولهــا ثلاث
مدارس ومارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير ومخارج هــذه
البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثره شجرات الاعناب وفيه
المزارع والحارث وفي منظره انشراح للنفس وانفساح والبساتين متصلة
على شطي النهر وهو يسمى العاصى لان ظاهره انحداره من سفل
الى علو ومجراه من الجنوب الى الشمال وهو يجتاز علي قبــلى حمص
وبمقربة منها فكان مقامنا بحماة الى عشى يوم السبت المذكور ثم رحلنا
منها وأسرينا الليل كله وأجزنا في نصفه هــذا النهر العاصى المذكور
على جسر كبير معقود من الحجارة وعليه مدينة (رستن) التي خربها عمر
بن الخطاب رضى الله عنه وآثارها عتيدة ويذكر الروم القسطنطيليون
أن بها أموالا جمة مكنوزة والله أعلم بذلك فوصلنا الى مدينة حمص
مع شروق الشمس من يوم الاحــد الموفي عشرين لربيع [الاول]
وهو أول يوليه فنزلنا بظاهرها بخان السبيل

﴿ ذكر مدينة حمص حرسها الله تعالى ﴾

هي فسيحة الساحة مستطيلة المساحة نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة موضوعة في بسيط من الارض عريض مداه لايخترقه النسيم بمسراه يكاد البصر يقف دون منتهاه أفيح أغبر لا ماء ولا شجر ولا ظل ولا ثمر فهي تشتكي ظماءها وتستقي على البعد ماءها فيجلب لها من نهيرها العاصي وهو منها بنحو مسافة الميل وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها وتستغرب نضرتها ومنبعه في مغارة بصفح جبل فوقها بمرحلة بموضع يقابل (بعلبك) أعادها الله وهي عن يمين الطريق الى دمشق وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم اياه وبعدهم في ذلك أهل حلب فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه فان الهواء النجدى في الصحة شقيقه وقسيمه وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة عاصية غير مطيعة قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه هو سيف الله المسلول ومعه قبر أبيه عبد الرحمن وقبر عبيد الله بن عمر رضى الله عنهم وأسوار هذه المدينة في غاية العتاقة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود وأبوابها أبواب حديد سامية الاشراف هائلة المنظر رائعة الاطلال والانافة تكتنفها الابراج المشيدة الحصينة وأما داخلها فما شئت من بادية شعثاء خلقة الارجاء ملفقة البناء لا اشراق لآفاقها ولا رونق لاسواقها كاسدة لا عهد لها

بتفاقها وما ظنك ببلد حصن الاكراد منه على أميال يسيرة وهو معقل العدو فهو منه تترائى ناره ويحرق اذا يطير شراره ويتعهد اذا شاء كل يوم مغاره وسألنا أحد الاشياخ بهذه البلدة هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات فقال وقد أنكر ذلك حمص كلها مارستان وكفاك تبييناً شهادة أهلها فيها وبها مدرسة واحدة وتجد فى هذه البلدة عند اطلالك عليها من بعد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة (اشبيلية) من بلاد الاندلس يقع للحين في نفسك خياله وبهذا الاسم سميت فى القديم وهي العلة التى أوجبت نزول الاعراب أهل حمص فيها حسبما يذكر وهذا التشبيه وان لم يكن بذاته فله لمحة من احدى جهاته فأقمنا بها يوم الاحد المذكور ويوم الاثنين بعده وهو الثانى ليوليه الى أول الظهر ورحلنا منها وتمادى سيرنا الى العشى ونزلنا بقرية خربة تعرف (بالمشعر) فعشينا بها الدواب ثم رحلنا عند المغرب وأسرينا طول ليلتنا وتمادى سيرنا الى الضحى الاعلى من يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من الشهر المذكور ونزلنا بقرية كبيرة للنصاري المعاهدين تعرف (بالقارة) ليس فيها من المسلمين أحد وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد في وسطه سهريج كبير مملوء ماء يتسرب له تحت الارض من عين على البعد فهو لايزال ملآن فأرحنا بالخان المذكور الى الظهر ثم رحلنا منه الى قرية تعرف (بالنبك) بها ماء جار ومحرث متسع فنزلنا بها للتعشية ثم رحلنا منها بعد اختلاس تهويمة خفيفة وأسرينا الليل كله فوصلنا الى (خان السلطان) مع الصباح وهو خان بناه صلاح

الدين صاحب الشام وهو في نهاية الوثاقة والحسن بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها واحتفالهم في تشييدها وفى هذا الخان ماء جار يتسرب الى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج ولها منها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ثم يغوص فى سرب فى الارض والطريق من حمص الى دمشق قليل العمارة الا في ثلاثة مواضع أو أربعة منها هذه الخانات المذكورة فأقمنا يوم الاربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور مستريحين ومستدركين للنوم الى أول الظهر ثم رحلنا وجزنا (بثنية العقاب) ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها وعند هذه الثنية مفرق طريقين احداهما التي جئنا منها والثانية آخذة شرقا فى البرية على السماوة الى العراق وهي طريق قصد لكنها لا تدخل الا فى الشتاء فانحدرنا منها بين جبال في بطن واد الي البسيط ونزلنا منه بموضع يعرف بالقصير فيه خان كبير والنهر جار أمامه ثم رحلنا منــه مع الصبح وسرنا في بساتين متصلة لا يوصف حسنها ووصلنا دمشق في الضحي الأعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الاول والخامس ليوليه والحمد لله رب العالمين

﴿ شهر ربيع الآخر ﴾

استهل هلاله يوم الاربعاء بموافقة الحادي عشر ليوليه ونحن بدمشق نازلين فيها بدار الحديث غربي جامعها المكرم

﴿ ذكر مدينة دمشق حرسها الله تعالى ﴾

جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين وتزينت في منصتها أجمل تزيين وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها الى ربوة ذات قرار ومعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظمأ فتكاد تناديك بها الصم الصلاب

(أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) قد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر فكل موضع لحظته بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد النظر ولله صدق القائلين عنها ان كانت الجنة في الارض فدمشق لا شك فيها وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها

﴿ ذكر جامعها المكرم شرفه الله تعالى ﴾

هو من أشهر جوامع الاسلام حسناً واتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال تنميق وتزيين وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه ومن عجيب شأنه انه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ولا

تلم به الطير المعروفة بالخطاف انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه الله ووجه الى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره باشخاص اثنى عشر ألفاً من الصناع من بلاده وتقدم اليه بالوعيد في ذلك ان توقف عنه فامتثل أمره مذعناً بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك مما هو مذكور فى كتب التواريخ فشرع فى بنائه وبلغت الغاية في التأنق فيه وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفسا وخلطت بها أنواع من الاصبغة الغريبة قد مثلت أشجاراً وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببدائع من الصنعة الانيقة المعجزة وصف كل واصف فجاء يغشى العيون وميضا وبصيصاً وكان مبلغ النفقة فيه حسبما ذكره ابن المعلي الاسدى فى جزء وصفه في ذكر بنائه مائة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار ومائتا الف دينار فكان مبلغ الجميع احدى عشر الف الف دينار ومئتا الف دينار والوليد هذا (هو) الذى أخذ نصف الكنيسة الباقية منه فى أيدى النصاري وأدخلها فيه لانه كان قسمين قسما للمسلمين وهو الشرقى وقسما للنصاري وهو الغربي لان أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه دخل البلد من الجهة الغربية فانتهي الى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى ودخل خالد بن الوليد رضى الله عنه عنوةً من الجانب الشرقى وانتهى الى النصف الثانى وهو الشرقى فاحتازه المسلمون وصيروه مسجد وبقى النصف المصالح عليه وهو الغربي كنيسة بأيدى النصارى الى أن عوضهم منه الوليد فأبوا ذلك فانتزعه منهم قهراً وطلع لهدمه بنفسه وكانوا يزعمون ان الذى يهدم

كنيستهم يجن فبادر الوليد وقال أنا أول من يجن في الله وبدأ الهدم بيده فبادر المسلمون وأكملوا هدمه واستعد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيام خلافته وأخرجوا العهد الذى بأيديهم من الصحابة رضي الله عنهم في إبقائه عليهم فهم بصرفه اليهم فأشفق المسلمون من ذلك ثم عوضهم منه بمال عظيم أرضاهم به فقبلوه ويقال ان أول من وضع جداره القبلى هو النبي عليه الصلاة والسلام وكذلك ذكر ابن المعلى فى تاريخه والله أعلم بذلك لا اله سواه وقرأنا في فضائل دمشق عن سفيان الثورى انه قال ان الصلاة فيه بثلاثين الف صلاة وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه يعبد الله عز وجل فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة

﴿ ذكر تذريعه ومساحته وعدد أبوابه وشمساياته ﴾

ذرعه في الطول من الشرق الي الغرب مائتا خطوة وهما ثلاثمائة ذراع وذرعه في السعة من القبلة الى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع فيكون تكسيره من المراجع الغربية أربعة وعشرين مرجعاً وهو تكسير مسجد رسول الله صلي الله عليه وسلم غير ان الطول فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من القبلة الى الشمال وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق الى الغرب سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة والخطوة ذراع ونصف وقد قامت على ثمانية وستين عموداً منها أربع وخمسون سارية وثماني أرجل

جصينة تخللها واثنتان مرخمة ملصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة قد لظمت خواتيم وصورت محاريب وأشكالا غريبة قائمة في البلاط الاوسط تقل قبة الرصاص مع القبة التي تلي المحراب سعة كل رجل منها ستة عشر شبراً وطولها عشرون شبراً وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة وفي العرض ثلاث عشرة خطوة فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شـبراً ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته الشرقية والغربية والشمالية سعته عشر خطا وعدد قوائمه سبع وأربعون منها أربع عشرة رجلا من الجص وسائرها سوار فيكون سعة الصحن حاشي المسقف القبلي والشمالي مائة ذراع وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص وأعظم ما في هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه سامية في الهواء عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها يتصل من المحراب الى الصحن وتحته ثلاث قباب قبة تتصل بالجدار الذي الى الصحن وقبة تتصـل بالمحراب وقبة تحت قبة الرصاص بينهما والقبة الرصاصية قد أغصت الهواء وسطه فاذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعاً ومرأى هائلا يشبهه الناس بنسر طائر كان القبة رأسه والغارب جؤجؤه ونصف جدار البلاط عن يمين ونصف الثاني عن شمال جناحاه وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء

يزالون على ذلك كل يوم وأهل البطالة من الناس يسمونهم الحرائين والجامع ثلاث صوامع واحدة في الجانب الغربي وهي كالبرج المشيد تحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة راجعة كلها الي أغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير والبيت الاعلى منها كان معتكف أبي حامد الغزالي رحمه الله ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد أبو عبدالله بن سعيد من أهل قلعة يحصب المنسوبة لهم وهو قريب لبني سعيد المشهورين بالدنيا وخدمتها وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيين وفي الصحن ثلاث قباب احداها في الجانب الغربي منه وهي أكبرها وهي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة كأنها الروضة حسناً وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة يقال انها كانت مخزناً لمال الجامع وله مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف على ما ذكر لنا على الثمانية آلاف دينار صورية في السنة وهي خمسة عشر الف درهم مؤمنية أو نحوها وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمنة من رخام قد ألصق أبدع الصاق قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام وتحتها شبك حديد مستدير وفي وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء الى علو فيرتفع وينثني كأنه قضيب لجين يشره الناس بوضع أفواههم فيه للشرب استظرافاً واستحساناً ويسمونه قفص الماء والقبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية أعمدة على هيئة القبة الكبيرة لكن أصغر منها وفي الجانب الشمالي من الصحن باب كبير

يفضي الى مسجد كبير في وسطه صحن قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير يجرى الماء فيه دائماً من صفحة رخام أبيض مثمنة قد قامت وسط الصهريج على رأس عمود مثقوب يصعد الماء منه اليها ويعرف هذا الموضع بالكلاسة ويصلي فيه اليوم صاحبنا الفقيه الزاهد المحدث أبو جعفر الفنكي القرطبي ويتزاحم الناس على الصلاة فيه خلفه التماساً لبركته واستماعاً لحسن صوته وفي الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى الى مسجد من أحسن المساجد وأبدعها وضعاً وأجملها بناء يذكر الشيعة انه مشهد لعلى بن أبي طالب رضي الله عنه وهذا من أغرب مختلقاتهم ومن العجيب انه يقابله في الجهة الغربية في زاوية البلاط الشمالى من الصحن موضع هو ملتقى آخر البلاط الشمالى مع أول البلاط الغربي مجلل بستر فى أعلاه وامامه ستر أيضاً ملسدل يزعم أكثر الناس انه موضع لعائشة رضي الله عنها وانها كانت تسمع الحديث فيه وعائشة رضى الله عنها في دخول دمشق كعلي رضى الله عنه لكن لهم في علي رضي الله عنه مندوحة من القول وذلك أنهم يزعمون انه رؤى في المنام مصلياً في ذلك الموضع فبنت الشيعة فيه مسجداً وأما الموضع المنسوب لعائشة رضى الله عنها فلا مندوحة فيه وانما ذكرناه لشهرته في الجامع وكان هذا الجامع المبارك ظاهراً وباطناً منزّلا كله بالفصوص المذهبة مزخرفاً بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة فأدركه الحريق مرتين فتهدم وجدد وذهب أكثر رخامه فاستحال رونقه فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية حسناً وغرابة صنعة

بتقد ذهباً كله وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها
سوريات مفتولات فتل الاسورة كأنها مخروطة لم ير شيء أجمل منها
وبعضها حمر كأنها مرجان فشأن قبلة هذا الجامع المبارك مع ما يتصل
بها من قبابه الثلاث واشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه واتصال
شعاع الشمس بها وانعكاسه الى كل لون منها حتى ترتمي الابصار منه
شعة ملونة يتصل ذلك بجداره القبلي كله عظيم لا يلحق وصفه ولا تبلغ
العبارة بعض ما يتصوره الخاطر منه والله يعمره بشهادة الاسلام كلمته
بمنه وفى الركن الشرقي من المقصورة الحديثة فى المحراب خزانة كبيرة
فيها مصحف من مصاحف عثمان رضى الله عنه وهو المصحف الذى
وجه به الى الشام وتفتح الخزانة كل يوم أثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه
وتقبيله ويكثر الازدحام عليه وله أربعة أبواب (باب) قبلى ويعرف بباب
الزيادة وله دهليز كبير متسع له أعمدة عظام وفيه حوانيت الخرزيين
وسواهم وله مرأي رائع ومنه يفضى الى دار الخيل وعن يسار الخارج
منه سماط الصفارين وهي كانت دار معاوية رضى الله عنه وتعرف
بالخضراء (وباب) شرقى وهو أعظم الابواب ويعرف بباب جيرون
وباب غربي ويعرف بباب البريد (وباب) شمالى ويعرف بباب الناطفيين
وللشرقي والغربي والشمالى أيضاً من هذه الابواب دهاليز متسعة يفضي
كل دهليز منها الي باب عظيم كانت كلها مداخل الكنيسة فبقيت على حالها
وأعظمها منظراً الدهليز المتصل بباب جيرون يخرج من هذا الباب
الى بلاط طويل عريض قد قامت أمامه خمسة أبواب مقوسة لها ستة

أعمدة طوال وفي وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس
الحسين بن على رضى الله عنهما ثم نقل الى القاهرة وبأزائه مسجد
صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وبذلك المشهد ماء جار
وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر منها الى الدهليز وهو كالخندق
العظيم يتصل الى باب عظيم الارتفاع يحسر الطرف دونه سموا قد
حفته أعمدة كالجزوع طولا وكالاطواد ضخامة وبجانبي هذا الدهليز
أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين
وسواهم وعليها شوارع أخر مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة
على الدهليز وفوقها سطح يبيت به سكان الحجر والبيوت وفى وسط
الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام
ويستدير بأعلاها طرة من الرصاص واسعة مكشوفة للهواء لم ينعطف
عليها تعتيب وفي وسط الحوض الرخامي أنبوب صفر يزعج الماء بقوة
فيرتفع الى الهواء أزيد من القامة لم ••••••• وحوله أنابيب صغار
ترمى الماء الي علو فيخرج منها كقضبان اللجين فكأنها أغصان تلك
الدوحة المائية ومنظرها أعجب وأبدع من أن يلحقه الوصف وعن يمين
الخارج من باب جيرون فى جدار البلاط الذى أمامه غرفة ولها هيئة طاق
كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات
النهار ودبرت تدبيرا هندسيا فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان
من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر قائمين علي طاستين من صفر
تحت كل واحد منهما أحدهما تحت أول باب من تلك الابواب والثانى

تحت آخرها والطاستان منقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان
داخل الجـدار الى الغرفة وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين
الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتـدبير عجيب تتخيله الاوهام سحراً
وعنـد وقوع البندقتين فى الطاستين يسمع لهما روى وينغلق الباب
الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لايزال كذلك عندكل
انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضى الساعات ثم
تعود الى حالها الاول ولها بالليـل تدبير آخر وذلك أن فى القوس
المنعطف على تلك الطيقان المذكورة أنتى عشرة دائرة من النحاس
مخرمة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجـدار في الغرفة
مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح
يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء
المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للأبصار دائرة محمرة
ثم انتقل ذلك الى الاخري حتى تنقضى ساعات الليل وتحمر الدوائر
كلها وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها يعيد
فتح الابواب وصرف الصنج الى موضعها وهي التي يسميها الناس المنجانه
ودهليز الباب الغربي فيه حوانيت البقالين والعطارين وفيه سماط لبيع
الفواكه وفي أعلاه باب عظيم يصعد اليه على أدراج وله أعمدة سامية
فى الهواء وتحت الادراج سقايتان مستديرتان سقاية يميناً وسقاية يساراً
لكل سقاية خمسة أنابيب ترمي الماء فى حوض رخام مستطيل ودهليز
الباب الشمالى فيه زوايا على مصاطب محـدقة بالاعواد المشرجبة هي

محاضر لمعلمي الصبيان وعن يمين الخارج في الدهليز خانقة مبنية للصوفية في وسطها صهريج ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ولها خبر سيأتي ذكره بعد هذا والصهريج الذي في وسطها يجرى الماء فيه ولها مطاهر يجرى الماء في بيوتها وعن يمين الخارج أيضاً من باب البريد مدرسة للشافعية في وسطها صهريج يجرى الماء فيه ولها مطاهر على الصفة المذكورة وفى الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسير لهما رأسان من الصفر مستطيلان مشرجبان قد خرما أحسن تخريم يسرجين ليلة النصف من شعبان فلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان واحتفال أهل هذه البلدة لهذه الليلة المذكورة أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم وفى هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم أثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائما ومثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرؤن فيها من سورة الكوثر الى الخاتمة ويحضر في هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن والمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسمائة انسان وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم فلا تخلو القراءة منه صباحا ولا مساء وفيه حلقات للتدريس للطلبة وللمدرسين فيها اجراء واسع وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها طلبة المغاربة ولهم اجراء معلوم ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه هي بين المقصورتين القديمة والحديثة لها وقف معلوم يأخذه المستند

اليها للمذاكرة والتدريس أبصرنا بها فقيها من أهل اشبيلية يعرف بالمرادي وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا يستند كل انسان منهم الي سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن وللصبيان أيضاً على قراءتهم جراية معلومة فأهل الجدة من آبائها ينزهون أبناءهم أخذها وسائرهم يأخذونها وهذا من المفاخر الاسلامية وللايتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم وهذا أيضاً من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها انما هو تلقين ويعلمون الخط فى الاشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة فينفصل من التلقين الي التكتيب لهم فى ذلك سيرة حسنة ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط لان المعلم له لا يشتغل بغيره فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي في التعلم كذلك ويسهل عليه لانه بتصوير يحذو حذوه ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقايات في كل جانب سقاية كل واحدة منها كالدار الكبير محدقة بالبيوت الخلائية والماء يجرى فى كل بيت منها وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل تصب فيه عدة أنابيب منتظمة بطوله واحدى هذه السقايات في دهليز باب جيرون وهي أكبرها وفيها من البيوت نيف على الثلاثين وفيها زائداً على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران يكادان يمسكان لسعتهما عرض الدار المحتوية على هذه السقاية

والواحد بعيد من الآخر ودور كل واحد منهما نحو الاربعين شبراً والماء نابع فيهما والثانية فى دهليز باب الناطفيين بازاء المعلمين والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة وهذه أيضاً من المرافق العظيمة للغرباء وسواهم والبلد كله سقايات قلّما تخلو سكة من سككه أو سوق من أسواقه من سقاية والمرافق به أكثر من أن توصف والله يبقيه دار اسلام بقدرته

﴿ ذكر مشاهده المكرمه وآثاره المعظمه ﴾

فأولها مشهد رأس يحيى بن ذكرياء عليه السلام وهو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية رضى الله عنهم وعليه تابوت خشب معترض من الاسطوانة وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف كأنه القدح الكبير لا يدرى أمن زجاج عراقي أم صوري هو أم من غير ذلك ومولد ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم وهو بصفح جبل قاسيون عند قرية تعرف ببرزة وهي من أجل القرى وهذا الجبل مشهور بالبركة في القديم لانه مصعد الانبياء صلوات الله عليهم ومطلعهم وهو في الجهة الشمالية من البلد وعلى مقدار فرسخ وهذا المولد المبارك غار مستطيل ضيق وقد بنى عليه مسجد كبير مرتفع مقسم على مساجد كثيرة كالغرف المطلة وعليه صومعة عالية ومن ذلك الغار رأي صلى الله عليه وسلم الكوكب ثم القمر ثم الشمس حسبما ذكره الله تعالى في

كتابه عز وجل وفي ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج اليه وهذا كله
ذكره الحافظ محدث الشام أبو القاسم بن هبة الله بن عساكر الدمشقى
في تاريخه في أخبار دمشق وهو نيف على مائة مجلد وذكر أيضاً أن
بين باب الفراديس وهو أحد أبواب البلد وفى الجهة الشمالية من
الجامع المبارك على مقربة منه الى جبل قاسيون مدفن سبعين ألف نبي
وقيل سبعون ألف شهيد وان الانبياء المدفونين به سبعمائة نبي والله
أعلم وخارج هذا البلد الجبانة العتيقة وهي مدفن الانبياء والصالحين
وبركتها شهيرة وفى طرفها مما يلى البساتين وهدة من الارض متصلة
بالجبانة ذكر انها مدفن سبعين نبياً وعصمها الله ونزهها من أن يدفن
فيها أحد والقبور محيطة بها وهي لا تخلو من الماء حتى عادت قرارة
له كل ذلك تنزيه من الله تعالى لها وبجبل قاسيون أيضاً لجهة الغرب على
مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك مغارة تعرف بمغارة الدم لان
فوقها فى الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابنى آدم صلى الله عليه وسلم
تتصل من نحو نصف الجبل الى المغارة وقد أبقى الله منه فى الجبل
آثاراً حمرا فى الحجارة تحك فتستحيل وهى كالطريق في الجبل
وتنقطع عند المغارة وليس يوجد في النصف الاعلى من المغارة آثار
تشبهها فكان يقال انها لون حجارة الجبل وانما هى من الموضع الذى جر منه
القاتل لاخيه حيث قتله حتى انتهي الى المغارة وهي من آيات الله تعالى
وآياته لا تحصى وقرأنا في تاريخ ابن المعلى الاسدي ان تلك المغارة صلى
فيها ابراهيم وموسي وعيسى ولوط وأيوب عليهم وعلى نبينا الكريم

أفضل الصلاة والسلام وعليها مسجد قد أتقن بناؤه ويصعد
اليه على أدراج وهو كالغرفة المستديرة وحولها أعواد مشرجبة مطيفة بها
وبه بيوت ومرافق للسكنى وهو يفتح كل يوم خميس والسرج من الشمع
والفتائل تقد في المغارة وهى متسعة وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم
صلى الله عليه وسلم وعليه بناء وهو موضع مبارك وتحته في حضيض
الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع ذكر ان فيها سبعين نبياً ماتوا جوعاً
وكان عندهم رغيف فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ويدور
عليهم من يد الى يد حتى لحقتهم المنية صلوات الله عليهم وعلى هذه
المغارة أيضاً مسجد مبنى وأبصرنا فيه سرجاً تقد نهاراً ولكل مشهد من
هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباعاً حتى ان
البلد تكاد الاوقاف تستغرق جميع ما فيها وكل مسجد يستحدث بناءه
أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين
لها وهذه أيضاً من المفاخر المخلدة ومن النساء الخواتين ذوات الاقدار
من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الاموال الواسعة
وتعين لها من مالها الاوقاف ومن الامراء من يفعل مثل ذلك لهم في
هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل وبآخر هذا
الجبل المذكور وفي رأس البسيط البستاني الغربي من هذا البلد الربوة
المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى مأوى للمسيح وأمه صلوات الله
عليهما وهي من أبدع مناظر الدنيا حسناً وجمالا واشرافاً واتقان بناء
واحتفال تشييد وشرف وضع هي كالقصر المشيد ويصعد اليها على أدراج

والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها وهي كالبيت الصغير وبإزائها بيت يقال انه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين ولا سيما المأوى المبارك وله باب حديد صغير ينغلق دونه والمسجد يطيف بها ولها شوارع دائرة وفيها سقاية لم يُر أحسن منها قد سيق اليها الماء من علو وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه لم يُر أحسن من منظره وخلف ذلك مطاهر يجرى الماء في كل بيت منها ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار يأخذ كل نهر طريقه وأكبر هذه الانهر نهر يعرف بثورا وهو يشق تحت الربوة وقد نقر له في الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرب واسع كالغار وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة في النهر واندفع تحت الماء حتى يشق متسربه تحت الربوة ويخرج أسفلها وهي مخاطرة كبيرة ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ولا اشراف كاشرافها حسناً وجمالا واتساع مسرح للابصار وتحتها تلك الانهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى فتحار الابصار في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها أعظم من أن يحيط به وصف واصف في غلو مدحه وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير ويتصل بها أسفل منها عقربة من المسافة قرية كبيرة تعرف بالنيرب قد غطتها البساتين فلا

تظهر منها الا ما سما بناؤه وبها جامع لم ير أحسن منه مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون فيخيل لناظره انه ديباج مبسوط وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ومطهرة لها عشرة أبواب يجرى الماء فيها ويطيف بها وفوقها الجهة القبلة قرية كبيرة هى من أحسن القرى تعرف بالمزة وبها جامع كبير وسقاية معينة وبقرية النيرب حمام وأكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات وفى الجهة الشرقية من البلد عن يمين الطريق الى مولد ابراهيم عليه السلام قرية تعرف ببيت لاهية يريدون الآلهة وكانت فيها كنيسة هي الآن مسجد مبارك وكان آزر أبو ابراهيم ينحت فيها الآلهة ويصورها فيجيء الخليل ابراهيم صلوات الله عليه وعلى نبينا الكريم فيكسرها وهي اليوم مسجد يجتمع فيه أهل القرية وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة منتظم كله خواتيم وأشكالا بديعة يخيل لمبصرها أنها فرش منقنة مزخرفة وهو من المشاهد الكريمة وللربوة المباركة أوقاف كثيرة من بساتين وأرض بيضاء ورباع وهى معينة التقسيم لوظائفها فمنها ما هو معين باسم النفقة في الادم للبائتين فيها من الزوار ومنها ما هو معين للاكسية برسم التغطية بالليل ومنها ما هو معين للطعام الى تقاسيم تستوفى جميع مؤنها ومؤن الامين المرتب فيها برسم الامامة والمؤذن الملتزم خدمتها ولهم على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر وهي خطة من أعظم الخطط والامين فيها الآن من بقية المرابطين المسوفيين ومن أعيانهم يعرف بأبي الربيع سليمان بن ابراهيم ابن مالك وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة وله في اشهر خمسة

دنانير حاشى قائمة الربوة وهو متسم بالخير ومرتسم به وهو متعلق بسبب من أسباب البر في إيواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات يسبب لهم وجوه المعايش من امامة في مسجد أو سكنى بمدرسة تجرى عليه فيها النفقة أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجي اليه فيها رزقه أو حضور في قراءة سبع أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ويجرى عليه ما يقوم به من أوقافه الى غير ذلك من الوجوه المعاشية وعلى هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه فالغريب المحتاج هنا اذا كان على طريقة الخير مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ممن عهد الخدمة والمهنة يسبب له أيضاً أسباب غريبة من الخدمة اما بستان يكون ناطوراً فيه أو حمام يكون عينا على خدمته وحافظاً لأثواب داخليه أو طاحونة يكون أميناً عليها أو كفالة سلطان يؤديهم الى محاضرهم ويصرفهم الى منازلهم الى غير ذلك من الوجوه الواسعة وليس يؤتمن فيها كلها سوي المغاربة الغرباء لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الامانة وطار لهم فيها ذكر وأهلها لايأتمنون البلديين وهذا من ألطاف الله تعالى بالغرباء وله الحمد والشكر على ما يولى عباده وان شاء أحد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان يقبله ويكرمه ويرتبه ويجري عليه بحسب قدره ومنصبه قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديماً وحديثاً وقد تسلسل بنا القول الى غير الباب الذى نحن فيـه والحديث ذو شجون والله كفيل بحسن العون لا رب سواه ويفرقى

البلد جبانة كبيرة تعرف بقبور الشهداء فيها كثير من الصحابة والتابعين الائمة الصالحين رضى الله عنهم فالمشهور بها من قبور الصحابة رضي الله عنهم قبر أبي الدرداء وقبر زوجته أم الدرداء رضى الله عنهم موضع مبارك فيه تاريخ قديم مكتوب عليه في هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة رضى الله عنهم منهم فضالة بن عبيد وسهل بن الحنظلية من الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة وخال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وقبره مسنم في الموضع المذكور وقرأت فى فضائل دمشق ان أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية رضى الله عنهما مدفونة بدمشق وقبر واثلة بن الاسقع من أهل الصفة وفي الجهة التي (تلي) هذا الموضع المبارك تاريخ فيه مكتوب هذا قبر أوس بن أوس الثقفي وحول هذا الموضع المذكور على مقربة منه قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضي الله عنه والدعاء في هذا الموضع المبارك مستجاب قد جرب ذلك كثير من الاولياء وأهل الخير المتبركين بزيارتهم الى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين ممن قد ذهب اسمه وغير ذكره ومشاهد كثيرة لاهل البيت رضي الله عنهم رجالا ونساء وقد احتفل الشيعة فى البناء عليهم ولها الاوقاف الواسعه ومن أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه قد بني عليه مسجد حفيل رائق البناء وبأزائه بستان كله نارنج والماء يطرد فيه من سقاية معينة وللمسجد كله ستور معلقة في جوانب صغار وكبار وفي المحراب حجر عظيم قد شق

بنصفين والتحم بينهما ولم يبن النصف عن النصف بالكلية يزعم الشيعة أنه انشق لعلي رضي الله عنه اما بضربة سيفه أو بأمر من الامور الآلهية على يديه ولم يذكر عن علي رضي الله عنه انه دخل قط هذا البلد اللهم الا ان زعموا انه كان في النوم فامل جهة الرؤيا تصح لهم اذ لا تصح لهم جهة اليقظة وهذا الحجر أوجب بنيان هذا المشهد وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الامامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة فانهم يزعمون الالهية لعلي رضي الله عنه تعالى عن قولهم ومنهم الغرابية وهم يقولون ان علياً رضي الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب وينسبون الى الروح الامين عليه السلام قولا تعالى الله عنه علواً كبيراً الى فرق كثيرة يضيق عنهم الاحصاء قد أضلهم الله وأضل بهم كثيراً من خلقه نسأل الله العصمة في الدين ونعوذ به من زيغ الملحدين وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منهم يحزمونه السراويل فيلحقونه بهم ولا يرون أن يستعدى أحد منهم في نازلة تنزل به لهم في ذلك مذاهب عجيبة واذا أقسم أحدهم بالفتوة بر قسمه وهم يقتلون هؤلاء الروافض أين ما وجدوهم وشأنهم عجيب في الانفة والائتلاف ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقرية

تعرف بالمنيحة شرقي البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء والقبر في وسطه وعند رأسه مكتوب هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن مشاهد أهل البيت رضي الله عنهم مشهد أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ويقال لها زينب الصغرى وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي صلى الله عليه وسلم لشبهها بابنته أم كلثوم رضي الله عنها والله أعلم بذلك ومشهدها الكريم بقرية قبلي البلد تعرف براوية على مقدار فرسخ وعليه مسجد كبير وخارجه مساكن وله أوقاف وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم مشينا اليه وبتنا به وتبركنا برؤيته نفعنا الله بذلك وبالجبانة التي بغربي البلد من قبور أهل البيت كثير رضي الله عنهم منها قبران عليهما مسجد يقال انهما من ولد الحسن والحسين رضي الله عنهما ومسجد آخر فيه قبر يقال انه لسكينة بنت الحسين رضي الله عنهما أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت ومن المشاهد أيضاً قبر بجامع النيرب في بيت بالجهة الشرقية منه يقال انه لأم مريم رضي الله عنها وبقرية دارية قبر أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه وعليه قبة هي علامة القبر وبها أيضاً قبر أبي سليمان الداراني رضي الله عنه وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال وهي لجهة الغرب منه ومن المشاهد الكريمة التي لم نعاينها ووصفت لنا قبر شيث ونوح عليهما السلام وهما بالبقاع وهي على يومين من البلد وحدثنا من ذرع قبر شيث فألفى فيه أربعين باعاً وفي قبر نوح ثلاثين وبأزاء قبر نوح

قبر ابنة له وعلى هذه القبور بناء ولها أوقاف كثيرة ولها قيم يلتزمها
ومن المشاهد المباركة أيضاً بالجبانة الغربية وبمقربة من باب الجابية قبر
أويس القرني رضي الله عنه وقبور خلفاء بني أمية رحمهم الله يقال انها
بأزاء باب الصغير بمقربة من الجبانة المذكورة وعليها اليوم بناء يسكن فيه
والمشاهد المباركة بهذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد وانما رسم
من ذلك ما هو مشهور ومعلوم ومن المشاهد الشهيرة أيضاً مسجد الاقدام
وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلي القبلة على قارعة الطريق
الاعظم الآخذ الى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر وفي هذا المسجد
بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى النبي صلى
الله عليه وسلم في النوم فيقول له ههنا قبر أخي موسى صلى الله عليه
وسلم والكثيب الاحمر على الطريق بمقربة من هذا الموضع وهو بين
عالية وعويلة كما ورد في الاثر وهما موضعان وشأن هذا المسجد في
البركة عظيم ويقال ان النور ما خلا قط من هذا الموضع الذي يذكر أن
القبر فيه حيث الحجر المكتوب وله أوقاف كثيرة فأما الاقدام ففي
حجارة في الطريق اليه معلم عليها تجد أثر القدم في كل حجر وعدد
الاقدام تسع ويقال انها أثر قدم موسى عليه السلام والله أعلم بحقيقة
ذلك لا اله سواه

﴿شهر جمادي الاولى عرفنا الله بركته﴾

استهل هلاله ليلة الجمعة بموافقة العاشر لشهر أغوشت العجمي

﴿ذكر جميل من أحوال البلد عمره الله بالاسلام﴾

لهذه البلدة ثمانية أبواب (باب) شرقي وهو شرقي وفيه منارة بيضاء يقال ان عيسى عليه السلام ينزل فيها كما جاء في الاثر انه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق ويلي هذا الباب (باب) توما وهو أيضاً في حيز الشرق ثم (باب) السلامة ثم (باب) الفراديس وهو شمالي ثم (باب) الفرج ثم (باب) النصر وهو غربي ثم (باب) الجابية كذلك ثم (باب) الصغير وهو بين الغرب والقبلة والمسجد الجامع مائل الى الجهة الشمالية من البلد والارباض به مطيفة الا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيراً والارباض كبار والبلد ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول وسككه ضيقة مظلمة وبناؤه طين وقصب طبقات بعضها فوق بعض ولذلك ما يسرع الحريق اليه وهو كله ثلاث طبقات فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لانه أكثر بلاد الدنيا خلقاً وحسنه كله خارج لا داخل وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الافكار وتستوقف الابصار ومرآها عجيب وهي بأيدي الروم ولا اعتراض عليهم فيها وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة وبها مارستانان قديم وحديث والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينار وله قومة بأيديهم الازمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك والاطباء يبكرون اليه في كل يوم ويتفقدون

المرضى ويأمرون باعداد ما يصلح من الادوية والاغذية حسبما يليق
بكل انسان منهم والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في
الجديد كثر وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم وللمجانين المعتقلين
أيضاً ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثقون نعوذ بالله من المحنة
وسوء القدر وتندر من بعضهم النوادر الظريفة حسب ما كنا نسمع
به ومن أعجب ما حدثت به من ذلك ان رجلا كان يعلم القرآن وكان
يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أوتي مسحة جمال واسمه نصر
الله وكان المعلم يهيم به فزاد كلفه حتى اختبل وأدى الى المارستان
واشتهرت علته وفضيحته بالصبي وربما كان يدخله أبوه اليه فقيل له
أخرج وعد لما كنت عليه من القرآن فقال متَّاجاً تماجن المجانين
وأي قراءة بقيت لي ما بقي في حفظي من القرآن شيء سوى اذا جاء
نصر الله فضحك منه ومن قوله ونسأل الله له العافية ولكل مسلم
فلم يزل كذلك حتى توفي سمح الله له وهذه المارستانات مفخر عظيم
من مفاخر الاسلام والمدارس كذلك ومن أحسن مدارس الدنيا
منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله وبها قبره نوره الله وهي قصر
من القصور الانيقة ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم
ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار
فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور
الدين رحمه الله وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم
الصوفية وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر

بمصر وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لانهم قد كفاهم الله مُؤن الدنيا وفضولها وفرغ خواطرهم لعبادته من الكفرة فى أسباب المعايش وأسكنهم فى قصور تذكرهم قصور الجنان فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضله تعالى نعيم الدنيا والآخرة وهم على طريقة شريفة وسنته في المعاشره عجيبة وسيرتهم فى التزام رتب الخدمة غريبة وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل الثاير رقة وتشوقا وبالجملة فاحوالهم كلها بديعة وهم يرحون عيشا طيبا هنيئاً ومن أعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر وهو صرح عظيم مستقل فى الهواء في أعلاه مسا كن لم يرا اجمل اشرافا منها وهو من البلد بنصف الميل له بستان عظيم يتصل به وكان متنزها لاحد ملوك الاتراك فيقال انه كان فيه أحدى الليالى على راحة فاجتاز به قوم من الصوفية فهريق عليهم من النبيذ الذى كانوا يشربونه في ذلك القصر فرفعوا الامر لنور الدين فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه ووقفه برسم الصوفية مُؤبدا لهم فطال العجب من السماحة بمثله وبقى أثر الفضل فيه مخلد النور الدين رحمه الله ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة وكان من الملوك الزهاد وتوفي فى شوال سنة تسع وستين وخمسمائة واستولى بعده على الامر صلاح الدين وهو على طريقة من الفضل شهيرة وشأنه فى الملوك كبير وله الاثر الباقي شرفه من أزالة المكوس بطريق الحجاز ودفعه عوضاً عنها لصاحب الحجاز وكانت الايام قد أستمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة الى ان محا الله رسمها

على يدى هذا الملك العادل أصلحه الله ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى انه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زواية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافا كثيرة منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه وهو أبو الحسن على بن سردال الجيانى المعروف بالاسود ان هذا الوقف المغربي يغل اذا كان النظر فيه جيداً خمسمائة دينار في العام وكان له رحمه الله بجانبهم فضل كبير نفعه الله بما أسلف من الخير وهيأ دياراً موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمتمين للطلب فالشان بهذه البلدة لهم عجيب جدا وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أجود فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الامور المعيناة كثيرة فاولها فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الاعوان وأهمها فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسويق فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه وانما المخاطب كل ذى همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك فادخل أيها المجتهد بسلام وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الاهل والاولاد ويقرع سن الندم على زمن التضييع والله يوفق ويرشد لااله سواه قد نصحت ان الفيت سامعا

ونادیت ان اسمعت مجيبا ومن يهد الله فهو المهتدى جلت قدرته وتعالى جده ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقيـة كلها الا مبادرة أهلها لاكرام الغرباء وايثار الفقراء ولا سيما أهل باديتها فانك تجد من بدار الى بر الضيف عجبا كفى بذلك شرفا لها وربما يعرض أحدهم كثرته على فقير فيتوقف عن قبولها فيبكي الرجل ويقول لو علم الله فيَّ خيراً لاكل الفقير طعامي لهم في ذلك سر شريف ومن عجيب أمرهم تعظيمهم الحاج على قرب مسافة الحج منهم وتيسير ذلك لهم واستطاعتهم لسبيله فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ويتهافتون عليهم تبركا بهم ومن أغرب ماحدثناه من ذلك ان الحاج الدمشقى مع من انضاف اليهم من المغاربة عند صدورهم الى دمشق في هذا العام الذي هو عام ثمانين ضرع الناس لتلقيهم الجم الفقير نساء ورجالا يصافحونهم ويتمسحون بهم وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها وأخرجوا اليهم الاطعمة فاخبرنى من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز فاذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لاكله تبركا بأكل الحاج له ودفعن له عوضا منه دراهم الى غير ذلك من الامور العجيبة ضد ما اعتدنا فى المغرب في ذلك وصنع بناء فى بغداد عند تلقى الحاج بها مثال ذلك أو قريب منه ولو شئنا استقصاء هذه الامور لخرجت بنا عن مقاصد التقييد وانما وقع الالماع بلمحة دالة يكتفى بها عن التطويل وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم ان أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال وينهال الخبز عليه من أهل

الضيعة ويلتزم الامامة أو التعليم أوماشاء ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى أو يصعد الى جبل لبنان أو الى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء ويتصرف الى حيث شاء ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا اليهم ويقولون هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة وقل ما يخلوا من التبتيل والزهادة واذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ومن أعجب مايحدث به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصاري وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الاولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك وهو من أعظم حصون النصارى وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق قليلا وهو سرارة أرض فلسطين وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر انه ينتهي الي أربعمائة قرية فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك وتجار النصاري أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض وللنصارى على

المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم وهي من الامنة على غاية وتجار
النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم
والاعتدال فى جميع الاحوال وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس
في عافية والدنيا لمن غلب هذه سيرة أهل هذه البلاد فى حربهم وفي
الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا
ولا التجار فالامن لا يفارقهم في جميع الاحوال سلماً أو حرباً وشأن
هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفي الحديث عنه والله يعلي كلمة
الاسلام بمنه ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة فى الجهة الغربية
من البلد وهي بأزاء باب الفرج من أبواب البلد وبها جامع السلطان
يجمع فيه وعلى مقربة منها خارج البلد فى جهة الغرب ميدانان كأنهما
مبسوطان خزاً لشدة خضرتهما وعليهما حلق والنهر بينهما وغيضة
عظيمة من الحور متصلة بهما وهما من أبدع المناظر يخرج السلطان
اليهما ويلعب فيهما بالصوالجة ويسابق بين الخيل فيهما ولا مجال للعين
كمجالهما فيهما وفى كل ليلة يخرج أبناء السلطان اليهما للرماية والمسابقة
واللعب بالصوالجة وبهذه البلدة أيضاً قرب مائة حمام فيها وفي أرباضها
وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجرى الماء فيها كلها وليس فى هذه البلاد
كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة وفى الذى ذكرنا
من ذلك كفاية والله يبقيها دار اسلام بمنـه وأسواق هذه البلدة من
أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وصفاً ولا سيما قيسارياتها
وهي مرتفعات كأنها الفناديق منغلقة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب

القصور وكل قيسارية منفردة بصيغتها واغلاقها الجديدة ولها أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير يتصل من باب الجابية الى باب شرقي وفيه بيت صغير جداً قد اتخذ مصلى وفي قبلته حجر يقال ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان يكسر عليه الالهة التي كان يسوقها أبوه للبيع وحديث الدار المنسوبة لعمر بن عبد العزيز التي هي اليوم خانقة للصوفية وهي في الدهليز الذي في الباب الشمالي المعروف بباب الناطفيين وقد تقدم التنبيه عليه قبل هذا

حديث عجيب وذلك ان الذي اشتراها وبناها وجعل لها الاوقاف الواسعة وأمر بأن يدفن فيها وأن يختم على قبره القرآن كل جمعة وعين من تلك الاوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلا من خبز الحُوّارَى وهو ثلاثة أرطال من أرطال المغرب رجل من العجم يعرف بالسميساطي وسميساط بلدة من بلاد العجم وكان موصوفاً بالورع والزهد وأصل يساره وتموله فيما ذكر لنا انه ألفى يوماً من الايام بالدهليز المذكور أزاء الدار المذكورة رجلا أسود مريضاً مطروحاً بموضعه غير ملتفت اليه ولا معتنىً به فتأجر فيه والتزم تمريضه وخدمته والنظر له اغتناماً للثواب من الله عز وجل فحانت وفاة الرجل فاستدعى بمرضه السميساطيّ المذكور فقال له أنت قد أحسنت اليّ وخدمتني ولطفت في تمريضي واشفقت لحالي وغربتي فأنا أريد أن أكافئك على فعلك بي زائداً الى فعل الله عز وجل عنى في الآجل ان شاء الله وذلك اني كنت من أحد فتيان الخليفة المعتضد العباسي ومعروفاً

بزمام الدار وكانت لي حظوة ومكانة فعتب عليّ في بعض الامر فخرجت طريداً فانتهيت الى هذه البلدة فأصابني من أمر الله ما أصابني فسيبك الله لي رحمة فأنا أقلدك أمانة وأعهد اليك فيها عهداً اذا أنا مت وغسلتني فانهض على بركة الله تعالى الى بغداد وتلطف في السؤال عن دار صاحب الزمام فتي الخليفة فاذا أرشدت اليها فاصرف الحيلة في اكترائها وأرجوا أن الله تعالى يعينك على ذلك واذا سكنتها فاعمد الى موضع سماه له فيها وذكر له أمارة عليه فاحفر فيه مقداراً وانزع اللوح الذى تجده معترضاً تحت الارض وخذ الذى تجده مدفونا تحت الارض وصرفه في منافعك ومايوفقك الله اليه من وجوه البر والخير مباركا لك في ذلك ان شاء الله ثم توفى الرجل الموصى رحمه الله وتوجه الموصي اليه بعده الى بغداد فيسر الله له في اكتراء الدار وانتهى الى الموضع المذكور فاستخرج منه ذخائر لا قيمة لها عظيمة الشأن كبيرة القدر فدسها في أحمال متاع أبتاعها وخرج الى دمشق من بغداد فابتاع الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبناها خانقة للصوفية واحتفل فيها وأبتاع لها الاوقاف ضياعاً ورباعاً وجعلها برسم الصوفية وأوصى بأن يدفن فيها وان يختم القرآن على قبره كل جمعة وعين لكل من يحضر ذلك ماذكرناه فوجد الغرباء والفقراء في ذلك مرفقاً كثيراً فتغص الخانقة بالقراءة كل جمعة فاذا ختم القرآن دعوا له وانصرفوا واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز على الصفة المذكورة وبقى للمتوفي جميل الاثر والخير رحمة الله ورضوانه عليه والكوثرية التى

ذكرناها أيضاً بالجامع المكرم المقروءة كل يوم بعد العصر المعينة لمن لا يحفظ القرآن كان أصلها أيضاً ان أحد ذوي اليسار توفي وأوصى بأن يدس قبره في الجامع المكرم وأوقف وقفا يغل مائة وخمسين ديناراً في السنة برسم من لا يحفظ القرآن ويقرأ من سورة الكوثر الى الخاتمة فينقسم له أربعون ديناراً في كل ثلاثة أشهر من السنة ويذكر ان أحد الملوك السالفين توفي أيضاً وأوصي بأن يجعل قبره في قبلة الجامع المكرم بحيث لا يظهر وعين أوقافا عظيمة تغل نحو الالف دينار وأربعمائة دينار في السنة وزائد القرا سبع القرآن كل يوم وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك كل يوم أثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم ويقال ان في ذلك الموضع هو القبر المذكور وقراء السبع لا تتعدي ذلك الموضع متصلا مع جدار القبلة الى الجدار الشرقي والله عز وجل لا يضيع أجر المحسنين وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الايام نفع الله بها راسميها وناهيك فيها من بلاد بهدى فيها هذه الصنائع المزلفة لرضوان الله عز وجل وللفقراء الملتزمين الجلوس في الجانب الشرقى من الجامع المكرم الذين ليس لهم مأوي يأوون اليه وقف وضعه بعض المتأجرين الموفقين برسمهم الى مايطول ذكره من المآثر الاخروية الصدقية التي كفل الله بها غرباء هذه الجهات

ومن عادات أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة المرجو لهم فيها من الله عز وجل قبول انهم فى كل سنة يتوخون الوقوف يوم

عرفة بجوامعهم أثر صلاة العصر يقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين الى ربهم التماسا لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات فلا يزالون واقفين داعين متضرعين الى الله عز وجل وبحجاج بيته الحرام متوسلين الى أن يسقط قرص الشمس ويقدروا نفر الحاج فينفصلوا باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات وداعين الى الله عز وجل فى أن يوصلهم اليها ولا يخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك ومن أعظم ماشاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشان وهياكلها الهائلة البنيان المعجزة الصنعة والاتقان المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان الصعود الى أعلا قبة الرصاص المذكورة في هذا التقييد القائمة وسط الجامع المكرم والدخول فى جوفها واجالة لحظ الاعتبار فى بديع وضعها مع القبة التى فى وسطها كأنها كرة مجوفة داخلة وسط كرة أخرى أعظم منها صعدنا اليه فى جملة من الاصحاب المغاربة ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الاولى المذكورة من مرقى في الجانب الغربي من بلاط الصحن كان صومعة فى القديم وتمشينا على سطح الجامع المكرم وكله ألواح رصاص منتظمة كما قد تقدم الذكر لذلك وطول كل لوح أربعة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار وربما اعترض في الالواح نقص أو زيادة حتى انتهينا الي القبة المذكورة فصعدنا اليها على سلم منصوب وريح الميد تكاد تطير بنا فخبونا في الممشى المطيف بها وهو من رصاص وسعته ستة أشبار فلم نستطع القيام عليه لطول الموقف فيه فأسرعنا

الولوج فى جوف القبة على أحد شراجيبها المفتحة فى الرصاص فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول وتقف دون ادراك هيبة وصفه الاقهام وجلنا فى فرش من الخشب العظام حول القبه الصغيرة الداخلة في جوف الرصاصية على الصفة التى ذكرناها ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان فى المحاضر وهذه القبة مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الضخام موثقة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها وداخل هذه القبة وهو ما يلى الجامع المكرم خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالا عجيباً وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين بديعة القرنصة يرتمى الابصار شعاع ذهبها وتحير الالباب فى كيفية عقدها ووضعها لافراط سموها أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتماً مطروحاً جوف القبة لم يكن طوله أقل من ستة أشبار في عرض أربعة وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دور كل واحد منها شبر أو شبران الغاية لعظم سموها والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة وقد شدت أيضاً بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام موثقة الاوساط بنطق الحديد وعددها ثمان وأربعون ضلعا بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار قد انعطفت انعطافاً عجيباً واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب أعلاها ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة وهى مائتا شبر وستون شبراً والحال فيها أعظم من أن يبلغ

وصفها وانما هذا الذي ذكرناه نبذة يستدل بها على ما وراءها وتحت
القارب المستطيل المسمى النسر الذى تحت هاتين القبتين مدخل عظيم
هو سقف للمقصورة بينه وبينها سماء جص مزينة وقد انتظم فيه من
الخشب ما لا يحصى عدده وانعقد بعضها ببعض وتقوس بعضها على
بعض وتركبت تركيباً هائلا منظره وقد أدخلت في الجدار كله دعائم
القبتين المذكورتين وفي ذلك الجدار حجارة كل واحد منها يزن قناطير
مقنطرة لاتنقلها الفيلة فضلا عن غيرها فالعجب كل العجب من تطليعها
الى ذلك الموضع المفرط السمو وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك
فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ومعينهم على التأنى
لما ليس موجوداً في طبائعهم البشرية ومظهر آياته على أيدى من يشاء
من خلقه لااله سواه والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة
قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصم الكبار وقد
فتح بين كل رجل ورجل شمسية واستدارت الشمسيات باستدارتها
والقبتان في رأى العين واحدة وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة في
جوف الاخرى والظاهر منها قبة الرصاص ومن جملة عجائب ما عايناه
في هاتين القبتين ان لم نجد فيهما عنكبوتاً ناسجاً على بعد العهد من
التفقد لها من أحد والتعاهد لتنظيف مساحتهما والعنكبوت
فى أمثالها موجود كثير وقد كان حقق عندنا ان الجامع المكرم
لا تنسج فيه العنكبوت ولا يدخله الطير المعروف بالخطاف
وقد تقدم ذكرنا لذلك فى هذا التقييد فانصرفنا منحدرين وقد

قضينا عجباً عجاباً من هذا المنظر العظيم شأنه المعجز وصفه المترفع عن الادراك وصفه ويقال انه ما على ظهر المعمور أعجب منظراً ولا أبعد سمواً ولا أغرب بنياناً من هذه القبة الا ما يحكى عن قبة بيت المقدس فانها يذكر انها أبعد في الارتفاع والسمو من هذه وجملة الامر ان منظرها والوقوف على هيئة وضعها وعظيم الاستقدار فيما عنه معانيها بالصعود اليها والولوج داخلها من أغرب ما يحدث به من عجائب الدنيا والقدرة لله الواحد القهار لا اله سواه ولاهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة وذلك انهم يمشون امام الجنازة بقراء يقرؤن القرآن بأصوات شجية وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجواً وحناناً يرفعون أصواتهم بها فتتلقى الآذان بأدمع الاجفان وجنائزهم يصلى عليها في الجامع قبالة المقصورة فلا بد لكل جنازة من الجامع فاذا انتهوا الى بابه قطعوا القراءة ودخلوا الى موضع الصلاة عليها الا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته فان الحالة المميزة له في ذلك أن يدخلوه في القراءة الى موضع الصلاة عليه وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بازاء باب البريد فيصلون أفراداً أفراداً ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرؤنها ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة الى الدين فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو

معينه أو بحييه أو زكيه أو نجيبه الي ما لا غاية له من هـذه الالفاظ الموضوعة وتتبعها ولاسيا في الفقهاء بما شئت أيضاً من سيد العلماء وجمال الأئمة وحجة الاسلام وفخر الشريعة وشرف الملة ومفتي الفريقين الي ما لانهاية له من هذه الالفاظ المحالية فيصعد كل واحد منهم الى الشريعة ساحباً أذياله من الكبر ثانياً عطفه وقذاله فاذا استكملوا وفرغوا من القراءة وانتهى المجلس بهم منتهاه قام وعاظهم واحد واحـد بحسب رتبهم في المعرفة فوعظ وذكر ونبه على خدع الدنيا وحذر وأنشد في المعني ما حضر من الاشعار ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفي ثم قعد وتلاه آخر على مثل طريقته الى أن يفرغوا ويتفرقوا فربما كان مجلساً نافعاً لمن يحضره من الذكرى ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة واذا لقي أحداً منهم آخر مسلماً يقول جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السـلام فيتعاطون المحال تعاطيا والجد عندهم عنقاء مغرب وصفة سلامهم ايماء للركوع أو السجود فتري الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسـط وقبض وربما طالت بهـم الحالة في ذلك فواحد يحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء وعند استعراض رقيق الاماء فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الابية منه واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل

فياللعجب منهم اذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا الى هذه الغاية فى الالفاظ بينهم فبما اذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم لقد تساوت الاذناب عندهم والرؤوس ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس فسبحان خالق أطواراً لا شريك له ولا معبود سواه ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلها انهم يمشون وأيديهم الى خلف قابضين بالواحدة على الاخري ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة مهانة واستكانة كانهم قد سيموا تعنيفاً وأوثقوا تكتيفاً وهم يعتقدون تلك الهيئة تمييزاً لهم في ذوى الخصوصية وتشريفاً ويزعمون انهم يجدون بها نشاط في الاعضاء وراحة من الاعياء والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الارض شبراً أو يضع حلفه اليد الواحدة على الأخرى قد اتخذوا هذه المشية بينهم سنناً وكل منهم قد زين له سوء عمله فرآه حسناً أستغفر الله منهم فان لهم من آداب المصافحة عوائد تجدد لهم الايمان وتستوهب لهم من الله الغفران لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصافحة فهم يستعملونها أثر الصلوات ولا سيما أثر صلاة الصبح وصلاة العصر واذا سلم الامام وفرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره فيتفرقون عن مجلس مغفرة بفضل الله عز وجل وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد انهم يستعملونها عند الاهلة ويدعوا بعضهم لبعض ويتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير فيه وفيما يعود عليه من أمثاله وتلك أيضاً طريقة حسنة ينفعهم الله بها لما

فيها من تعاطي الدعوات وتجديد المودات ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضاً رحمة من الله تعالى ونعمة وقد تقدم الذكر أيضاً في غيرموضع من هذا الكتاب عن أحسن سيرة السلطان بهذه الجهات صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب وماله من المآثر المأثورة في الدنيا والدين ومثابرته على جهاد أعداء الله لانه ليس أمام هذه البلدة بلدة للاسلام والشام أكثره بيد الافرنج فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات فهو لا يأوى لراحة ولا يخلد الى دعة ولا يزال سرجه مجلسه انا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكرك وقد تقدم الذكر أيضاً له وهو عليه محاصرله حتى الآن والله تعالى يعينه على فتحه وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين بسدة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكرعنه في حضر محفل علماء البلد وفقهائه ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاها عنه ورأينا أثباتها هنا احداها ان الحلم من سجاياه فقال وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه أما أنا فلأن أخطئ في العفو أحب الي من أن أصيب في العقوبة وهذا في الحلم منزع أحنفي وقال أيضاً وقد تنوشدت بحضرته الاشعار وجرى ذكر من سلف من أكارم الملوك وأجوادهم والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضاً مما أراقه من حر ماء وجهه في استمناحه اياي وهذا في الكرم مذهب رشيدي أو جعفري وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والاثرة مستعدياً على جمال ذكر

انه باعه جملا معيباً أو صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه فقال السلطان ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه ممتثلة وانما أنا عبد الشرع وشحنته والشحنة عندهم صاحب الشرطة فالحق يقضي لك أو عليك وهذا فى العدل مقصد عمرى وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخراً والله يمتع ببقائه الاسلام والمسلمين بمنه

شهر جمادى الآخرة عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاحد التاسع من شهر ستمبر العجمي ونحن بدمشق حرسها الله على قدم الرحلة الى عكة قصحها الله والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى وفى مراكبهم المعدة لسفر الخريف المعروف عندهم بالصليبية عرفنا الله فى ذلك معهود خيرته وتكفلنا بكلاءته وعصمنا بعزته وقدرته انه سبحانه الحنان المنان ولى الطول والاحسان لا رب غيره وكان انفصالنا منها عشى يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور وهو الثالث عشر من شهر ستمبر المذكور فى قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة ومن أعجب ما يحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً وذلك ان صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك المتقدم الذكر في هذا التاريخ قصد اليه الافرنج فى جميعهم وقد تألبوا من كل أوب وراموا أن يسبقوه الى موضع الماء ويقطعوا

عنه الميرة من بلاد المسلمين فسمد اليهم وأقلع عن الحصن بجملته
وسبقهم الي موضع الماء فحادوا عن طريقه وسلكوا طريقاً وعراً ذهب
فيه أكثر دوابهم وتوجهوا الي حصن الكرك المذكور وقد سد عليهم
بُنيات الطرق القاصدة الى بلادهم ولم يبق لهم الا طريق عن الحصن
فأخذ على الصحراء ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه فاهتبل صلاح
الدين في بلادهم الغرة وانتهز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصد
فدهم مدينة نابلوس وهجمها بعسكره فاستولى عليها وسبي كل من فيها
وأخذ اليها حصوناً وضياعاً وامتلأت أيدى المسلمين سبياً لا يحصى
عدده من الافرنج ومن فرقة اليهود تعرف بالسمرة منسوبة الى السامري
وانبسط فيهم القتل الذريع وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق
الحصر عنها الى ما اكتنفت من الامتعة والذخائر والاسباب والاثاث الى
النعم والكراع والي غير ذلك وكان فعل هذا السلطان الموفق أن
أطلق أيدي المسلمين على جميع ما احتازته وسلم لهم ذلك فاحتازت كل
يد ما حوت وامتلأت غنى ويساراً وعفى الجيش على رسوم تلك
الجهات التي مر عليها من بلاد الفرنج وآبو غانمين فائزين بالسلامة
والغنيمة والاياب وتخلصوا من أسرى المسلمين عدداً كثيراً وكانت
غزوة لم يسمع بمثلها فى البلاد وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين
قد طرقوا بالغنائم كل بما احتواه وحصلت يده عليه وكان مبلغ السبي
آلافاً لم نحقق احصاءها ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا
الاقرب ليوم انفصالنا وأعلمنا انه يجم عسكره قليلا ويعود الى الحصن

المذكور فالله يعينه ويفتح عليه بعزته وقدرته وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين وناهيك من هذا الاعتدال فى السياسة فكان مبيتنا ليلة الجمعة بدارية وهى قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة وبعده الى قرية تعرف ببيت جن هي بين جبال ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت الى مدينة بانياس واعترضتنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح أعلمنا انها تعرف بشجرة الميزان فسألنا عن ذلك فقيل لنا هي حد بين لامن والخوف فى هذه الطريق لحرامية الافرنج وهم الحواسة والقطاع من أخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر ومن أخذ دونها الي جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك أطلق سبيله لهم فى ذلك عهد يوفون به وهو من أظرف الارتباطات الافرنجية وأغربها

﴿ذكر مدينة بانياس حماها الله تعالى﴾

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهى صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ويفضى الى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرحاء وكانت بيد الافرنج فاسترجعها نور الدين رحمه الله ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للافرنج يسمى هونين بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج وبين المسلمين لهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة فهم يتشاطرون الغلة

على استواء ومواشيهم مختلطة ولا حيف يجري بينهم فيها فرحلنا عنها عشى يوم السبت المذكور الى قرية تعرف بالمسية بمقربة من حصن الافرنج المذكور فكان مبيتنا بها ثم رحلنا منها يوم الاحد سحراً واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر وأكثر شجره الرند بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوى تلتقي حافتاه ويتعلق بالسماء أعلاه يعرف بالاسطبل لو ولجته العساكر لغابت فيه لا منجي ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه للهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان فعجبنا من أمر ذلك المكان فأجزناه ومشينا عنه يسيراً وانتهينا الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القوافل وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة هي أم الملك الخنزير صاحب عكة دمرها الله فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ومكس الناس تمكيساً غير مستقصى والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ولا اعتراض على التجار فيه لانهم يقصدون موضع الملك الملعون وهو محل التعشير والضريبة فيه قيراط من الدينار والدينار أربعة وعشرون قيراطاً وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين وذلك لمقدمة منهم حفظت الافرنج عليهم سببها ان طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤسهم فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم وقال الافرنج ان هؤلاء المغاربة

كانوا يختلفون على بلادنا ولسالمهم ولا نرزأهم شيئا فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع أخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم فللمغاربة في اداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل فى نكايتهم العدو ويسهله عليهم ويخفف عنته عنهم ورحلنا من تبنين دمرها الله سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم فى غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم وكل مابأيدي الافرنج من اطلاق بساحل الشام على هذه السبيل رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم لانهم على ضد أحوالهم من الترفية والرفق وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله فالي الله المشتكى من هذه الحال وحسبنا تعزية وتسلية ماجاء في الكتاب العزيز (ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة وأحضرهم صغيراً

وكبيراً فى غرفة متسعة بمنزله وأمالهم ألوانا من الطعام قدمها لهم فعمهم بتكرمته وكنا فيمن حضر هـذه الدعوة وبتنا تلك الليلة وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور وهو الثامن عشر لستمبر مدينة عكة دمرها الله وحملنا الي الديوان وهو خان معد لنزول القافلة وامام بابه مصاطب مفروشة فيها كتّاب الديوان من النصاري بمحابر الابنوس المذهبة الحلى وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب لقب وقع عليه لمكانه من الخطه وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند وكل مايجبى عندهم راجع الي الضمان وضمان هذا الديوان بمال عظيم فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعـلاه وطلب رحل من لاسلعة له لئلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله فنزل حيث شاء وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل فنزلنا بها فى بيت اكتريناه من نصرانية بازاء البحر وسألنا الله تعالى حسن الخلاص وتيسير السلامة

﴿ ذكر مدينة عكة دمرها الله وأعادها ﴾

هى قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت فى البحر كالاعلام مرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطئ الاقـدام تستعر كفراً وطغيانا وتفور خنازير وصلباناً زفرة قذرة مملوءة كلها رجساً وعذرة

انتزعها الافرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة السادسة فبكي لها الاسلام ملء جفونه وكانت أحد شجونه فعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضارب للنواقس وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدي المسلمين مسجداً صغيراً يجتمع الغرباء منهم فيه لاقامة فريضة الصلاة وعند محرابه قبر صالح النبي صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ببركة هذا القبر المقدس وفي شرقي البلدة العين المعروفة بعين البقر وهي التي أخرج الله منها البقر لآدم صلى الله عليه وسلم والمهبط لهذه العين على ادراج وطية وعليها مسجد بقي محرابه على حاله ووضع الافرنج في شرقيه محرابا لهم فالمسلم والكافر يجتمعان فيه يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه وهو بأيدي النصارى معظم محفوظ وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين فكان مقامنا بها يومين ثم توجهنا الى صور يوم الخميس الثاني عشر لجمادى المذكورة والموفي عشرين لسبتمبر المذكور على البر واجتزنا في طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب وهي مطلة على قرى وعمائر متصلة وعلى قرية مسوّرة تعرف باسكندرونة وذلك لمطالعة مركب بها أعلمنا انه يتوجه الى بجاية طمعاً في الركوب فيه فحللناها عشي يوم الخميس المذكور لان المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلا فنزلنا بها في خان معد لنزول المسلمين

﴿ ذكر مدينة صور دمرها الله تعالى ﴾

مدينة يضرب بها المثل في الحصانة لاتلقي لطالبها بيد طاعة ولا

استكانة قد أعدها الافرنج مفزعا لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لامانيهم هي أنظف من عكة سككا وشوارع وأهلها ألين في الكفر طبائع وأجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع لخلائقهم أسجح ومنازلهم أوسع وأفسح وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن وعكة أكبر وأطغى وأكفر وأما حصانتها ومنعتها فأعجب مايحدث به وذلك انها راجعة الى بابين أحدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة فالذي في البر يفضي اليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لايدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على أعينهم فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ولعكة مثلها في الوضع والصفة لكنها لاتحمل السفن الكبار حمل تلك وانما ترسى خارجها والمراكب الصغار تدخل اليها فالصورية أكمل وأجمل وأحفل فكان مقامنا بها احد عشر يوماً دخلناها يوم الخميس وخرجنا منها يوم الاحد الثاني والعشرين لجمادى المذكورة وهو آخر يوم من ستمبر وذلك ان المركب الذي كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه فلم نر الركوب فيه ومن مشاهد

زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الايام عند ميناءها وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوى أرحامها وهى فى أبهى زيّ وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك منتظم وهي رافلة فى حليها وحللها تمشى فترافي فتر مشى الحمامة أو سير الغمامة نعوذ بالله من فتنة المناظر وامامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية تسحب أذيالها خلفهم ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلى والآلات اللهوية قد تقدمتهم المسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة فأدانا الاتفاق الي رؤية هذا المنظر الزخرفى المستعاذ بالله من الفتنة فيه ثم عدنا الى عكة في البحر وحللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى المذكورة وأول يوم من شهر اكتوبر واكترينا في مركب كبير نروم الاقلاع الى مسينة من بلاد جزيرة صقلية والله تعالي كفيل بالتيسير والتسهيل بعزته وقدرته وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقى بأيدي المسلمين ولهم فيها مساجد أخر فأعلمنا

به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين انها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة وأخذت عكة قبلها باثنتي عشرة سنة بعد محاصرة طويلة وبعد استيلاء المسغبة عليهم ذكر لنا انهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها وانهم حملتهم الانفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها وذلك انهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم ثم يخرجوا الى عدوهم بعزمة نافذة ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعين منهم وأجمعوا على دفع البلد والخروج منه بسلام فكان ذلك وتفرقوا في بلاد المسلمين ومنهم من استهواه حب الوطن فدعاه الى الرجوع والسكنى بينهم بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها والله غالب على أمره سبحانه جلت قدرته ونفذ فى البرية مشيئته وليست له عند الله معذرة فى حلول بلدة من بلاد الكفر الا مجتازاً وهو يجد مندوحة فى بلاد المسلمين لمشقات وأهوال يعانيها فى بلادهم منها الذلة والمسكنة الذمية ومنها سماع ما يفجع الافئدة من ذكر من قدس الله ذكره وأعلى خطره لاسيما من أراذلهم وأسافلهم ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير وجميع المحرمات الى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده فالحذر الحذر من دخول بلادهم والله تعالى المسؤول حسن الاقالة والمغفرة من هذه الخطيئة التى زلت فيها القدم ولم تتداركها الا بعد موافقة الندم فهو سبحانه ولي ذلك لارب غيره ومن الفجائع التى يعاينها من

حل بلادهم أسرى المسلمين يرسفون في القيود ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد والاسيرات المسلمات كذلك في أسوقهن خلاخيل الحديد فتنفطر لهم الافئدة ولا يغنى الاشفاق عنهم شيئاً ومن جميل صنع الله تعالى لاسري المغاربة بهذه البلاد الشامية الافرنجية ان كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها انما يعينها فى افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم وانهم لا مخلص لهم سوي ذلك بعد الله عز وجل فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم فلوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل الثراء انما ينفقون أموالهم في هذه السبيل وقد كان نور الدين رحمه الله نذر فى مرضة أصابته تفريق اثني عشر الف دينار فى فداء أسرى من المغاربة فلما استبل من مرضه أرسل في فداءهم فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة وكانوا من حماة من جملة عمالته فأمر بصرفهم واخراج عوض منهم من المغاربة وقال هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم فانظر الي لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربى وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسير التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء أحدهما يعرف بنصر بن قوام والثانى بأبى الدر ياقوت مولى العطافي وتجارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجى ولا ذكر فيه لسواهما ولهما الامناء من المقارضين فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما وشأنهما في الغنى كبير وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الاسرى المغربيين بأموالهما وأموال

ذوى الوصايا لانهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما
وبذلهما أموالهما في هذه السبيل فلا يكاد مغربي يخلص من الاسر الا
على أيديهما فهما طول الدهر بهذه السبيل ينفقان أموالهما ويبذلان
اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين
والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين ومن سوء الاتفاقات المستعاذ بالله من
شرها انه صحبنا فى طريقنا الى عكة من دمشق رجل مغربى من بونة
عمل بجاية كان أسيراً فتخلص على يدى أبي الدر المذكور وبقى في جملة
صبيانه فوصل فى قافلته الى عكة وكان قد صحب النصارى وتخلق بكثير
من أخلاقهم فما زال الشيطان يستهويه ويغريه الى أن نبذ دين الاسلام
فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور فانصرفنا الى عكة وأعلمنا بخبره وهو
بها قد بطس ورجس وقد عقد الزنار واستعجل النار وحقت عليه
كلمة العذاب وتأهب لسوء الحساب وسحيق المآب نسأل الله عزوجل
أن يثبتنا بالقول الثابت فى الدنيا والآخرة ولا يعدل بنا عن
الملة الحنيفية وأن يتوفانا مسلمين بفضله ورحمته وهذا الخنزير صاحب
عكة المسمي عندهم بالملك محجوب لا يظهر قد ابتلاه الله بالجذام فعجل
له سوء الانتقام قد شغلته بلواه في صباه عن نعيم دنياه فهو فيها يشقى
ولعذاب الآخرة أشد وأبقى وحاجبه وصاحب الحال عوضه خاله
القومس وهو صاحب الجبي واليه ترتفع الاموال والمشرف على الجميع
بالمكانة والوجاهة وكبر الشأن في الافرنجية اللعينة القومس اللعين
صاحب طرابلس وطبرية وهو ذوقدر ومنزلة عند الافرنج وهو المؤهل

الملك والمرشح له وهو موصوف بالدهاء والمكر وكان أسيراً عند نور الدين نحو اثنى عشرة سنة أو أزيد ثم تخلص بمال عظيم بذله في نفسه مدة صلاح الدين وعند أول ولايته وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها ويقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصد طريقها وبحيرة طبرية مشهورة وهي ماء عذب وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة وطولها نحو ستة فراسخ والاقوال فيها تختلف وهذا القول أقربها الى الصحة لانا لم نعاينها وعرضها أيضاً مختلف سعة وضيقاً وفيها قبور كثيرة من قبور الانبياء صلوات الله عليهم كشعيب وسليمان ويهوذا وروبيل وابنة شعيب زوج الكليم موسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وجبل الطور منها قريب وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام وهو بين المغرب والقبلة من عكة الى جهة الاسكندرية والله يعيده الى أيدي المسلمين ويطهره من أيدي المشركين بعزته وقدرته وهاتان المدينتان عكة وصور لا بساتين حولها وانما هما في بسيط من الارض أفيح متصل بسيف البحر والفواكه تجلب اليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما ولهما عمالة متسعة والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياع ومنها تجيء الثمرات اليهما وهما من غرر البلاد ولعكة في الشرق منها مع آخر البلد واد يسيل ماء ولها مع شاطئه مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظراً ولا ميدان للخيل يشبهه واليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشية وبه يجتمع العسكر دمره الله

الصور عند بابها البرى عين معينة ينحدر اليها على أدراج والآبار والجباب بها كثيرة لا تخلو دار منها والله تعالى يعيد اليها والى اخواتها كلمة الاسلام بمنه وكرمه وفى يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة والسادس لاكتوبر صعدنا الى المركب وهو سفينة من السفن الكبار بمنة الله تعالى على المسلمين بالماء والزاد وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الافرنج وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين وهم حجاج بيت المقدس عالم لا يحصى ينتهي الى أزيد من ألفي انسان أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ومأمول التسهيل والصنع الجميل بمنه وكرمه ولا معبود سواه ونحن به منتظرون موافقة الريح وكمال الوثق بمشيئة الله عز وجل

﴿ شهر رجب الفرد عرفنا الله بركته ويمنه ﴾

استهل هلاله ليلة الثلاثاء بموافقة التاسع لشهر اكتوبر ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة منتظرون كمال وسعة والاقلاع بسم الله تعالى وبركته وجميل صنعه وكريم مشيئته وتمادى مقامنا فيه مدة اثنى عشر يوماً لعدم استقامة الريح وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب وذلك ان الريح الشرقية لا تهب فيها الا فى فصلي الربيع والخريف والسفر لا يكون الا فيهما والتجار لا ينزلون الى عكة بالبضائع الا فى هذين الفصلين والسفر فى الفصل الربيعي من نصف ابريل فيه تحرك الريح الشرقية وتطول مدتها الى آخر شهر مايه او اكثر واقل بحسب مايقضى الله تعالى به والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر وفيه

تحرك الريح الشرقية ومدتها أقصر من المدة الربيعية وانما هي عندهم خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف والريح الغربيــة أكثرها دواماً فالمسافرون الي المغرب والى صقلية والى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين انتظار وعد صادق فسبحان المبدع في حكمته المعجز في قدرته لا اله سواه وكنا طول هـذه المدة التى أقمنا فيها على ظهر المركب نبيت فى البر ونتفقد المركب في الاحيان فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور والثامن عشر لاكتوبر أقلع المركب وكنا على عادتنا في البر بائتين ولم يحسن النهار للروم بأهبة السفر فضيعنا الحزم ونسينا المثل المضروب في أعداد الماء والزاد وان لا يفارق الانسان رحله فاصبحنا والمركب لا عين له ولا أثر فاكترينا للحين زورقاً كبيراً له أربعة مجازيف وأقلعنا نتبعه وكانت مخاطرة عصم الله منها فأدركنا المركب مع العشى فحمدنا الله عز وجل على مامن به وكان أول ذلك اليوم يوم شدتنا فى هذا السفر الطويل وآخره والحمـد لله يوم فرجنا ولله الحمد والشكر على كل حال واتصل جرينا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة فى وجه المركب فأخذ رئيسه ومدبره الرومي الجنوي وكان بصيراً بصنعته حاذقاً في شغل الرياسة البحرية يراوغها تارة يميناً وتارة شمالا طمعاً أن لا يرجع على عقبــه والبحر فى أثناء ذلك وهو ساكن فلما كان نصف الليل أو قريب منه ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور

والسابع والعشرين لاكتوبر تردت علينا الريح الغربية فقصفت قرية الصاري المعروف بالاردمون وألقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع وعصم الله من وقوعها في المركب لأنها كانت تشبه السواري عظما وضخامة فتبادر البحريون اليها وحط شراع الصاري الكبير وعطل المركب من جريه وصيح بالبحريين الملازمين للمشاري المرتبط بالمركب فقصدوا الي نصف الخشبة الواقفة فى البحر وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها وحصلنا فى أمر لا يعلمه الا الله تعالي وشرعوا فى رفع الشراع الكبير وأقاموا فى الاردمون شراعا يعرف بالدلون وبتنا بليلة شهباء الى أن وضح الصباح وقدمن الله عز وجل بالسلامة وشرع البحريون فى اصلاح قرية أخرى من خشبة كانت معدة عندهم والريح الغربية على أول لجاجها ونحن بين اليأس والرجاء نتردد مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالي وخفي لطفه ومعهود فضله سبحانه هو أهل ذلك جلت قدرته وتناهت عظمته لا اله سواه وفي يوم الاربعاء الثالث والعشرين منه تحركت الريح الشرقية نسيما فاتراً عليلا فاستبشرت النفوس بها رجاء فى نمائها وقوتها فكانت نفساً خافتاً ثم بعد ذلك غشي البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ولم يبق للجهات الاربع نفس يتنسم فبقينا لاعبين على صحفة ماء تخاله العين سبيكة لجين كأنما نجول بين سمائين وهذا الهواء الذى يسميه البحريون القلبي وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور وهو أول يوم من نوفبر العجمي كان للنصارى عيد مذكور عندهم

احتفلوا له في اسراج الشمع وكاد لا يخلو أحد منهم صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى من شمعة في يده وتقدم قسيسهم للصلاة فى المركب بهم ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم والمركب يزهو كله أعلاه وأسفله سرجاً متقدة وتمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة ثم أصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن واتصل بنا ذلك الي ليلة الاحد السابع والعشرين منه فتحركت ريح شمالية فعاد المركب بها لجريته واستبشرت النفوس والحمد لله

﴿ شهر شعبان المكرم عرفنا الله خيره وبركته ﴾

غم هلاله علينا فأكملنا عدة أيام رجب فهو على الكمال من ليلة الخميس بموافقة الثامن من نوفمبر وقد تم لنا على ظهر البحر من يوم اقلاعنا من عكة ثمان وعشرون يوماً حتى عدمنا الانس واستشعرنا القنط واليأس وصنع الله عز وجل مأمول ولطفه الخفي بنا كفيل بمنه وكرمه وقل الزاد بأيدي الناس لكن هم من هذا المركب بمنة الله تعالي فى مدينة جامعة للمرافق فكل ما يحتاج شراؤه يوجد من خبز وماء ومن جميع الفواكه والادم كالرمان والسفرجل والبطيخ السندى والكمثرى والشاهبلوط والجوز والحمص والباقلانيا مطبوخاً والبصل والثوم والتين والجبن والحوت وغير ذلك مما يطول ذكره عاينا جميع ذلك يباع وفي خلال هذه الايام كلها لم يظهر لنا بر والله يأتي بالفرج القريب ومات فيه رجلان من المسلمين رحمهما الله

فقذفا في البحر ومن البلغريين اثنان أيضاً ومات منهم بعد ذلك خلق وسقط منهم واحد في البحر حياً فاحتملته الموج أسرع من خطفة البرق وورث هؤلاء الاموات من المسلمين والنصارى البلغريين رئيس المركب لانها سنة عندهم في كل من يموت في البحر ولا سبيل لوارث الميت الى ميراثه فطال عجبنا من ذلك وفي سحر يوم الثلاثاء السادس من الشهر المؤرخ والثالث عشر من نوفمبر ظهرت لنا جبال في البحر وقد اشتدت الريح الغربية وتوالى اعصارها وكانت تنقلب بالقبول والدبور فألجأتنا الى أحد تلك الجبال فارسينا عنده وسألنا عن الموضع فأعلمنا انه من جزائر الرمانية وهذه الجزائر نيف على الثلاثمائة وخمسين جزيرة وهي الى عمل صاحب القسطنطينية والروم يحذرون أهلها كحذر المسلمين لانهم لا صلح بينهم فأقمنا بذلك المرسى يوم الثلاثاء المذكور وصدر يوم الاربعاء بعده ونزل من تلك الجزيرة قوم باعوا أهل المركب بعض ساعة من النهار في الخبز واللحم بعد أمان أخذوه ثم أقلعنا يوم الاربعاء المذكور وقد تم لنا على ظهر المركب ثمانية وعشرون يوماً وظهر لنا يوم الخميس بعده بر جزيرة أقريطش وهذه الجزيرة أيضاً لعمل صاحب القسطنطينية وطولها نيف على الثلثمائة ميل وقد تقدم ذكرها في سفرنا البحري الى الاسكندرية فبقينا نجري بطولها وهي منا على اليمين والبحر في أثناء ذلك كله هائل والريح لا توافق ونحن ننتظر الفرج من الله عز وجل بصبر جميل ونرتقب منه جل جلاله معهود التيسير والتسهيل بمنه ولطفه وفي يوم السبت

العاشر لشعبان المذكور والسابع عشر لنوفمبر انقطع عنا بر الجزيرة المذكورة ونحن نجري بريح شمالية موافقة فزأرت وعصفت فطار لها المركب بجناحي شراعه والبحر بها قد جن واستشر لجاجه وقذفت بالزبد أمواجه فتخال غواربه المتموجة جبالا متناجة ومع تلك استشعرت النفوس الابلس وغلب رجاؤها اليأس وقد كنا مدة الستة وعشرين يوماً المذكورة التي لم يظهر لنا فيها بر نرجم الظنون ونغازل المتون حذراً من نفاد الزاد والماء والحصول بين المهلكين الجوع والظماء فمن قائل يقول انا قد ملنا في جرينا الى بر الغرب وهو بر افريقية وآخر يزعم انا قد ملنا الى بر الارض الكبيرة بر القسطنطينية وما يليها ومنهم من يقول الى اللاذقية جهة الشام ومنهم من يقول الى دمياط بر الاسكندرية وكنا نحذر ان تلجئنا الريح الى أحد جزائر الرمانية الخالية فنشتو فيها أو تضطرنا الحال الى المعمور منها وليس في هذه الوجوه المتوقعة كلها وجه فيه حظ لمختار حتى أتى الله بالفرج وأذهب البأس واليأس ومكن في النفوس الايناس بعد مكابدة الاسرين ومقاساة البرحين فلله در القائل

البحر مر المذاق صعب لا جعلت حاجتي اليه
أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه

ونحن الآن بفضل الله تعالى نتطلع البشرى بظهور بر صقلية ان شاء الله وفي النصف من ليلة الاحد الحادي عشر منه انقلبت الريح غربية وكشف النوء من المغرب وجاءت الريح عاصفة فأخذت بنا جهة الشمال وأصبحنا يوم الاحد المذكور والهول يزيد والبحر قد هاج

هائجه وماج مائجه فرمي بموج كالجبال يصدم المركب صدمات يتقلب لها
على عظمه تقلب الغصن الرطيب وكان كالسور علواً فيرتمع له الموج
ارتفاعاً يرمي فى وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب فلما جن الليل اشتد
تلاطمه وصكت الآذان غماغمه واستشرى عسوف الريح فحطت الشرع
واقتصر على الدلالين الصغار دون انصاف الصوارى ووقع اليأس من
الدنيا وودعنا الحياة بسلام وجئنا الموج من كل مكان وظننا أنا قد
أحيط بنافيالها ليلة يشيب لها سود الذوائب مذكورة فى ليالى الشوائب
مقدمة فى تعداد الحوادث والنوائب ونحن منها في مثل ليل صول طولا
فأصبحنا ولم نكد فكان من الاتفاقات الموحشة ان أبصر نابرّ اقريطش
عن يسارنا وجباله قد قامت أما منا وكنا قد خلفناه عن يميننا فاسقطتنا
الريح عن مجرانا ونحن نظن انا قد حزناه فسقط فى أيدينا وخالفنا
المجري المعهود الميمون وهو أن يكون البر المذكور منا يميناً في استقبال
صقلية فاستسلمنا للقدر وتجرعنا غصص هذا الكدر وقلنا

سيكون الذى قضى سخط العبد أو رضى

وفي أثناء ذلك انبسطت الشمس ولان البحر قليلا وصممنا نروم
أخذ مرسى فى البر المذكور الى أن يقضى الله قضاءه وينفذ حكمه
ولكل سفر أوان وسفر البحر انما هو فى أبانه والمعهود من زمانه لا أن
يعتسف في فصول أشهر الشتاء اعتسافاً له والامر لله من قبل ومن بعد
فالحذر الحذر من ركوب مثل هذا الخطر وان كان المحذور لا يغنى
عن المقدور شيئاً وحسبنا الله ونعم الوكيل ثم ان الريح ساعدت عند

استقبالنا البر بعض مساعدة فانصرفنا عنه وتركنا يميناً وعدنا الى قريب
من المجرى المقصود وجرينا بعض ليلة الثلاثاء الثالث عشر منه وقد تم
لنا على ظهر المركب أربعة وثلاثون يوماً والشرع مصلبة وهو عندهم
أعدل جرى لانه لا يكون الا بالريح التى تتلقى مؤخر المركب في مجراه
فأصبحنا يوم الثلاثاء المذكور على مثل تلك الحال وساعدت الريح
ففرحنا وسررنا وطلعت علينا مراكب قاصدة مقصدنا فاستبشرنا بها
وعلمنا انا على مجري مقصودولله الحمد والشكر على كل حال من الاحوال
ثم انقلبت الريح غربية وهبت عاصفاً فألجئتنا اضطراراً بعد ان جرت
بنا بعض ليلة الاربعاء ويوم الاربعاء الى مرسى من مراسى جزائر
الرمانية وهو رأس الجزيرة ومنه الى الارض الكبيرة مجاز فيه الاثنا
عشر ميلا فأصبحنا يوم الخميس الخامس عشر لشعبان المكرم والثانى
والعشرين لنوفمبر فحمدنا الله عز وجل على ما من به من السلامة
وتوافت بعدنا الى ذلك المرسى خمسة مراكب منها اثنان كانا قد أقلع
من بر الاسكندرية عن عهد نحو خمسين يوماً فأسقطتهما الريح فأقمنا
بذلك المرسى اربعة أيام وجدد الناس به الماء وازداد لان العمارة كانت
منا قريباً فنزل أهل الجزيرة وبايعوا أهل المركب فى الخبز واللحم
والزيت وما كان عندهم من الادم ولم يكن خبزهم براً خالصاً انما كان
خليط بالشعير وكان يضرب للسواد تهافت الناس عليه على علاته ولم
يكن بالرخيص في سومه وشكروا الله على ما من به عليهم وفي هذا
المرسى كمل لنا على ظهر البحر أربعون يوماً والحمد لله على كل حال

ومدة مقامنا بالمرسى لم يفتر عصوف الريح الغربية وعادت أشد ما يكون هبوباً فحمدنا الله تعالى على أن لم تأخذنا ونحن على ظهر البحر جارين والحمد لله على جميل صنعه وأقلعنا من المرسى المذكور يوم الاثنين التاسع عشر لشعبان المذكور والسادس والعشرين لنونبر بريح طيبة موافقة فاستبشرنا بها واستطلعنا جميل صنع الله عز وجل ولطف قضائه لارب سواه وتمادى سيرنا الى يوم الخميس الثاني والعشرين لشعبان والتاسع والعشرين لنونبر ثم انقلبت الريح غربية وأنشأت سحابة فيها رعد قاصف وزجتها ريح عاصف وتقدمها برق خاطف فأرسلت حاصباً من البرد صبته علينا في المركب شآبيب متداركة فارتاعت له النفوس ثم أسرع انقشاعها وتجلى عن الانفس ارتياعها وبتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة وطالعنا اليأس من مكمنه فلما أسفر الصبح وطلع النهار أبصرنا بر صقلية لائحاً أمامنا فيالها بشرى ومسرة لو لم يعقبه حسرة فى كره فأمسينا ليلة السبت وهو أول يوم من دسمبر ونحن على ادراكه في أقل من ثلثها أو منتصفها ولكل أجل كتاب وميقات وكم أمل تعترض دونه الآفات فما كان الا كلا ولا حتى ضربت في وجوهنا ريح أنكصتنا على الاعقاب وحالت بين الابصار والارتقاب وما زالت تعصف حتى كادت تنسف وتقصف خطت الشرع عن صواريها واستسلمت النفوس لباريها وتركنا بين السفينة ومجريها وتتابعت علينا عوارض ديم حصلنا منها ومن الليل والبحر في ثلاث ظلم وعباب الموج يتوالى صدماته وتطفر الالباب وجفاته فبذت نفوسنا كل أمنية وتأهبت

للقاء المنية وقطعنا هذه الليلة البهماء فى مصادمة أهوال ومكابدة أوجال ومقاساة أحوال يالها من أحوال ثم أصبحنا يوم السبت ليوم عصيب أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب والامواج والرياح تترامي بنا حيث شاءت وقد استسلمنا للقضاء وتمسكنا بأسباب الرجاء ثم تداركنا صنع الله تعالي مع المساء ففترت الريح ولان متن البحر وأسفر وجه الجو وأصبحنا يوم الاحد ثاني دسمبر والخامس والعشرين لشعبان وقد بدّل لنا من الخوف الامان وتطلعت الوجوه كأنها انتشرت من الاكفان وساعدت الريح بعض مساعدة فعدنا نطلب من البر أثراً بعد عين ونرجم الظنون بين متي وأين والله عز وجل لطيف بعباده وكفيل بمعهود صنعه الجميل ومعتاده لا رب سواه

شهر رمضان المعظم عرفنا الله البركة والقبول فيه بمنه وكرمه لا رب غيره

استهل هلاله ليلة الجمعة السابع لشهر دسمبر ونحن بأزاء الارض الكبيرة على متن البحر مترددين وقد من الله علينا بريح شرقية فاترة للهب سرنا بها سيراً رويداً حتي وصلنا هذا الموضع من أزاء الارض الكبيرة المذكورة وأبصرنا فيها ضياعاً وعمارة كثيرة أعلمنا انها من قلوزية وهي من بلاد صاحب صقلية لان بلاده فى الارض الكبيرة يتصل نحو شهرين وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريين فارين بأنفسهم

لمسّغبة مست أهل المركب لعدم الزاد ونفاده وحسبك أنا كنا نقتصر
على مقدار رطل من الخبز اليابس نتقسمه بين أربعة منا ونبله بيسير
من الماء فنتبلغ به وكل من نزل من البلغريين باع فضلة زاده فترفق
المسلمون بابتياع ما أمكن منه على غلائه وانتهى الى مقدار خبزة
بدرهم من الخالص فما ظنك بمدة شهرين على ظهر البحر في مسافة
ظن الناس انهم يقطعونها في عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً الغاية فالحازم
من أدخل زاد ثلاثين يوماً وسائر الناس لعشرين يوماً ولخمسة عشر
يوماً ومن العجب في الاتفاقات في الاسفار البحرية انا استطلعنا على
ظهر البحر أهلة ثلاثة أشهر هلال رجب وهلال شعبان وهلال رمضان
هذا وفي يوم مستهله مع الصباح أبصرنا أمامنا جبل النار وهو جبل
البركان المشهور بصقلية فاستبشرنا بذلك والله تعالى يعظم أجورنا على
ما كابدناه ويختم انا بأجمل الصنع وأسناه ويوزعنا في كل حال شكر
ما أولاه بمنه وكرمه ثم حركتنا من ذلك الموضع ريح موافقة فلما كان
عشي يوم السبت ثاني الشهر المذكور اشتد هبوبها فزجت المركب تزجية
سريعة فلم يكن الا كلا ولا حتى أدنتنا الى أول المضيق والليل قد جن
وهذا المضيق ينحصر فيه البحر الى مقدار ستة أميال وأضيق موضع فيه
ثلاثة أميال يعترض من بر الارض الكبيرة الى بر جزيرة صقلية والبحر
بهذا المضيق ينصب انصباب السيل العرم ويغلي غليان المرجل لشدة
انحصاره وانضغاطه وشقه صعب على المراكب فاستمر مركبنا في سيره
والريح الجنوبية تسوقه سوقاً عنيفاً وبر الارض الكبيرة عن يميننا وبر

صقلية عن يسارنا فلما كان مع نصف ليلة الاحد الثالث للشهر المبارك
وقد شارفنا مدينة مسينة من الجزيرة المذكورة دهمتنا زعقات البحريين
بأن المركب قد أمالته الريح بقوتها الى أحد البرين وهو ضارب فيه
فأمر رئيسهم بحط الشرع للحين فلم ينحط شراع الصارى المعروف
بالاردمون وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به فلما أعياهم
مزقه الرائس بالسكين قطعاً قطعاً طمعاً فى توقيفه وفى أثناء هذه
المحاولة سح المركب بكلكله على البر والتقاه بسكانيه وهي أرجلاه
اللتان يصرف بهما وقامت الصيحة الهائلة في المركب فجاءت الطامة
الطامة الكبرى والصدعة التي لم نطق لها جبراً والقارعة الصماء التى
لم تدع لنا صبراً والتدم النصارى التداماً واستسلم المسلمون لقضاء ربهم
استسلاما ولم يجدوا سوى حبل الرجاء استمساكا واعتصاما وتعاورت
الريح والامواج صفع المركب حتى تكسرت رجله الواحدة فألقى الريس
مرسى من مراسيه طمعاً في تمسكه به فلم يغن شيئاً فقطع حبله وتركه
في البحر فلما تحققنا انها هى قمنا فشددنا للموت حيازيما وأمضينا على
الصبر الجميل عزائمنا وأقمنا نرتقب الصباح أو الحين المتاح وقد علا
الصياح وارتفع الصراخ من أطفال الروم ونسائهم وألقى الجميع عن
يد الازعان وقد حيل بين النصر والنزوان ونحن قيام نبصر البر قريباً
ونتردد بين ان نلقى بأنفسنا اليه سبحاً أو ننتظر لعل الفرج من الله
يطلع صبحاً فأحضرنا نية الثبات والبحريون قد ضموا العشارى
لاخراج المهم من رجالهم ونسائهم وأسبابهم فساروا به الى البر دفعة

واحدة ثم لم يطيقوا رده وقذفته الموج مكسراً على ظهر البر فتمكن حينئذ اليأس من النفوس وفى أثناء مكابدة هذه الاحوال أسفر الصبح فجاء نصر الله والفتح وحققنا النظر فاذا بمدينة مسينة امامنا على أقل من نصف الميل وقد حيل بيننا وبينها فعجبنا من قدرة الله عز وجل فى تصريف أقداره وقلنا رب مجلوب اليه

حتفه فى عتبة داره ثم تمكن الشروق فجاءتنا الزواريق مغيثة ووقعت الصيحة في المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله متطلعاً لتلك الحال وبادرنا الي النزول فى الزواريق والامواج لشدتها لا يمكنها الوصول الى المركب فكان نزولنا فيها خاتمة الهول العظيم ونجونا الى البر منجى أبي نصر عن قدر وتلف للناس بعض أسبابهم فتسلوا عن الغنيمة باياهم ومن العجب على ما أخبرنا به ان هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراً من المسلمين يتطلعون من المركب وليس لهم شئ يؤدونه في نزولهم لان أصحاب الزواريق أغلوا على الناس فى تخليصهم فسأل عنهم فأعلم بقصتهم فأمر لهم بمائة رباعي من سكته ينزلون بها وخلص جميع المسلمين عن سلام وقيل الحمد لله رب العالمين وفرغ النصاري جميع ما كان لهم فيه فأصبح في اليوم الثانى وقد جعلت الامواج جذاذاً ورمت به الى البر أفلاذاً فعاد عبرة للناظرين وآية للمتوسمين ووقع العجب من سلامتنا منه وجددنا شكر الله عز وجل على مامنّ به من لطيف صنعه وجميل قضائه وتخليصه لنا من ان يكون هذا القدر ينفذ علينا في الارض الكبيرة أو

احدى جزائر الروم المعمورة فكنا لو سلمنا نستعبد للابد والله عز وجل يميلنا على أداء شكر هذه المنة والنعمة وما تداركنا به من لحظات الرأفة والرحمة انه على ذلك قدير وبعوائد الفضل والخير جدير لا إله سواه ومن جملة صنع الله عز وجل لنا ولطفه بنا في هذه الحادثة كون هذا الملك الرومي حاضراً فيها ولولا ذلك لانتهب جميع ما في المركب انتهابا وربما كان يستعبد جميع من فيه من المسلمين لان العادة جرت لهم بذلك وكان وصول هذا الملك لهذه البلاد بسبب أسطوله الذي ينشئه رحمة لنا والحمد لله على ما من به علينا من حسن نظره الكفيل بنا لا إله سواه

(ذكر مدينة مسينة من جزيرة صقلية أعادها الله تعالى)

هذه المدينة موسم تجار الكفار ومقصد جواري البحر من جميع الاقطار كثيرة الارفاق برخاء الاسعار مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار مشحونة بعبدة الصلبان تغص بقاطنيها وتكاد تضيق ذرعاً بساكنيها مملوءة نتناً ورجساً موحشة لا يجد الغريب فيها انساً أسواقها نافقة حفيلة • وأرزاقها واسعة بارغاد العيش كفيلة • لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان • وان كنت غريب الوجه واليد واللسان • مستندة الى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها والبحر يعترض امامها في الجهة الجنوبية منها ومرساها أعجب مراسي البلاد البحرية لان المراكب الكبار تدنوا فيه من البر حتى تكاد تمسه وتنصب منها الى البر خشبة يتصرف عليها

فالجمال يصعد بحمله اليها ولا يحتاج لزواريق فى وسقها ولا فى تفريغها الا ما كان مرسياً على البعد منها يسيراً فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها واصطبلاتها وذلك لافراط عمق البحر فيها وهو زقاق معترض بينها وبين الارض الكبيرة بمقدار ثلاثة أميال ويقابلها منه بلدة تعرف (برية) وهي عمالة كبيرة وهذه المدينة مسينة رأس جزيرة صقلية وهي كثيرة المدن والعمائر والضياع وتسميتها تطول وطول هذه الجزيرة صقلية سبعة أيام وعرضها مسيرة خمسة أيام وبها جبل البركان المذكور وهو يأتزر بالسحب لافراط سموه ويتعمم بالثلج شتاء وصيفاً دائماً وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى بأنها ابنة الاندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة مشحونة بالارزاق على اختلافها مملوأة بأنواع الفواكه وأصنافها لكنها معمورة بعبدة الصلبان يمشون فى مناكبها ويرتعون في اكنافها والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم قد حسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم ضربوا عليهم اتاوة فى فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة في الارض كانوا يجدونها والله عز وجل يصلح أحوالهم ويجعل العقبى الجميلة مآلهم بمنه وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط والبندق والاجاص وغيرها من الفواكه وليس في مسينة هذه من المسلمين الا نفر يسير من ذوى المهن ولذلك مايستوحش بها المسلم الغريب وأحسن مدنها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلارمة وفيها سكنى الحضريين من المسلمين ولهم

فيها المساجد والاسواق المختصة بهم في الارياض كثير وسائر المسلمين بنباعها وجميع قراها وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها لكن المدينة الكبيرة التى هي مسكن ملكها عليام أكبرها وأحفلها وبعدها مسينة وبالمدينة ان شاء الله يكون مقامنا ومنها نؤمل سفرنا الى حيث يقضى الله عز وجل من بلاد المغرب ان شاء الله وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب وكلهم أو أكثرهم كاتم لمانه متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتي ان الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين وله جملة في من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمرتسمون خاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة وما منهم الا من له الحاشية والخول والاتباع ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الانيقة ولا سيما بحضرة ملكه المدينة المذكورة وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة مطل علي ساحل البحر وهو كثير الاتخاذ الفتيان والجوارى وليس فى ملوك النصارى أشرف فى الملك ولا أنعم ولا أرق منه وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين وملكه عظيم جداً وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتي انه متى ذكر له أن طبيباً أو منجماً اجتاز ببلده أمر بامساكه

وأدرّ له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه والله يعيذ المسلمين من
الفتنة به بمنه وسنه نحو الثلاثين سنة كفى الله المسلمين عاديته وبسطته
ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربيـة وعلامته على
ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة
أبيه الحمد لله شكراً لأنعمه وأما جواريه وحظاياه فى قصره فسلمات
كلهن ومن أعجب ما حدثنا به خديمـه المذكور وهو يحيى بن فتيان
الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك ان الافرنجية من النصرانيات
تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجواري المذكورات مسلمة وهن
على تكتم من ملكهن في ذلك كله ولهن في فعل الخـير أمور عجيبة
وأعلمنا انه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك
فكان يتطلع فى قصره فلا يسمع الا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه
وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليذكر كل أحد
منكم معبوده ومن يدين به تسكيناً لهم وأما فتيانه الذين هم عيون دولته
وأهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون مامنهم الا من يصوم الأشهر تطوعا
وتأجراً ويتصدق تقربا الي الله وتزلفا ويفتك الاسرى ويربي الاصاغر
منهم ويزوجهم ويحسن اليهم ويفعل الخير ما استطاع وهذا كله صنع
من الله عز وجـل لمسلمي هذه الجزيرة وسر من أسرار اعتناء الله
عز وجـل بهم لقينا منهم بمسينة فتى أسمه عبد المسيح من وجوههم
وكبرائهم بعد تقدمة رغبة منه الينا في ذلك فاحتفـل فى كرامتنا وبرنا
وأخرج الينا عن سره المكنون بعد مراقبة منه فى مجلسـه أزال لها

كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرق المباركة من مكة والمدينة قدسهما الله ورغب في ان لا نبخل عليه بما أمكن من ذلك وقال لنا أنتم مدلون باظهار الاسلام فائزون بما قصدتم له رابحون ان شاء الله في متجركم ونحن كاتمون ايماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرّا معتقلون في ملكة كافر بالله قد وضع في أعناقنا ربقة الرق فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج واستهداء أدعيتهم والاغتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لنتخذها عدة الايمان وذخيرة للاكفان فتفطرت قلوبنا له اشفاقا ودعونا له بحسن الخاتمة وأتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه وأبلغ في مجازاتنا ومكافأتنا واستكتمنا سائر اخوانه من الفتيان ولهم في فعل الجميل اخبار مأثورة وفي افتكاك الاسرى صنائع عند الله مشكورة وجميع خدمتهم على مثل أحوالهم ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان انهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذاً من مجلسه فيقضون صلاتهم وربما يكونون بموضع تلحقه عين ملكهم فيسترهم الله عز وجل فلا يزالون بأعمالهم ونياتهم وبنصائحهم الباطنة للمسلمين في جهادها دائم والله ينفعهم ويجمل خلاصهم بمنه ولهذا الملك بمدينة مسينة المذكورة دار صنعة (البحر) تحتوي من الاساطيل على مالا يحصي عدد مراكبه

وله بالمدينة مثل ذلك فكان نزولنا في أحد الفناديق وأقمنا بها تسعة أيام فلما كان ليلة الثلاثاء الثاني عشر للشهر المبارك المذكور والثامن عشر لدسمبر ركبنا في زورق متوجهين الى المدينـة المتقدم ذكرها وصرنا قـريباً من الساحل بحيث نبصره رأى العين وأرسـل الله علينا ريحاً شرقيـة رخاء طيبـة زجت لزورق أهنأ تزجيـة وسرنا نسرح اللحظ في عمائر وقرى متصلة وحصون ومعاقل في قنن الجبال مشرفة وأبصرنا عن يميننا في البحر تسع جزائر قد قامت جبالا مرتفعة على مقربة من بر الجزيرة اثنتان منها تخرج منهـما النار دائماً وأبصرنا الدخان صاعداً منهما ويظهر بالليـل ناراً حمراء ذات ألسن تصعد في الجو وهو البركان المشهور خـبره وأعلمنا ان خروجها من منافس في الجبلين المذكورين يصعد منها نفس ناري بقوة شـديدة تكون عنه النار وربما قذف فيها الحجر الكبير فتلقي به في الساعة الى الهواء لقوة ذلك النفس وتمنعه من الاستقرار والانتهاء الى القعر وهذا من أعجب المسموعات الصحيحة وأما الجبل الشامخ الذي بالجزيرة المعروف بجبل النار فشأنه أيضاً عجيب وذلك ان ناراً تخرج منـه في بعض السنين كالسيل العرم فلا تمر بشيء الا أحرقته حتى تنتهي الي البحر فتركب ثبجة على صفحة حتي تغوص فيـه فسبحان المبدع في عجائب مخلوقاته لااله سواه الى ان حللنا عشى يوم الاربعاء بعـد يوم الثـلاثاء المؤرخ مرسي مدينة شفلودي وبينها وبين مسينة مجرى ونصف مجري

(ذكر مدينة شفلودي من جزيرة صقلية أعادها الله)

هى مدينة ساحلية كثيرة الخصب واسعة المرافق منتظمة أشجار الاعناب وغيرها مرتبة الاسوق تسكنها طائفة من المسلمين وعليها قنة جبل واسعة مستديرة فيها قلعة لم ير أمنع منها اتخذوها عدة لاسطول يفجؤهم من جهة البحر من جهة المسلمين نصرهم الله وكان اقلاعنا منها نصف الليل فجئنا مدينة (ثِرْمة) ضحوة يوم الخميس بسير رويد وبين المدينتين خمسة وعشرون ميلا فانتقلنا فيها من ذلك الزورق الى زورق ثان اكتريناه لكون البحريين (الذين) صحبونا فيه من اهلها

(ذكر مدينة ثِرْمة من الجزيرة المذكورة فتحها الله)

هى أحسن وضعاً من الذي تقدم ذكرها وهى حصينة تترك البحر وتشرف عليه وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد ولها قلعة سامية منيعة وفي أسفل البلدة حمة قد أغنت أهلها عن اتخاذ حمام وهذه البلدة من الخصب وسعة الرزق على غاية والجزيرة بأسرها من أعجب بلاد الله فى الخصب وسعة الارزاق فأقمنا بها يوم الخميس الرابع عشر للشهر المذكور ونحن قد أرسينا في واد بأسفلها ويطلع فيه المد من البحر ثم ينحسر عنه وبتنا بها ليلة الجمعة ثم انقلب الهواء غربياً فلم نجد للاقلاع سبيلا وبيننا وبين المدينة المقصودة المعروفة عند النصارى ببلارمة خمسة وعشرون ميلا فخشينا طول المقام وحمدنا الله تعالى على ما أنعم به من التسهيل فى قطع المسافة في يومين وقد تلبث الزواريق فى

قطعها على ماأعلمنا به العشرين يوما والثلاثين يوما ونيفاً على ذلك فأصبحنا
يوم الجمعة منتصف الشهر المبارك على نية من المسير في البر على أقدامنا
فنفذ نا لطيتنا وتحملنا بعض أسبابنا وخلفنا بعض الاصحاب على الاسباب
الباقيــة في الزورق وسرنا في طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر
ووارد وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا
فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين مايوقع الفتنة في نفوس
أهل الجهل عصم الله جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الفتنة بهم بعزته ومنه
فانتهينا الى قصر سعد وهو على فرسخ من المدينة وقد أخذنا الاعياء فملنا اليه
وبتنا فيه وهذا القصر على ساحل البحر مشيد البناء عتيقه قديم الوضع
من عهد ملكة المسلمين الجزيرة لم يزل ولا يزال بفضل الله مسكنا
للعباد منهم وحوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة والورع وهو
موصوف بالفضــل والبركة مقصود من كل مكان وبازائه عين تعرف
بعين المجنونة وله باب وثيق من الحديد وداخله مساكن وعلالي مشرفة
وبيوت منتظمة وهو كامل مرافق السكنى وفى أعلاه مسجد من أحسن
مساجد الدنيا بهاء مستطيل ذو حنايا مستطيلة مفروش بحصر نظيفة
لم ير أحسن منها صنعة وقد علق فيه نحو الاربعــين قنديلا من أنواع
الصفر والزجاج وأمامه شارع واسع مستدير بأعلى القصر وفى أسفل
القصر بئر عذبة فبتنا فى هــذا المسجد أحسن مبيت وأطيبه وسمعنا
الآذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه وأكرمنا القوم الساكنون فيه
وله امام يصلي بهم الفريضة والتراويح في هذا الشهر المبارك وبمقربة من

هـذا القصر بحو الميل الى جهة المدينة قصر آخر على صفته يعرف
بقصر جعفر وداخله سقاية تفور بماء عذب وأبصرنا للنصارى فى هذه
الطريق كنائس معدة لمرضى النصارى ولهم فى مدنهم مثل ذلك على
صفة مارستانات المسلمين وأبصرنا لهم بعكة وبصور مثل ذلك فعجبنا
من اعتنائهم بهـذا القدر فلما صلينا الصبح توجهنا الى المدينة فجئنا
لندخل فمنعنا وحملنا الى الباب المتصل بقصور الملك الافرنجى أراح
الله المسلمين من ملكته وأدينا الى المستخلف من قبـله ليسألنا على
مقصدنا وكذلك فعلهم بكل غريب فسلك بنا رحاب وأبواب وساحات
ملوكيـة وأبصرنا من القصور المشرفة والميادين المنتظمة والبساتين
والمراتب المتخذة لاهل الخدمة ماراع أبصارنا وأذهل أفكارنا وتذكرنا
قول الله عز وجل (ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر
بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضـة ومعارج عليها يظهرون) وأبصرنا فيما
أبصرناه مجلساً فى ساحة فسيحة قد أحدق بها بستان وانتظمت جوانبها
بلاطات والمجلس قد أخذ استطالة تلك الساحة كلها فعجبنا من طوله
واسراف مناظره فأعلمنا انه موضع غداء الملك مع أصحابه وتلك البلاطات
والمراتب حيث تقعد حكامه وأهل الخدمة والعمالة امامه فخرج الينا ذلك
المستخلف يتهادى بين خديمين يحفان به ويرفعان أذياله فأبصرنا شـيخاً
طويل السبلة أبيض ذا ابهة فسألنا عن مقصدنا وعن بلدنا بكلام عربى
لين فأعلمناه فأظهر الاشفاق علينا وأمر بانصرافنا بعد ان أحفى فى السلام
والدعاء فعجبنا من شأنه وكان أول سؤاله لنا عن خـبر القسطنطينية

العظمى وما عندنا منه فلم يكن عندنا مانعلمه به وقد تقيد خبرها بعد هذا وكان من أغرب ما شاهدناه من الامور الفتانة ان أحد من كان قاعداً عند باب القصر من النصارى قال لنا عند انصرافنا عن القصر المذكور تحفظوا بما عندكم يا حجاج من العمال المسكين لئلا يقعوا عليكم وظن ان عندنا تجارة تقتضي التمكيس فاستجاب له أحد النصارى فقال ما أعجب أمرك يدخلون حرم الملك ويخافون من شئ ما كنت أود لهم الا آلافاً من الرباعيات امضوا بسلام لا خوف عليكم فقضينا عجباً مما شاهدناه وسمعناه وخرجنا الى أحد الفنادق فنزلنا فيه وذلك يوم السبت السادس عشر للشهر المبارك والثانى والعشرين لدسمبر وفي خروجنا من القصر المذكور سلكنا بلاطاً متصلا مشينا فيه مسافة طويلة وهو مسقف حتى انتهينا الى كنيسة عظيمة البناء فأعلمنا ان ذلك البلاط ممشى الملك الى هذه الكنيسة

﴿ ذكر المدينة التى هى حضرة صقلية أعادها الله ﴾

هي بهذه الجزائر أم الحضارة والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ومراد عيش يانع أخضر عتيقة أنيقة مشرقة مؤنقة تتطلع بمرأى فتان وتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان فسيحة السكك والشوارع تروق الابصار بحسن منظرها البارع عجيبة الشأن قرطبية البنيان مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان يشقها نهر معين ويطرد فى جنباتها أربع عيون قد زخرفت

فيها للملكها دنياه واتخذها حضرة ملكه الافرنجي أباده الله تنتظم بلبنها قصور انتظام العقود في نحور الكواعب وينقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب فكم له فيها لاعمرت به من مقاصير ومصانع ومناظر ومطالع وكم له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها ورفه بالاقطاعات الواسعة رهبتها وكنائس قد صبغ من الذهب والفضة صلبانها وعسى الله عن قريب أن يصلح لهذه الجزيرة الزمان فيعيدها دار ايمان وينقلها من الخوف للامان بعزته انه على مايشاء قدير وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بآذان مسموع ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى والاسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ويصلون الاعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي ولهم بها قاض يرتفعون اليه في أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون في وقيده في هذا الشهر المبارك وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا امن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم تلافاهم الله بصنع جميل بمنه ومن جملة شبه هذه المدينة بقرطبة والشيء قد تشبه بشيء من احدى جهاته ان لها مدينة قديمة تعرف بالقصر القديم هي في وسط المدينة الحديثة وعلى هذا المثال موضوع قرطبة حرسها الله وبهذا القصر القديم ديار كأنها القصور المشيدة لها مناظر في الجو مطلمة تحار الابصار في حسنها ومن أعجب ماشاهدناه بها من أمور الكفران

كنيسة تعرف بكنيسة الانطاكي أبصرناها يوم الميلاد وهو يوم عيد لهم عظيم وقد احتفلوا لها رجالا ونساء فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه ويقع القطع بأنه أعجب مصانع الدنيا المزخرفة جدرها الداخلة ذهب كلها وفيها من ألواح الرخام الملون مالم ير مثله قد وصعت كلها بفصوص الذهب وكللت بأشجار الفصوص الخضر ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج فتخطف الابصار بساطع شعاعها وتحدث في النفوس فتنة نعوذ بالله منها وأعلمنا أن بانيها الذى تنسب اليه أنفق فيها قناطير من الذهب وكان وزيراً لجد هذا الملك المشرك ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار من الرخام ملونة وعلت على أخرى سوار كلها فتعرف بصومعة السوارى وهى من أعجب مايبصر من البنيان شرفها الله عن قريب بالآذان بلطفه وكريم صنعه وزي النصرانيات في هذه المدينة زى نساء المسلمين فصيحات الالسن ملتحفات متنقبات خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفنا اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من تحلى والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهة الدعابة الادبية قول الشاعر

ان من يدخل الكنيسة يوما   يلق فيها جآزراً وظباء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ويؤدى الى أباطيل اللهو ونعوذ به من تقييد يؤدي الى تفنيد انه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام ونزلنا بها في أحد

فناديقها التي يسكنها المسلمون وخرجنا منها صبيحة يوم الجمعة الثاني
والعشرين لهذا الشهر المبارك والثامن والعشرين لشهر دسمبر الي مدينة
(اطرابنش) بسبب مركبين بها أحدهما يتوجه الى الاندلس والثاني الى
سبتة وكنا أقلعنا الى الاسكندرية فيه وفيهما حجاج وتجار من المسلمين
فسلكنا على قرى متصلة وضياع متجاورة وأبصرنا محاوث ومزارع
لم نر مثل تربتها طيباً وكرماً واتساعاً فشبهناها بقنبانية قرطبة أو هذه
أطيب وأمتن وبتنا في الطريق ليلة واحدة في بلدة تعرف بعلقمة وهي
كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد وسكانها وسكان هذه الضياع التي
فى هذه الطريق كلها مسلمون وقمنا منها سحر يوم السبت الثالث
والعشرين لهذا الشهر المبارك والتاسع والعشرين لدسمبر فاجتزنا بمقربة
منها على حصن يعرف بحصن الحمة وهو بلد كبير فيه حمامات كثيرة
وقد فجرها الله ينابيع من الارض وأسالها عناصر لايكاد البدن
يحتملها لافراط حرها فأجزنا منها واحدة على الطريق فنزلنا اليها عن
الدواب وأرحنا الابدان بالاستحمام فيها ووصلنا الى طرابنش عصر
ذلك اليوم فنزلنا فيها في دار اكتريناها

﴿ ذكر مدينة اطرابنش من جزيرة صقلية أعادها الله ﴾

هي مدينة صغيرة الساحة غير كبيرة المساحة مصورة بيضاء كالحمامة
مرساها من أحسن المراسي وأوفقها للمراكب ولذلك من يقصد
الروم كثيرا اليها ولا سيما المقلعون الي بر العدوة فان بينها وبين تونس

مسيرة يوم وليلة فالسفر منها اليها لا يتعطل شتاء ولا صيفاً الا ريثما لا تهب الريح الموافقة فجراها في ذلك مجرى المجاز الغريب وبهذه المدينة السوق والحمام وجميع ما يحتاج اليه من مرافق المدن لكنها في لهوات البحر لاحاطته بها من ثلاث جهات واتصال البر بها من جهة واحدة ضيقة والبحر فاغرفاه لها من سائر الجهات فأهلها يرون انه لابد له من الاستيلاء عليها وأن تراخي مدى أيامها ولا يعلم الغيب الا الله تعالى وهي مرفقة موافقة لرخاء السعر بها لانها على محرث عظيم وسكانها المسلمون والنصارى ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس وبركنها من جهة الشرق مائلا الى الشمال على مقربة منها جبل عظيم مفرط السمو متسع في أعلاه قنة تنقطع عنه وفيها معقل للروم وبينه وبين الجبل قنطرة ويتصل به في الجبل للروم بلد كبير ويقال ان حريمه من أحسن حريم هذه الجزيرة جعلها الله سبياً للمسلمين وبهذا الجبل الكروم والمزارع وأعلمنا ان به نحو اربعمائة عين منفجرة وهو يعرف بجبل حامد والصعود اليه هين من احدى جهاته وهم يرون أن منه يكون فتح هذه الجزيرة ان شاء الله ولا سبيل أن يتركوا مسلماً يصعد اليه ولذلك ما أعدوا فيه ذلك المعقل الحصين فلو حسوا بحادثة حصلوا حريمهم فيه وقطعوا القنطرة واعترض بينهم وبين الذي في أعلاه متصل به خندق كبير وشأن هذا البلد عجيب فمن العجب ان يكون فيه من العيون المنفجرة ما تقدم ذكره وطرابنش في هذا البسيط ولا ماء لها الا من بئر على البعد منها وفي ديارها آبار قصيرة الارشية ماؤها كلها

شريب لايساغ والفين المركبين اللذين يرومان الاقلاع الى المغرب بها ونحن ان شاء الله نؤمل ركوب أحدهما وهو القاصد الى بر الأندلس والله بعهود صنعه الجميل كفيل بمنه وفى غربى هذه البلدة اطرابنش المذكورة ثلاث جزائر في البحر على نحو فرسخين منها وهي صغار متجاورة احداها تعرف بمليطمة والاخرى بيابسة والثالثة تعرف بالراهب نسبت الى راهب يسكنها فى بناء أعلاها كأنه الحصن وهى مكمن للعدو والجزيرتان لاعمارة فيهما ولا يعمر الثالثة سوي الراهب المذكور

(شهر شوال عرفنا الله يمنه وبركته)

استهل هلاله ليلة السبت الخامس من يناير بشهادة ثبتت عند حاكم اطرابنش المذكورة بانه أبصر هلال شهر رمضان ليلة الخميس ويوم الخميس كان صيام أهل مدينة صقلية المتقدم ذكرها فعيد الناس على الكمال بحسب يوم الخميس المذكور وكان مصلانا في هذا العيد المبارك بأحد مساجد اطرابنش المذكورة مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر كان لهم فصلينا صلاة الغرباء جبر الله كل غريب الى وطنه وخرج أهل البلد الي مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات فعجبنا من ذلك ومن أغضاء النصارى لهم عليه ونحن قد اتفق كراؤنا فى المركب المتوجه ان شاء الله الى بر الأندلس ونظرنا في الزاد والله المتكفل بالتيسير والتسهيل ووصل أمر من ملك

صقلية بعمله المراكب بجميع السواحل بجزيرته بسبب الاسطول الذي يعمره ويعده فليس لمركب سبيل للسفر الى أن يسافر الاسطول المذكور خيب الله سعيه ولاتم قصده فبادر الروم الجنويون أصحاب المركبين المذكورين الى الصعود فيهما تحصناً من الوالي ثم امتد سبب الرشوة بينهم وبينه فأقاموا بمراكبهم ينتظرون هواء يقلعون به وفي هذا التاريخ المذكور وصلتنا أخبار موحشة من الغرب منها تغلب صاحب ميورقة على بجاية والله لا يحقق ذلك ويجعل العقبة والمدنة للمسلمين عنه وكرمه والناس بهذه المدينة يرجون الظنون في مقصد هذا الاسطول الذي يحاول هذا الطاغية تعميره وعدد أجفانه فيما يقال ثلاثمائة بين طرائد ومراكب ويقال أكثر من ذلك ويستصحب معه نحو مائة سفينة تحمل الطعام والله يقطع به ويجعل الدائرة عليه فمنهم من يزعم ان مقصده الاسكندرية حرسها الله وعصمها ومنهم من يقول ان مقصده ميورقة حرسها الله ومنهم من يزعم ان مقصده افريقية حماها الله ناكثاً لعهده في السلم بسبب الانباء الموحشة الطارئة من جهة المغرب وهذا أبعد الظنون من الامكان لانه مظهر للوفاء بالعهد والله يعين عليه ولا يعينه ومنهم من يرى ان احتفاله انما هو لقصد القسطنطينية العظمى بسبب ما ورد من قبلها من النبأ العظيم الشأن المهدى للنفوس بشائر تتضمن عجائب من الحدثان وتشهد للحديث المأثور عن المصطفى صلى الله عليه وسلم بصدق البرهان وذلك بأنه ذكر ان صاحبها توفي وترك بعده لزوجه ولداً ابن صغير فقام ابن عم له في الملك وقتل الزوج

المذكورة وثقف الابن المذكور ثم ان ابناً للثائر المذكور عطفته الرحمه
على الابن المعتقـل فأطلق سبيله وكان أبوه قد أمره بقتله فرمت به
الاقدار الى هذه الجزيرة بعد خطوب جرت عليه فوردها على حالة
ابتذال ومهنة استعمال خادماً لاحد الرهبان مسدلا على شارته الملوكية
ستراً من الامتهان ففشي الامر وذاع السر ولم يغن عنه ذلك الســتر
فاستحضر عن أمر الملك الصقلى غليام المذكور قبل واستنطق واستفهم
فزعم انه عبد لذلك الراهب وخديمه ثم ان طائفة من الروم الجنويين
المسافرين الى القسطنطينية اثبتوا صـفته وحققوا انه ذو مع مخايل
ودلائل ملوكيه لاحت منه منها فيما ذكر لنا ان الملك غليام خرج فى
يوم زينة له وقد صطف الناس للسلام عليه وأحضروا الفتى المذكور
في جملة الخاصة فصقع الجميع خدمة للملك وتعظيما لطلوعه عليهم الا
ذلك الفتى فانه لم يزد على الايماء فى السلام فعلم ان همة الملوكيه منعته
من المدخل مدخل السوقة فاعتني به الملك غليام واكرم مثوه وادركى
عيون الاحتراس عليه خوفاً من اغتيال يلحقه بتدسيس من ابن عمه
الثائر عليه وكان له أخت موصوفة بالجمال علق بها ابن العم الثائر على
الملك المذكور فلم يمكنه تزويجها بسبب ان الروم لا تنكح في الاقارب
فحمله الحب المصمي والهوى المصم المعمى والسعادة التى تفضى بصاحبها
الى العاقبة الحسنى وترمى على أخذها والتوجه بها الى الامير مسعود
صاحب الدروب وقونية وبلاد العجم المجاورة للقسطنطينية وقد تقدم
ذكر غنائه في الاســلام فيما مضي من هذا التقييد وحسبك ان صاحب

القسطنطينية لم يزل يؤدي الجزية اليه ويصالحه على ما يجاوره من البلاد فأسلم مع ابنة عمه على يده وسبق له صليب ذهب قد أحمي عليه في النار فوضعه تحت قدمه وهي عندهم أعظم علامات الترك لدين النصرانية والوفاء بذمة دين الاسلام وتزوج ابنة العم المذكورة وبلغ هواه وأخذ جيوش المسلمين معه الى القسطنطينية فدخلها بهم وقتل من أهلها نحو الخمسين ألفاً من الروم وأعانه الاغريقيون على فعله وهم فرقة من فرق أهل الكتاب وكلامهم بالعربية وبينهم وبين سائر الفرق من جنسهم عداوة كامنة رهم لا يرون أكل لحم الخنزير فشفوا نفوسهم من أعاديهم وقرع الله نبع الكفر بعضه ببعض واستولي المسلمون على القسطنطينية رنقلت أموالها كلها وهو مالا يأخذه الاحصاء الى الامير مسعود وجعل من المسلمين فيها ما ينيف على الاربعين ألف فارس واتصلت بلادهم بها وهذا الفتح اذا صح من أكبر شروط الساعة والله أعلم بغيبه ألفينا هذا الحديث بهذه الجزيرة مستفيضا على ألسنة المسلمين والنصارى محققين لا شك عندهم فيه أنبأت به مراكب الروم التي وصلت من القسطنطينية وكان أول سؤال مستخلف الملك بالمدينة لنا يوم أحضرنا لديه عند دخولنا للمدينة عما عندنا من خبر القسطنطينية فلم يكن عندنا علم ولا تعرفنا معنى السؤال عنها الا بعد ذلك وتحققوه أيضاً من جهة ملكها هذا الصبي وما كان من أتباع الثائر عليه ايه عيوناً تروم غيبته فهو اليوم بسبب ذلك عند صاحب صقلية محترس محافظ عليه لا يكاد يصل لحظ العيون اليه وأخبرنا انه رطيب غصن الصبا تحته م حمر

الشباب صقيل ورونق للملك عليه ناظر فى علم اللسان العربي وغيره بارع فى الادب الملوكى ذو دهاء علي فتوة سنه وغمرية شبيبته فالملك الصقلى على ما يذكر يروم توجيه الاسطول المذكور الى القسطنطينية أنفة لهذا الصبي المذكور وما جري عليه وكيفما توجه الامر فيه من هذه المقاصد فالله عز وجل ينكثه خاسراً على عقبه ويعرفه شؤم مذهبه ويجعل قواصف الرياح خاسفة به انه على ما يشاء قدير وهذا الخبر القسطنطيني حققه الله من أعظم عجائب الدنيا وكوائنها المرتقبة ولله القدرة البالغة فى أحكامه وأقداره

شهر ذى القعدة عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الاثنين الرابع من شهر فبراير ونحن بمدينة اطرابنش المتقدم ذكرهامنتظرين انسلاخ فصل الشتاء واقلاع المركب الجنوي الذي أملنا ركوبه الي الاندلس ان شاء الله عز وجل والله سبحانه يمن مقصدنا وييسر مرامنا بمنه وكرمه وفي مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها دمرهم الله وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهدة الذمة وغلظة الملك الى طوارئ دواعى الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم وربما تسبب الى بعض أشياخهم أسباب نكالية تدعوه الى فراق دينه فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التي هى

حضرة ملكهم الطاغية ويعرف بابن زرعة ضغطته العمال بالمطالبة حتى
أظهر فراق دين الاسلام والانغماس فى دين النصرانية ومهر فى حفظ
الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم فعاد في جملة القسيسين
الذين يستفتون في الاحكام النصرانية وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتى
أيضاً فيه لما سبق من معرفته بالاحكام الشرعية ويقع الوقوف عند
فتياه في كلا الحكمين وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ
بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ومع ذلك فاعلمنا انه يكتم
ايمانه فلعله داخل تحت الاستثناء في قوله (إلا من أكره وقلبه مطمئن
بالايمان) ووصل هذه الايام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة
من المسلمين وسيدهم القائد أبو القاسم ابن حمود المعرف بابن الحجر
وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابراً عن
كابر وقرر لدينا مع ذلك انه من أهل العمل الصالح مريد للخير محب
في أهله كثير الصنائع الاخروية من افتكاك الاسارى وبث الصدقات
في الغرباء والمنقطعين من الحجاج الى مآثر جمة ومناقب كريمة فارتجت
هذه المدينة لوصوله وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية
ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه فيها أحاديث
مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين أيدهم الله فكادت تقضى عليه
لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفاً على الثلاثين ألف
دينار مؤمنية ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن
سلفه حتى بقي دون مال فاتفق فى هذه الايام رضي الطاغية عنه وأمره

بالنفوذ لهم من أشغاله السلطانية فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة رغبة في الاجتماع بنا فاجتمعنا به فأظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ما يبكي العيون دماً ويذيب القلوب ألماً فمن ذلك انه قال كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتي فلعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ويؤدي بنا الى الحصول في بلاد المسلمين فتأمل حالا يؤدي بهذا الرجل مع جلالة قدره وعظم منصبه الى أن يتمنى مثل هـذا التمني مع كونه مثقلا عيالا وبنين وبنات فسألنا له الله عز وجل حسن التخليص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة وواجب على كل مسلم الدعاء لهم في كل موقف يقف بين يدي الله عز وجـل وفارقناه باكياً مبكياً واستمال نفوسنا بشرف منزعه وخصوصية شمائله ورزانة حصاته وشمول مبرته وتكرمته وحسن خلقه وخليقته وكنا قد أبصرنا له ولاخوته ولاهل بيته بالمدينة دياراً كأنها القصور المشيدة الانيقة وشأنهم بالجملة كبير لاسيما هذا الرجل منهم وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج وصعاليكهم أصلحت أحوالهم ويسرت لهم الكراء والزاد والله ينفعه بها ويجازيه الجزاء الاوفى عليها بمنه ومن أعظم ما منى به أهـل هـذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه آنفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة فيتنصر ويتعمد فلا يجد الاب للابن سبيلا ولا الام للبنت سبيلا فتخيل حال من منى بمثل هذا في أهله وولده ويقطع عمره متوقعاً لوقوع هذه

الفتنة فيهم فهم الدهر كله في مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال
وأهل النضر في العواقب منهم يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق
على أهل الجزيرة أقريطش من المسلمين في المدة السالفة فانه لم تزل
بهم المملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء حالا بعد
حال حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم وفر منهم من قضى الله
بنجاته وحقت كلمة العذاب على الكافرين والله غالب على أمره لا اله سواه
ومن عظم هذا الرجل الحمودي المذكور في نفوس النصارى أبادهم الله
انهم يزعمون انه لو تنصر لما بقي في الجزيرة مسلم
الا وفعل فعله اتباعا له واقتداء به تكفل الله بعصمته جميعهم ونجاهم
مما هم فيه بفضله وكرمه ومن أعجب ما شهدناه من أحوالهم التي تقطع
النفوس اشفاقا وتذيب القلوب رأفة وحنانا ان أحد أعيان هذه البلدة
وجه ابنه الى أحد أصحابنا الحجاج راغباً في ان يقبل منه بنتاً بكراً
صغيرة السن قد راهقت الادراك فان رضيها تزوجها وان لم يرضها زوجها
ممن رضي لها من أهل بلده ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيها واخوتها
طمعاً في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين
فطابت الاب و الاخوة نفسا لذلك لعلهم يجدون السبيل للتخلص الى
بلاد المسلمين بأنفسهم اذ زالت هذه العقلة المقيدة عنهم فتأجر هذا
الرجل المرغوب اليه بقبول ذلك واعناه على اغتنام هذه الفرصة
المؤدية الى خير الدنيا والاخرة وطال عجبنا من حال تؤدي بانسان الى السماح
بمثل هذه الوديعة المعالقة من القلب واسلامها الى يد من يغربها واحتمال

الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها كما أنا استقرينا حال
الصبية صانها الله ورضاها بفراق من له رغبة في الاسلام واستمساكا
بعروته الوثقى والله عز وجل يعصمها ويكفلها ويؤنسها بنظم شملها
ويجمل الصنع لها بمنه واستشارها الاب فيما هم به من ذلك فقالت له ان
أمسكتني فأنت مسؤل عني وكانت هـذه الصبية دون أم ولها اخوان
وأخت صغيرة أشقاها

(شهر ذي الحجة عرفنا الله يمنه وبركته)

غم هلاله علينا لتوالي الانواء فاكملنا أيام شهر ذي القعدة بحسابه
من ليلة الاربعاء السادس لشهر مارس ونحن بهذه المدينة المذكورة
طامعين في قرب السفر مبشرين بطيب الهواء والله ييسر مرامنا
ويتكفل بسلامتنا بعزته واتفق ان أبصرنا الهلال ليلة الاربعاء كبيراً
فعلم انه من ليلة الثلاثاء فانتقل حساب الشهر اليها وفي ظهر يوم الاربعاء
التاسع من الشهر المذكور والثالث عشر من مارس وهو يوم عرفة
عرفنا الله بركته وبركة الموقف الكريم فيه بعرفات كان صعودنا الى
المركب يمنه الله ورزقنا السلامة فيه مبيتين للسفر قرب الله علينا مسافته
فأصبحنا على ظهر المركب صبيحة عيد الاضحى نفعنا الله بمقاساة الوحشة
فيه ونحن نيف على الخمسين رجلا من المسلمين عصم الله الجميع ونظم
شملهم بأوطانهم بمنه وكرمه انه سبحانه كفيل بذلك ورمنا الاقلاع فلم
توافق الريح فلم نزل نتردد من المركب الى البر ونبيت للسفر كل ليلة
اثني عشر يوما الى ان أذن الله بالاقلاع صبيحة يوم الاثنين الحادي

والعشرين لذى الحجة المذكور والخامس والعشرين لمارس فأقلعنا على بركة الله تعالى في ثلاثة مراكب من الروم قد توافقت على الاصطحاب فى الجرى وأن يمسك المتقدم منها على المتأخر فوصلنا الى جزيرة الراهب وقد تقدم ذكرها فى هذا التقييد وبينها وبين اطرابنش نحو ثمانية عشر ميلا فتغير الريح علينا فلنا الى مرساها فكان من الاتفاق العجيب ان ألفينا فيها مركب مركون الجنوي المقلع من الاسكندرية بنحو مائتي رجل ونيف من أصحابنا الحجاج للمغاربة الذين كنا فارقناهم بمكة قدسها الله في ذي الحجة من سنة تسع ولم نسمع لهم خبراً منذ فارقناهم ولا سمعوا لنا وكان فيهم جماعة من أصحابنا من أهل غرناطة منهم الفقيه أبو جعفر ابن سعيد صاحبنا ونزيلنا بمكة مدة مقامنا فيها فاحين ما علموا بنا تطلعوا الينا من المركب متعلقين بحافاته وجوانبه رافعين أصواتهم ببشري السلامة واللقاء مسرورين بالاجتماع باكين من الفرح دهشين ذاهلين لوقوع المسرة من نفوسهم ونحن لهم على مثل تلك الحال فكان يوما مشهوراً اتخذناه عقب العيد عيداً جديداً ونزل الاصحاب بعضهم الى بعض وباتوا وبتنا بأسر ليلة وأنعمها وجعلنا هذا الاجتماع عنواناً كريماً لما نؤمله من انتظام الشمل بالاوطان انشاء الله عز وجل وأهب الله علينا ريحاً طيبة فى سحر تلك الليلة وهى ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من الشهر المذكور فأقلعنا بها ونحن في أربعة مراكب كلها تؤمل جزيرة الاندلس بحول الله تعالى وسرنا ذلك اليوم كله بريح تزجي المراكب تزجية حثيثة ونحن من الشوق الى الاندلس بحال تكاد لها

النفوس تقوم مقام الرياح في حث الرياح وانزعاجها والله يمن بالتسهيل والتعجيل ثم انقلبت الريح غربية بعد مسير يوم وليلتين فضربت في وجوهنا فانكصتنا على الاعقاب فرجعنا عوداً على بدأ الى مرسي جزيرة الراهب فوصلنا اليه ليلة الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور ثم أقلعنا منه عشي يوم الجمعة بعده منفردين دون المراكب المذكورة فأزعجتنا ريح شديدة خرق لها المركب في الجري فأصبحنا يوم الاحد السابع والعشرين من الشهر ونحن على طرف جزيرة سردانية وقد قطعناها جرياً وطولها أزيد من مئتي ميل فاستبشرنا وسررنا وقدر للمركب في يوم وليلتين قطع نيف على خمسمائة ميل فكان أمراً مستغرباً ثم ان الريح الموافقة ركدت عنا وهبت ريح أسقطتنا ليلة الاثنين الثامن والعشرين منه وهو أول ابريل الى جهة بر أفريقية فأرسينا يوم الاثنين المذكور بجزيرة تعرف بجالطة وهي جزيرة غير معمورة ويقال انها كانت معمورة في القديم وهي مقصد العدو وبينها وبين البر المذكور نحو ثلاثين ميلا وهو منا رأي العين فأقمنا بها بعد أهوال لقيناها في دخول مرساها عصم الله منها وتوالت الانواء علينا فيها ونحن ننتظر فرجاً من الله تعالى وكان مقامنا فيها أربعة أيام آخرها يوم الخميس مستهل محرم

﴿شهر محرم سنة احدى وثمانين عرفنا الله بركتها بمنه﴾

غم هلاله علينا فحسبنا على الكمال من ليلة الخميس الرابع لشهر

ابريل عرفنا الله بركة هذه السنة ويمنها ورزقنا خيرها ووقانا شرها ومن علينا بنظم الشمل فيها انه سميع مجيب وفي ليلة الجمعة الثاني منه أهب الله علينا ريحاً شرقية أقلعنا بها وهولين رخاء لي ان استشرى فعاد ريحاً شديدة جرى بها المركب أقوى جرى وأعد له وما زلنا منذ ركبنا البحر نتلسم هذا الافق الشرقي شوقاً الى ريحه فلا يهب منه نسيم حتي خلناه لعدمه عنقاء مغرباً الى أن تداركنا الله بلطفه وجميل صنعه فأجراه لنا الآن في شهر نيسان عرفنا الله السلامة بمنه وكرمه وصحبتنا هذه الريح الشرقية نحو يومين سرنا فيهما سيراً حثيثاً وتركنا جزيرة سردانية عن يميننا ثم تلاعبت بنا الرياح المختلفة فأقمنا بها نضرب البحر طولا وعرضاً ولايتراءى لنا بر حتى ساءت ظنوننا وتوهمنا اسقاط الرياح لنا الى جهة بر (برشلونه) دمرها الله الى أن أذن الله بالفرج فأبصرنا بر جزيرة يابسة ليلة السبت العاشر من الشهر المذكور ونحن لانكاد نتبينه لبعده خيالا خفياً فلما كان يوم السبت المذكور بان لنا فدخلنا مرسي الجزيرة المذكورة مع الليل بعد مكابدة اختلاف الرياح في دخوله فأرسينا والمدينة منا على مقدار أربعة أميال وكان ارساؤنا بازاء جزيرة (فرمنتيرة) وهي منقطعة على جزيرة يابسة وبينهما مقدار أربعة أميال أوخمسة وفيها قرى كثيرة معمورة فأقمنا بمرساها ونحن بمقربة من الجبلين المنقطعين المتناظرين المعروفين بالشيخ والعجوز وفي تلك الليلة مع المغيب أبصرنا جبال بر الاندلس وأقربها منا جبل دانية المعروف بقاعون فحدقت الابصار لهذا البر سرور أيعرآه واستبشرت

الانفس بادنو منه وأصبحنا يوم الاحد الحادى عشر من الشهر المرسي المذ كور والريح غربية ونحن ننظر تميم الصنع الجميل من الله عزوجل بارسال الريح الموافقــة لنسرا بين يدى رحمتــه ان شاء الله وفى ضحوة يوم الثلاثاء الثالث عشر منه أقلعنا على اليمن والبركة بريح شرقية لينة المهب لها أنفس خافت داعين الله عز وجــل فى أحياء ذماتها وتقويتها اجرائها وجبال دانية امامنا رأى العين والله يتم فضــله علينا ويكمل صنعه بعزته لما وتمادت وانتشرت بفضــل الله تعالى فنزلنا بقرطاجنة عشي يوم الخميس الخامس عشر منــه شاكرين لله على ما من به من السلامة والعافية والحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد خاتم النبيين وامام المرسلين ثم أقلعنا منها أثر صلاة الجمعة السادس عشر منه فبتنا في فحص قرطاجنة بالبرج المعروف ببرج الثــلاثة صهاريج ثم منه يوم السبت الي مرسية ومنها فى اليوم بعينه الى لبرالة ثم منها يوم الاحــد الى الورقة ثم منها يوم الاثنين الي المنصورة ثم منها يوم الثــلاثاء الى قنالش بسطة ثم منها يوم الاربعاء الى وادى آش ثم منها يوم الخميس الثانى والعشرين لمحرم والخامس والعشرين لابريل الي المنزل بغرناطة

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قر عيناً بالاياب المسافر

والحمد لله على الصنع الجميل الذي أولاه • والتيسير والتسهيل الذي والاه • وصلواته على سيد المرسلين • والآخرين محمد رسوله الــكريم ومصطفاه • وعلى آله وأصحابه الذين اهتــدوا بهداه • وسلم وشرّف وكرّم فكانت مدة مقامنا من لدن خروجنا من غرناطه الى وقت ايابنا هذا عامين كاملين وثلاثة أشهر ونيفاً والحمد لله رب العالمين

تلك آثارنا تدل علينا ‏ ‏ ‏ ‏ فانظروا بعدنا الى الآثار

فهرست رحلة ابن جبير الأندلسي

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة